

ابن العم

(كمان الأشمونين)

محمد عزيز الشافعي

دار كليوباترا للنشر والتوزيع

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عزيز / الشافعي

ابن العم : محمد عزيز الشافعي/ رواية

القاهرة : دار كليوباترا للنشر والتوزيع.

عدد الصفحات : 314

الترقيم الدولي : 4-52-6619-977-978

رقم الإيداع : 2017/2818

تصنيف الكتاب :

القصة العربية



الناشر دار كليوباترا للنشر والتوزيع

المدير التنفيذي : ضحى جبر

رئيس مجلس إدارة : عفاف محمد علي

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام

إشراف عام : ماجدة محمد علي

عمليات الإخراج الداخلى والتصحيح اللغوي: دار كليوباترا للنشر والتوزيع

(سمير حشيش) وتنسيق (محمود علي)

المراسلات :

لاتصال: / 01019983371 / 0225244534 / 01125574129

dar.cleopatra@gmail.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر، ويحظر نشر أو اقتباس

هذا العمل , ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

(١)

أصرت (ليندسي) على دعوة (حامد) هذه المرة على الغداء، إنها مذ
تعرفت عليه منذ قرابة العام وما من مرة يجمعهما لقاء في أحد
المقاهي أو المطاعم إلا وتأخذة الحمية العربية والصعيدية ويأبي
عليها أن تدفع جنيها واحدا. في العادة تتعمد هي اختيار واحد من
المطاعم الشعبية العريقة أو أحد المقاهي العتيقة مكانا للقائهما،
ليس لأنها تكون أرخص تكلفة عادة ولكن لأنها تهوى سحر الماضي
ونشوى التعتق اللذين تعبق بهما هذه الأماكن وتلك الشوارع والأزقة
التي تلفها، والتي قد يكون تاريخ بعضها في القاهرة أقدم من كل
تاريخ بلدها أمريكا!

تعرفت (ليندسي) - أو (ليندا) كما يحلو (لحامد) أن يدعوها - على
(حامد عفيفي) بعد أسابيع قليلة من مجيئها إلى جامعة القاهرة
لاستكمال رسالتها الجامعية العليا في الآثار المصرية القديمة والتي
تتطلب منها بحثا ميدانيا في أرض الفراعنة كما يروق لها أن تسمي
مصر. كان (حامد) يومها قرب إتمام عامه الدراسي الأخير في كلية
الآثار، وباعتباره صعيدي الأصل ومن بلدة (الأشمونين) - التابعة
لمدينة (المنيا) المصرية - والتي تعوم فوق بحر من الآثار والمعابد
المصرية واليونانية فقد اتجه للتخصص في ترميم الآثار الفرعونية.

لا تتذكر (ليندسي) كيف تقاربا بهذه السرعة، لكنها تدرك أن أكثر ما أثار ارتياحها إليه أنه اتخذها صديقة فقط ولم تكن له فيها - كغيره من الرجال - مآرب أخرى!.. تلك أشياء تدركها المرأة بالفطرة، بل حتى أحيانا بدون أن تنظر في عيني الرجل، لديها القدرة أن تشم رائحة هرمونات الرجل إن اضطرت بشرايينه.. أن تسمع أفكاره إن صخبت في رأسه مطالبةً إياه بتلبية نداء الطبيعة.. لكن (حامد) لم يثر أي ريبة في رادارات (ليندسي) الأنثوية، بل كانت عيناه تكتفیان بالنظر إليها تملؤهما نظرات التقدير لجمالها الهادئ، كأنها نظرات دارسٍ للآثار ومتذوقٍ للفن ترنو إلى تمثالٍ مرمريٍّ جميل، بالذات وأن (ليندسي) تتمتع بجمالٍ أقرب منه للشرقي، فليس فيها من لمسات ريشة عالم أهل شمّال الأرض إلا البشرة البيضاء الناصعة والقوام النحيف في رشاقة، بينما استسلم لونا شعرها الناعم وعينيها الواسعتين لمقاييس الكتاب العربي.

وصلت (ليندسي) إلى المطعم قبل (حامد) وما هي إلا دقائق وكان هو يجتاز مدخل المطعم، أشارت إليه فاتجه نحوها بقامته المتوسطة الطول وبشرته السمراء التي ورثها عن والده الصعيدي وشعره الأسود الناعم الذي ورثه عن أمه بنت إحدى المدن الساحلية في محافظة (البحيرة) الرابضة على شاطئ البحر الأبيض، بادرها قائلاً وهو ينظر إلى ساعته:

_ أهلا (ليندا)، هل تأخرت عن موعدتي؟

ردت في ابتسام:

_ بل أنا من أتيت مبكرا عدة دقائق.

اتخذ كرسيه وهو يقول:

_ سأترك لك اختيار الطعام على ذوقك.

ضحكت وهي تقول:

_ الآنني صاحبة الدعوة هذه المرة فلا تريد أن تبهظني ثمها؟

ردّ مبتسما ووجهه يتخضب في إحراج:

_ أنا أعلم أنك ميسورة الحال ورفضتِ تدريس اللغة الإنجليزية هنا في المعهد الأمريكي بدوام جزئي كي تصرفي كل وقتك في إتمام رسالتك الجامعية، لكن هذه مبادئ بالنسبة لي كرجل شرقي، أنت لا تدرकिन كمّ ما أشعره الآن من إحراج، ولولا إصرارك لترددت كثيرا في قبول الدعوة خاصة أنك اخترتِ هذا المطعم الفاخر.

ردت وقد اكتسى صوتها ببعض نبرات الأسي:

_ اعتبرها دعوة لتوديعك قبل سفرك إلى قريبتكم (الأشمونين).. متى

ستسلم عملك هناك؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ابتسم (حامد)؛ فلکم یحب طریقة نطقها الأعجمیة لاسم بلدته
والتي تقلب الهمزة فیها ألفا خفیفة (لاشمونین) ثم قال:

_ بعد أسبوع.. الحقیقة أنني سأتسلم عملي فی متحف مدینة (ملوي)
لكنها مدینة لا تبعد إلا عدة کیلومترات عن قریتنا ولذلك سأقیم فی
بلدتنا فی منزل والدي القدیم هناك.

_ هل كان لوالدك رحمه الرب منزل هناك بجانب منزلکم هنا فی
القاهرة؟

_ هو فی الحقیقة منزل جدي لأبي وقد ورثه أبي مع عمي الوحید،
ولأنني الابن الوحید بجانب أختي الكبرى والوحيدة والتي تزوجت
منذ سنوات فأنا اعتبر الوریث لحصه والدي فی هذه الدار..

ثم أكمل مبتسما:

_ كما ترین فعائلتنا تحدد النسل عكس معظم أهالي الصعید.

ابتسمت ثم قالت:

_ لكنی فعلا سأفتقدك فأنا لست اجتماعیة بدرجة كبریة ولم أکتسب
إلا صداقات قلیلة هنا.

_ وماذا أقول أنا وأنا الذي لم أذهب هناك طوال حیاتي الماضیة إلا
زائرا فی الإجازات السنویة؟ بل لم أزر البلدة منذ قرابة العامین. لقد

اعتدت منذ مولدي على حياة العاصمة، ولكن أنتِ تعلمين أزمة الوظائف، فلم أجد وظيفة تناسب دراستي إلا تلك والتي توسط لي فيها بعض أقاربي هناك في الصعيد.

قالت وهي تبتسم:

_ لا زلت أذكر قصصك عن الأهالي التي تحفر أسفل بيوتها عندكم بحثا عن الآثار، لكني لا أصدق قصص السحر الذي يستعان به في عمليات التنقيب تلك.

_ أنا أيضا كنت لا أصدقها حتى رأيت بعض ذلك بنفسي في إحدى زياراتي؛ كان ذلك منذ قرابة العامين وأنا واقف بباب بيتنا الرابض هناك على أطراف القرية، وكان يقف معي وقتها (صلاح) ابن عمي، إذ وجدنا صراخا يأتي مدويا من داخل أحد بيوت القرية التي تتراءى لمنزلنا، وما هي إلا ثوانٍ وينفتح باب ذلك البيت بعنف ومنه يركض شابان وهما لا يزالان يواصلان الصياح، بعد ذلك عرفنا أنهما كانا ينقبان في أرض بيتهما بحثا عن الآثار، وكانا يستمران في الحفر طبقا لتعليمات الساحر الذي أحضراه أولا لصرف الجني حارس الكنز ثم يرسم لهما خطة الحفر كي يتجنبنا الشراك الحارسة - كما يسمونها - التي كان يصنعها الفراغنة لمقابرهم وكنوزهم، وعندما طالت بهما أيام الحفر ولم يصلا لشيء بعد، همس أحدهما لأخيه؛ يبدو أن ذلك

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

الساحر وعفريته مجرد نصابين، فإذا بهما بشبح يتجسد لهما من بين
ركام الحفر على هيئة ذلك الساحر ويصيح فيهما بغضب:

أنا لست كذابا أيها العبيد!

ثم يتخبر صاعدا لأعلى، وتنكسر السقالة التي كان يقف عليها
الشابان، ليخرجا بحالتهما الهستيرية تلك... هذا ما تداوله الناس فيما
بعد تفسيراً لصراخهما.

مطت (ليندسي) شفيتها للأمام ثم قالت:

_ لست أدري، ولكن هل وجدا شيئاً بعد كل ذلك؟

_ الساحر أخبرهما أن الجنّي قد غضب على الجميع ولن يسمح لأحدٍ
منهم بالاقتراب من الخبيثة المنتظرة.

_ أها.. حيلة قديمة، يأخذ ذلك الدجال أجرته ثم يخترع أي قصة
للتملص.

_ أولاً الساحر لم يخترع أي شيء بل حصل ما حصل للشابين بعد أن
قالا ما قالوا، ثم إن الشبح ظهر للشابين معاً فلا يمكن أن تكون مجرد
تهيؤات لأحدهما، وثالثاً فإن الساحر لم يتقاض مليماً، إنه يدخل
مشاركة في الغنيمة.

_ مشاركة؟

رد (حامد) وهو يشرع في تناول الطعام الذي حضر:

_ نعم، يتم تقسيم حصيلة البحث على ثلاثة أنصبة، ثلث لصاحب المكان وثلث لممول تكاليف الحفر وثلث للشيخ.

_ الشيخ؟

_ أقصد الساحر الذي يتعامل مع الجنى حارس الخبيثة، يكون أحيانا ساحرا يتعامل بالسحر، وأحيانا يكون شيخا أو قسيسا يتلو بعضا من كتابه المقدس - كلا حسب ديانته - وفي الحالات الثلاث يسمى شيخا مجازا.

ردت وهي ترفع الطعام بشوكتها إلى فمها الواسع الجميل:

_ بصراحة لا أؤمن بالكلام عن الجن حراس الكنوز والمقابر، وإلا فكيف تفسر أن البعثات العلمية للتنقيب عن الآثار هي من وجدت أهم بل غالبية المواقع الأثرية في بلادكم؟ وهي بالتأكيد لا تستخدم لا سحرة ولا شيوخ.

_ لا تأخذي كلامي على أي أؤمن بذلك، أنا فقط أسرد لك ما يُتداول من حواديت الآثار في قريتنا... وما أكثرها!

_ ألهذه الدرجة تنتشر ظاهرة التنقيب في قريتك؟

_ بل تنتشر بكثافة في كل قرى الصعيد التي تجاور المناطق الأثرية..

وابتسم وهو يمد يده بالملعقة إلى فمه ثم أكمل:

_ من القصة الشهيرة أن مزارعا في إحدى القرى من حولنا كان يقطن بيتا قديما ورثه عن آباءه وأجداده، وكان يربي في حظيرة بيته بعض الماشية بغرض تسمينها ثم بيعها، وذات يوم اصطحب معه إلى بيته أحد التجار الأقباط الغرباء عن القرية لمعاينة ما يريد بيعه من الماشية، فلاحظ ذلك التاجر القبطي وجود أيقونات قبطية باهتة على جدران داره، فسأله عنها فقال المزارع إنه لا يدري عنها سوى أنه ورث الدار بها هكذا وأجداده اشتروها بدورهم هكذا، وفي اليوم التالي زاره التاجر ومعه أحد القساوسة الشباب الذي عاد في اليوم الثالث ومعه قساوسة أكبر، وبعد أن عاينوا الأيقونات بدقة طلبوا من المزارع شراء منزله بأي ثمن لأن هذه الأيقونات تدل على أن الدار كانت محطة في رحلة السيد المسيح والعائلة المقدسة إلى صعيد مصر..

فقاطعته باستنكار:

_ وهل رسمت العائلة المقدسة أيقوناتها قبل مغادرة المنزل؟ أم كيف بقيت جدران الدار صامدة طوال ألفي سنة؟

رد مبتسما:

_ كالعادة تتبين منهج مدرسة الشك التي تنتمي لفكرها.. بالتأكيد رُسمت الأيقونات بعد دخول المسيحية إلى مصر وكان ذلك قريب

عهدٍ من الرحلة المقدسة، ولا بد أن هناك من كان يعيد رسم الأيقونات كلما احتاج البيت إلى دهان أو ترميم، فالكثير يحلو لهم الحفاظ على القديم، لكن ليست هذه هي المسألة المهمة، المهم أن صاحب الدار تمنع عن البيع في البداية، لكن يقال إن ضغوطاً أمنية عالية المستوى مورست عليه، بالرغم من أن السلطات عندنا تتحفظ بشدة على بناء أي كنيسة جديدة، لكن كل الخبراء - دينيين أو أثريين - الذين فحصوا الأيقونات أكدوا أصالتها، فأصبح ذلك البيت قضية دينية وأثرية بل وسياسية، وبالطبع حدثت ترضيات مالية كبيرة للمزارع لدرجة أن قيل أنه أغمى عليه عندما سمع السعر النهائي الذي عرضه.

_ ومن مؤل شراء ذلك المنزل؟

_ أحد رجال الأعمال المسيحيين الكبار، وشركته للمقاولات والإنشاء هي التي تولت أيضاً هدم المنزل وبناء كنيسة مكانه، وذلك لأن البيت كان مبنياً على أطراف الكوم..

قاطعته سائلاً:

_ وما هو ذلك الكوم؟

_ القرى النائمة عندنا في الصعيد على ضفاف النيل أو القريبة من روافده ومجاريه، وقبل بناء السد العالي على نهر النيل، كانت منازلها

مهدة بالغرق عند فيضان النهر، فكانوا يصنعون من الردم ومن طمي النيل كوما عاليا يغطي مساحة كبيرة ويدكونه جيدا ثم بينون بيوتهم فوقه فتكون آمنة قدر الإمكان حال حدوث الفيضان، بل ومن كان يعيد بناء داره يهدم القديم ويبنى الجديد فوق أطلاله، حتى صارت بعض البيوت كأنها طبقات من التاريخ فوق بعضها البعض..

لكن عندما يتعلق الأمر ببناء كبيرٍ مثل تلك الكنيسة فكان لابد من وضع أساسات متينة ودق خوازيق قوية، فكان الحفر لأعماق ذلك الكوم، وهنا بدأت الإشاعات.. آثار فرعونية ومماثيل ذهب وخرنات برديات يقول مروجو الإشاعات بأنها خرجت من باطن الأرض في عدة صناديق كبيرة في جنح الظلام، ويقال إن رجل الأعمال هذا انتقلت أعماله نقلة كبرى بل ونوعية بعد عثورهم على هذه الخبيثة الضخمة.

ضحكت في سخرية وقالت:

_ نموذج من الخيال الرفيفي بامتياز، لكن أنا أتساءل إن كنت أنت تصدق أمثال هذه القصص؟.

_ ليس المهم أن أصدق أنا أو لا أصدق، لكن الشاهد في هذه القصة أن أهل تلك القرية أصابتهم حمى الحفر تحت بيوتهم بالذات تلك التي تقع فوق ذلك الكوم، لدرجة أن بعض الأهالي كانوا يقابلون

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

بعضهم البعض داخل أنفاقهم التي حفروها! وكم نشأت بينهم
منازعات بسبب ذلك، بل كم انهارت بيوت جراء ذلك التنقيب
المجنون!

صمتت (ليندسي) في ذهول حتى توقفت ملعقتها في منتصف الطريق
بين طبق الشوربة وبين شفيتها المكتنزتين، ثم هزت رأسها وهي تقول:

_ أوه، يا إلهي! وأين الشرطة من كل ذلك؟

_ أولا لم يُقدّم أي بلاغ للشرطة من أي أحد فالكل كان يحفر، ثانيا
إن أغلب أعمال الحفر لم تسفر إلا عن خراب بيوت أصحابها، فكان
ذلك أبلغ درس لهم!

_ إذن فالبعض الآخر - وإن كانوا قلة - قد عثروا على مبتغاهم.

_ هنا أيضا تتوقف الحقيقة وتبدأ الإشاعات، فمن يعثر على أي شيء
يدخل في متاهة أكبر من أجل تصريف ما وجده والذي يجب أن يتم
بعيدا عن متناول أيدي الشرطة أو اللصوص أو النصابين، خصوصا أن
المشتري يكون دائما أجنبيا، فلا تكادين تسمعين إلا حواديت أغلبها
كذب أو تهويل، لأن من يجد خبيثة فلن يزف بشرائها لمن حوله!
لكن القاعدة تقول إن من تظهر عليه علامات الثراء المفاجئ في
الصعيد فلا بد أن كنزا قد فتح تحت قدميه.

_ لا أصدق أن الشرطة تقف مكتوفة الأيدي أمام ذلك التخريب والتجريف للثروة الحقيقية في بلدكم؛ وأقصد بها التاريخ، هؤلاء ليسوا فقط يجرفون وطنكم من آثاره بل يطمسون معالم التاريخ ذاته، كم من حلقات تاريخية ظلت مفقودة وكم من خلاف تاريخي لم يحسم بسبب طمس جدران بعض المعابد والمقابر أثناء ذلك الحفر العشوائي أو بسبب إتلاف الكثير من البرديات والألواح.

ضحك (حامد) وهو يقول تعقيباً على كلامها:

_ بمناسبة كلامك عن الإتلاف فإن حكاية قديمة متوارثة عندنا أن مزارعاً عجوزاً كان يسقي أرضه فارتطمت فأسه في مجرى الماء بشيء صلب، فظل وراءه حتى استخرجه من قلب الطين فوجدها خزنة فرعونية ضخمة في حجم صناديق الملابس القديمة، فتحها فوجدها مليئة بالبرديات ذات النقوش والرسومات، نظر للرسومات وللكتابة بغير اكتراث ثم استعملها كوقودٍ لناره التي أشعلها ليتدفأ من ليل شتاء الصعيد وليعد لنفسه إبريقاً من الشاي! وقتها كانت هناك بعثة إنجليزية تنقب في منطقة (تونة الجبل) الأثرية القريبة من قريتنا، وعندما سمع أحد علماء البعثة بالحكاية من بعض العمال الذين يحفرون معه، جاء إلى القرية وطلب معاينة تلك الخزانة، وبمجرد أن قرأ ما على غطائها من نقوش أصابته ثورة شديدة وهجم على ذلك

المزارع العجوز يريد الفتك به، وخلصه الناس من بين يدي الثور
الإنجليزي الهائج بصعوبة!

ردت (ليندسي) ووجهها يحمر غضبا:

_ أرايت؟ لا تلومونا إذن عندما نعتبر أنفسنا أولى بهذه الآثار منكم،
فهي تراث للبشرية جميعا والأولى به هو من يحافظ عليه.

_ لا تنس أنها قصة قديمة ووقتها لم تكن الناس قد فطنت لمعنى
الآثار، بل البشرية نفسها لم تبدأ في تقدير قيمة الآثار إلا منذ مئتي
عام فقط أو أقل، وقصة هذا المزارع أو غيره لا تعط المبرر لنهب آثارنا
كما فعلت بعثات أوروبا في القرنين الماضيين، والأثرياء عندكم الذين
يهوون شراء الآثار يعلمون جيدا أنها غير شرعية ولذلك لا تباع علنا.

_ ولا تنس أن كثيرا من الآثار والتي لا تعوض خرجت كهدايا من
حكوماتكم سواء في فترة الملكية أو فترة الجمهورية، فلا تلم المشتري
إذا كان البائع متهاونا في أمر بضاعته.

رد في سخرية:

_ أنتقصدن ألا ألوم الذئب إذا كان حارس الغنم نائما؟

_ أولا من حق الذئب أن يأكل فلا تلمه لأنه يدافع عن حقه في البقاء،
ثانيا أنتم هكذا أيها العرب؛ تنام الثروات مهمة في باطن أرضكم فإذا

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

جاء من يستخرجها لكم ويُصِّركم بأهميتها فرحتم بما يصنعه لكم في البداية ثم لا تلبثون إلا أن تتهموه بأنه لص.

_ إذا وجدتُ إنسانا لا يعرف قيمة ما بحوزته فهل يكون أخلاقيا مني أن أشتريه منه بمعشار ثمنها الحقيقي؟

_ الدول غير الأفراد السذج، القياس هنا غير سليم، ثم ها أنتم أولاء قد عرفتم قيمة ما عندكم؛ سواءً أكانت آثارا أم بترولا أم أيا من ثرواتكم الطبيعية، فماذا صنعتم بها؟ لا زلتم لا تستفيدون منها شيئا بدوننا.

_ هل تذكرين القصة التي رويتها لي عن عمك الذي شارك في حرب العراق الثانية؟ وكيف كان يتباهى بالآثار التي نقلوها من متاحف العراق؟ أنتِ نفسك كنتِ في غاية الغضب.

طأطأت رأسها في أسي وهي تتذكر ثم قالت مستدركة:

_ لكن أقول لك شيئا؟ أليس ذلك أفضل من الدمار الذي حلّ بتلك المتاحف وبآثارها على أيدي أبنائها؟ على الأقل فإن الآثار التي تم نقلها قد نجت.

لم يرد (حامد) الدخول في مناقشة سياسية فقال:

_ أنتِ هل تقبلين المشاركة في بيع آثار مسروقة أو تهريبها؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ بالطبع لا، أنا فقط أعرض لك الزاوية الأخرى من الصورة...

ثم قالت بابتسامة خبيثة:

_ لكن ماذا عنك أنت؟ هل إذا جاءك من يقول لك أن كنزا أثريا ينام

تحت أرض بيتكم، هل ستقبل التنقيب عنه؟

حك (حامد) رأسه بطريقة تمثيلية ثم قال ضاحكا:

_ لن أوافق أنا أيضا، لكن أتعلمين لماذا؟!... لأنني أخاف من العفاريت!

(٢)

وقف ثلاثتهم أمام بوابة مبنى المجلس الأعلى للآثار الكائن بشارع فخري عبد النور بحي العباسية العريق في مدينة القاهرة وشمس شتائها تلمع منعكسةً على لافتة المبنى.

أخذ السيد (سكوت) يعدل رابطة عنقه في عصبية عفوية تلائم عقده السابع الذي بدا يخطوه في مشوار عمره ثم قال لزميله:

_ من بين كل مديري ووكلاء مجلس الآثار فهذا الرجل الذي سنقابله بعد قليل هو أكثر من أكره رؤيته، شخص متعجرف يظن أن التخلص مما يسمونه عندهم بعقدة الخواجات يكون في التعالي عليهم والحديث معهم من طرف الأنف.

رد عليه زميله (يوجيه):

_ (سكوت) أرجوك، ليس هذا أبداً يوم الكبرياء الإنجليزي، نحن نسعى للحصول على ذلك التصريح بأية طريقة منذ زمن.

تمتم (سكوت) بعدة كلمات إنجليزيه غير مفهومة لزميله الفرنسيين ثم شقوا ثلاثتهم الطريق إلى مكتب السيد (حسين) وكيل قطاع الآثار الفرعونية واليونانية. قام (حسين) من وراء مكتبه ودار حوله وقابل ضيوفه في منتصف الغرفة، وتولى (يوجيه) تقديم زميله قائلاً:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ الآنسة (أودريه بينوش) عاملة المصريات رغم صغر سنها، السيد (سكوت ماسون) ممول البعثة.

ثم أشار إلى نفسه وقال ضاحكا:

_ و(يوجيه شارباك) رئيس فريق التنقيب.

ضحكوا جميعا ثم قال مضيئهم:

_ أغنياء عن التعريف جميعا.. تفضلوا بالجلوس.

أخذوا جميعا مقاعدهم في الصالون المقابل لمكتب (حسين) في غرفته الواسعة، وبدأ حديث المجاملات التمهيدي المعتاد قبل الدخول في الأمور المهمة، ثم قال (حسين):

_ ما هي أخبار بعثتكم في موقع (أبي رواش)، سمعت أنكم تتقدمون ببطء شديد.

ردت عليه (أودريه):

_ كالعادة.. قد تظل شهورا بل سنوات تدور في متاهاتٍ لا تنتهي ثم فجأة تأتي خبطة عشوائية تفتح لك بوابات التاريخ، ونحن في انتظار هذه الخبطة.

ضحكوا جميعا ثم قال (يوجيه):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لذلك فنحن نريد بجانب انتظار رضاء أرواح الملوك عنا في أبي رواش
أن نبدأ في الموقع الذي تقدمنا مرارا بطلب التنقيب فيه.

هز (حسين) رأسه في أسف ثم قال:

_ للأسف لم يوافق السيد (حواس) على طلبكم، إن التنقيب بجوار
الهرم الأكبر ذاته أو تحت أقدام أبي الهول ليس بالطلب المقبول لا
على مستوى الفني لنا كمجلس أعلى، بل ولا على المستوى السياسي
كدولة.

رد (يوجيه):

_ هناك من نقب داخل الهرم ذاته، بل واستعمل الروبوت لثقب
بعض الجدران داخله.

وكأنما كان يتوقع (حسين) ذلك الرد فقال دون تفكير:

_ كان هذا تحت إشرافنا المباشر ولهدف محدد معلوم مسبقا، لكن
معهدكم للأثار يفضل طوال تاريخه العمل بمفرده، هذا بالإضافة إلى
أن بعض أعضاء بعثتكم لديهم تصورات فكرية غير مقبولة عن
حضارتنا القديمة.

قال (حسين) جملته الأخيرة وهو ينظر إلى (سكوت) الذي فطن
بالطبع لما يرميه من وراء كلامه فتكلم لأول مرة وقال:

_ إذا كنت تقصد كتابي الأخير عمّن بنى أهرامات الجيزة فهي وجهة نظر علمية معززة بالأدلة وليست رأبي وحدي، وكنت أتوقع من السيد (حواس) أن يناقشني في أدلتي بدلا من التضييق على بعثتنا.

رد (حسين) بالثقة التي يعتبرها (سكوت) عجرفة:

_ السيد (حواس) مستعد ليس فقط للرد على كتابكم بل لمناظرتك على الهواء إن أردت، تستطيع أن تكتب ما شئت من كتب، لكن البحث والتنقيب في أرضنا لهما قواعد وشروط.

_ أو قل إن هناك بعض التخوفات من أن أعثر على ما يؤيد نظريتي.

_ سيد (سكوت)؛ أنت تعلم أن التاريخ كما أنه يُكتب على هوى كاتبه فإن الآثار كثيرا ما ينقب عنها وتقرأ نصوصها على هوى مستكشفها، والدليل الأثري الذي يقول أحدهم إنه يؤيد وجهة نظره نفس هذا الدليل قد يقدمه الخصم ليؤازر وجهة النظر المضادة، والتشكيك في وقائع التاريخ أسهل كثيرا من إثباتها.

_ إذن فلنبحث عن الحقيقة ولندع المنهج العلمي والتاريخي يقول كلمته.

_ كما قلت أنت.. لنبحث.. إذن فلتلتزموا شروطنا.

تدخل (يوجيه) في الحوار ملطفا:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ سيد (حسين) ليس كل خبراءكم بالمرونة العقلية والتفتح اللذين تتمتعون بهما، كثيرا ما عانينا سابقا من تحكّيات بعضهم.

_ يمكنكم وقتها تصعيد أي مشكلة لقيادات المجلس.

تدخلت (أودريه) في الحوار وقالت:

_ نفهم من كلام سيادتكم أننا يمكننا الحصول على تصريحنا إن وافقنا على العمل تحت إشرافكم؟

سكت (حسين) لثوانٍ ثم قال:

_ قدموا طلبا جديدا بذلك وسوف نناقشه في المجلس.

وانتهى الاجتماع كما بدأ وعاد أفراد البعثة كما ذهبوا، وظلوا صامتين طوال طريق العودة، وطافت بهم سيارتهم في شوارع القاهرة حتى وصلت الطريق الدائري الذي يلتف كالحزام حول أحياء العاصمة، ودار بهم الطريق حتى وصل إلى أحياء محافظة الجيزة الملاصقة لمحافظة القاهرة، ليسلكوا طريق المنصورة ثم ليؤدي بهم إلى قرية أبي رواش شمالي غرب هضبة الجيزة والتي تنام فوقها أهرامات الجيزة الثلاثة تحتضن التاريخ وتخفي أسرارها.

وتوغلت سيارتهم حتى وصلوا إلى صحراء أبي رواش حيث تعمل بعثتهم في التنقيب هناك، توغلت بهم السيارة أكثر في دروب الصحراء حتى وصلوا معسكر عملهم ودخلوا استراحتهم المتنقلة التي تقع في حوض هرم أبي رواش، ذلك الهرم ذو السقف المفتوح إلى الهواء... لا أحد سوى بعثتهم يعمل في هذه المنطقة شبه المهجورة.

أخذت (أودريه) في إعداد أقداح القهوة لثلاثتهم في حين قطع (يوجيه) حبل الصمت وقال (لسكوت):

_ لذلك كنت أفضل الذهاب وحدنا أنا و(أودريه) لأننا نعرف موقف (حسين) منك، خصوصاً أنك لا تعرف كيف تخفي توجهاتك الفكرية.

رد (سكوت) بتهكم:

_ أعدك بأنني سأتوقف عن تأليف الكتب وإلقاء المحاضرات.

_ ليس هذا ما قصدته، لكن لم يكن هناك أي داعٍ لأن تشارك في طقوس عبدة الأهرام في سبتمبر الماضي، صحيح أنكم تدفعون لبعض المفتشين هناك بسخاء كي يسمحوا لكم بدخول الهرم وأداء طقوس عبادتكم سرا، لكن لا تنس أنك وجهٌ معروف لهؤلاء المفتشين وبالتأكيد وصل خبرك لمجلس الآثار هذا.

_ أنتم هكذا أيها الفرنسيون تصرون على استفزازي، أولاً أنت تعلم جيداً أنني لست من أتباع (إدجار كيسي) ذلك الأمريكي المخبول ولا من عبدة الأهرام أصلاً، وطقوسنا لا علاقة لها بطقوسهم بل هي ليست شعائر عبادة أصلاً وإنما طقوس صفاء عقلي وصوفية روحية مثل اليوجا الهندية بالضبط، ثانياً هذه الممارسات هي محور ما أؤمن به، فكما أبحث في جذور الهرمسية فأنا أدين بها وأخلص في أداء طقوسها.

رد عليه بمرارة ساخرة:

_ حسن جداً، ها أنت قد تمتعت بطقوس سلامك النفسي وتجميع طاقة الهرم داخلك بالنوم في تابوت غرفته، وها نحن فقدنا فرصة التنقيب التي كنا نحلم بها.

_ وهل تظن أن مجلس الآثار كان ليعطيكم التصاريح حتى لو كنت أنا جالسا أمام مدفئة بيتي هناك في مدينة يورك؟

قال (يوجيه) في خيبة أمل:

_ بصراحة لقد بدأت أضيّق بمكاننا هذا وبصحراء أبي رواش كلها التي نتظاهر أننا ننقب فيها.. نحن لا نتقدم خطوة واحدة تجاه هدفنا.

ضحكت (أودريه) وهي تقول:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هذا كلام لا يليق بالبنائين الأحرار، خاصةً حين يتعلق الأمر برمزكم الأكبر.

نظر لها (يوجيه) في تلمل ولم يرد فأكملت هي:

_ أظن أننا الليلة قد نكون على موعد مع الجديد، الحفر الدائر هذه اللحظات في نفق نزلة السمان يبشر ببعض الجديد عن أقرانه.

رد عليها (يوجيه):

_ هذا هو ثالث نفق نحفره أسفل بيوت بعض سكان منطقة غرب نزلة السمان ومنطقة سن العجوز ليصل بنا أسفل الهرم الأكبر، ولم تسفر الأنفاق عن شيء سوى حجرات صماء...

تدخل (سكوت) في الحوار:

_ صرفنا فقط بضعة ملايين في تكاليف الحفر السري وشراء تعاون أهالي هذه البيوت وشراء سكوت من حولهم من السكان ومن بعض مخبري الشرطة.

ضحك (يوجيه) و(أودري) على (سكوت) الذي يتألم للمال الذي أنفقه ثم قالت (أودري):

_ دعونا نتفاءل هذه المرة، أنا أشعر بأننا على موعدٍ في ليلتنا هذه.

(٢)

برغم أنها أيام شهر ديسمبر إلا أن (شتيفان أولكه) لم يكن يرتدي سوى قميص صيفي بأكمام طويلة ويرتدي قبعته بغية أن تقيه وهج شمس منطقة (تل العمارنة) النائمة منذ فجر التاريخ شرقي نيل محافظة المنيا القابعة في شمال الصعيد المصري.

كان (شتيفان) يتكئ أرضا على ركبتيه ويعمل منهمكا بفرشاته المعدنية في إزالة عوالق التراب ورواسب الملح من حول قطعة حجر يظن (شتيفان) أنه بجلو وجهها الحقيقي سترتضى صنيعه فترضى عنه وتهمس له بسر ما..

الخطة الأولى في عمل البعثات الأثرية لا تشكل سوى عشرة بالمائة من إجمالي أعمالهم، والباقي إنما تتولاه الصدفة وحبال الصبر اللذان هما زاد أفراد هذه البعثات.

ربت (براندت زيلر) على كتف (شتيفان) الذي مسح قطرات عرق جبهته وهو يتطلع مستفسرا نحو زميله فقال (براندت) مبتسما:

_ لا أحد يشعر بمرور الوقت في حضرة كشفٍ جديد، لكن دعنا نأخذ للمعدة حظها.

هز (شتيفان) رأسه وقام مستسلما مع زميله ومضى معه إلى حيث خيمة استراحتهم والصمت عنوانهم منذ أن بخلت عليهم الصحراء بأي سرٍ تبوح لهم به.

هبطت بعثتهم أرض العمارنة قبل سنتين، طيرتهم إليها أحلام الوصول إلى كشفٍ يفوق ذلك الذي اكتشفه سلفهم الألماني (لودفيج بورشاردت) عندما عثر في مطلع القرن العشرين هنا في تل العمارنة على التمثال الأشهر لرأس الملكة (نفرتيتي) زوجة الملك الشهير (أخناتون) وطار به خلسةً إلى برلين لتطير معه شهرته وشهرة التمثال الذي أضحى رمزا للجمال الملكي عبر العصور...

وها هم قد جاءوا قبل مرور قرنٍ على ذلك الاكتشاف ولكن للعثور على نفرتيتي ذاتها هذه المرة!

كانت آمالهم عريضة في العثور على هذه المقبرة التي دوخت كل بعثات الآثار حتى تيقن البعض ألا وجود لها، في حين اعتنق فريقٌ من الأثريين خرافة أن الملكة قد دُفنت موميأؤها على حافة صدع قشرة أرضية متحركة، فهي تنتقل بها من مكان لآخر، فأنى لأحدٍ العثور عليها!؟

لكن هذه البعثة الألمانية قد جاءت بمددٍ من العلم ليسهل لهم العثور عليها، والذي هو جهاز لقياس النشاط الإشعاعي الضعيف

الصادر عن خرطوش السائل الأحمر الذي كان يدفن مع المومياوات الملكية، والذي تكثر حوله الأساطير حتى ليظنه بعضهم أنه الزئبق الأحمر. وبرغم أن حقيقة دفن هذا الخرطوش مع كل المومياوات غير مؤكدة، وبرغم أن الغرض منه في حفظ المومياء لأطول زمن ممكن هو اعتقاد غير مؤكد هو أيضا، إلا أن المؤكد لدى هذه البعثة هو قدرة جهازهم على قياس نشاط الخرطوش الإشعاعي إذا تواجد على مسافة قريبة منه، ذلك النشاط الذي تم التعرف عليه وقياسه من الخرطوش المماثل المحفوظ في متحف الأقصر والذي عثر عليه مع مومياء أحد القادة العسكريين.

لكنهم مسحوا بجهازهم هذا أرض عاصمة أخناتون كلها فلم يلتقط أية إشارة تدل على وجود خرطوش سائل المومياوات الملكية هذا.

ولم يحصلوا على سوى أجزاء من مدخل قصر زوجها الملك (أخناتون) الذي هجر مدينة طيبة العاصمة القديمة لآبائه وجاء هنا إلى تل العمارنة أو كما أسماها مدينة (أخيت أتون) التي اتخذها عاصمة له ليعلن منها ثورته الدينية على الدين التقليدي لآبائه وعلى عبادة الإله آمون وليوحد آلهة المصريين المتعددة في إله واحد (أتون)؛ إله الشمس، ثم تفشل دعوته بوفاته وتخرّب مدينته من بعده، عدا ذلك فليس هناك دليلٌ واحدٌ يرشد إلى مكان دفن الملكة بل لا دليل يذكر كيف ولماذا اختفت فجأة قبل وفاتها..

لكنهم استمروا في أعمال تنقيبهم على أمل أن تفصح لهم الأرض فجأة عن إحدى مخبوءاتها من برديات أو نقوش تقود إلى العثور على مقبرة الملكة الجميلة، أو تقود إلى حقيقة ديانة (أخناتون) التي يصر عضو البعثة الثالث (يواكيم) على أنها قبسٌ من ديانة إبراهيمية.

(يواكيم برنشتاين) عبقري البعثة غريب الطباع، تراه يوما يحدثك متحمسا عن تفسيرٍ غريبٍ لبعض تاريخ الفراعنة ثم لا يلبث يوما آخر أو بعض يوم حتى تراه يعيب ذلك الرأي الذي كان بالأمس عنه مدافعا... فتسمعه تارة وهو يعدد أدلة أن أخناتون هو النبي إبراهيم الخليل نفسه، وقصة هذا مع الشمس هي قصة ذاك ولكن بعد أن أضفى خيال القصص والكهنة لمستته التحريفية المعتادة على القصص السماوي، وتارة أخرى يدافع بكل حماسة عن أن أخناتون إنما هو أحد أتباع النبي موسى، ثم لا تدهش حين تراه بعد ذلك يثبت باقتناعٍ تامٍّ أن الملك خوفو هو فرعون الخروج لليهود من مصر!

_ ألا ترى يا (يواكيم) أن خوفو سابق في وجوده على أخناتون بقرابة ١٢ قرنا؟ فكيف ما تقول؟

_ هذه نظريات يا (شتيفان) وكل نظرية لها أدلتها القوية، ودورنا أن نحاول الوصول إلى أيهن تكون النظرية الصواب.

_ هذه التي تقول عليها أدلة قوية إنما هي قصص وإشارات في كتب الأديان الإبراهيمية.. عفوا أنا لا أؤمن بأن هذه الكتب وثائق يستدل بها على التاريخ، لا الأسفار الموسوية ولا القرآن المحمدي، فما من دليلٍ تاريخي يعضد قصصها.

بيتسم (يواكيم) ابتسامته الساخرة ويقول:

_ لكن تثق في استنتاجات علماء الآثار التي بنيت معظمها على ترجيح أقوى التخمينات لِمَا فهموه من طلاسَم النقوش والبرديات، والتي ما تلبث أن يثبت خطأ العديد منها بظهور أدلةٍ جديدةٍ منافيةٍ لها!

_ لكنها على الأقل أدلة علمية تخضع للدراسة والتمحيص والمنطق، وليست أسفارا للأقدمين الغابر زمانهم فلا ندري كيف وضعت ولا كيف نقلت إلينا.

_ وما هو تفسيرك لأقوال علماء الآثار التي تختلف في الأثر الواحد حتى تصل أحيانا إلى درجة التضارب التام؟ وما تعليقك على عمد الكثير من ملوك الفراعنة إلى طمس آثار من قبلهم؟ وشروع الكثير منهم في نسبة آثار غيره لنفسه؟ فكيف تثق هذه الثقة بما تحت يديك من آثار إلا أن يكون لديك تصورك القبلي وخطتك الفكرية لما

أنت مقبلٌ على دراسته؟ إذن فكلنا نبحر في نفس البحر ولكن كل واحدٍ منا يوجه قاربه إلى حيث يقوده عقله وقناعاته السابقة.

وهكذا فلدى (يواكيم) دائما ما يقوله، بل إنك لا تدري أحيانا إن كان يحدثك عن الرأي متبنيا إياه أم مسفها له، فله من القدرة الشيء العجيب على إخفاء بواطن أفكاره وأحاسيسه، وله هواية غامضة في التلاعب بأفكار من أمامه واختبار ذكائهم، فكثيرا ما كان يتحدث مع أصدقائه وزملائه في بعض القضايا الثقافية أو المنطقية ثم يعمد إلى دس إحدى المغلوطات في وسط حديثه فيثير حيرة وارتباك من أمامه حتى يفطن إلى تلك المغالطة المدسوسة إن كان من الذكاء الكافي لإدراكها، أما من لا يرقى عقله لكشف مغلوطاته الخفية تلك فسيظل أياما يتوه ذهنه مفكرا في حلقات مفرغة، ويستمتع (يواكيم) وهو يرى ضحيته يدور حول نفسه مغتازا من التفكير.

_ ثلاثة إخوة تشاركوا بالتساوي في شراء جهاز رياضي بـ٣٠ يورو، لكن صديقهم قال لهم إنه لا يساوي إلا ٢٥، وبالفعل ذهب صديقهم للبائع وعاد لهم بـ٥ يورو، فأخذ كل واحد من الإخوة يورو واحدا وأهدوا صديقهم ٢ يورو، إذن فكم دفع كل واحد من الإخوة؟ وما المجموع؟

يرد عليه صديقه:

_ ٩ يورو من كل أخ والمجموع ٢٧.

_ وصديقهم أخذ ٢ يورو، فكم المجموع؟

_ ٢٩ يورو

_ أين ذهب إذن اليورو المفقود!

ويستمتع (يواكيم) وهو يرى صديقه يدور حول نفسه من التفكير ويتركه بدون إجابة حتى يلجأ صديقه لمن يشرح له المغالطة في المسألة وأن الـ٢٧ يورو المنفقة تتضمن الـ٢ يورو التي حصل عليها صديق الإخوة الثلاثة. ثم يقرر صديق (يواكيم) الانتقام منه بنفس الأسلوب خاصة أنه يعلم أنه شخص متدين..

_ أنت تقول يا (يواكيم) أن الله كلي القدرة.

_ بالطبع.

_ فهل يستطيع أن يخلق صخرة هائلة الوزن لدرجة ألا يستطيع هو نفسه حملها؟

وبالطبع مرت هذه المعضلة على (يواكيم) من قبل، وسواءً أجاب بنعم أو بلا فالإله الذي يؤمن به إما عاجز عن خلقها أو عن حملها، ولم يكن شخص كيواكيم لتعجزه هذه المسألة، فيجيب صديقه بنفس المنطق الرياضي:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أقصى وزن لهذه الصخرة هو مالانهاية وقوة الله مالانهاية، ويستحيل قسمة مالانهاية على مالانهاية، إذن سؤالك خطأ من أساسه!

وبرغم أن (يواكيم) من بين أفراد البعثة هو أقلهم مجهودا في التنقيب إذ يقضي أكثر وقته في قراءة كتبه التي لا تنتهي ولا تقف عند مجال، أو في مشاكسة هذا أو التلاعب بعقل ذاك، فإنه برغم ذلك أكثرهم فعالية في العمل، فعادة ما يكون لديه الحل الذكي لأي معضلةٍ تعترض طريق عملهم.

ووصل (شتيفان) وخلفه زميله (براندت) خيمة استراحتهم، فأزاح ستار الخيمة وأحنى قامته الطويلة التي تليق بشابٍ ذي أصول جرمانية صرفة، واتجه من فوره إلى حمام الخيمة المزودة بكل وسائل المعيشة الحديثة بما فيها مولد للكهرباء ومضخة للمياه وقناة للصرف الصحي، وغسل عن جسده آثار العرق الممزوج برمال الصحراء وخرج نصف عارٍ يستر عورته بمنشفة جسده ليشارك زميليه غداءهم الذي يتفنن (يواكيم) في إعداده من ضمن ما يمتلك من مواهب.

_ خبز البتاو الصعيدي هذا اختراع رائع يجب أن أتعلم طريقة صنعه.

هكذا بادر (يواكيم) بالحديث ثم أكمل:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ برغم أنه لا يزيد في مكوناته عن الدقيق والماء والملح والسكر والخميرة لكن السر يكمن في طريقة الإعداد والعجن وفي تصميم فرن الإنضاج.

جلسوا ثلاثتهم لتناول طعامهم حتى قطع (براندت) حبل الصمت الممزوج بصوت ملاعقهم فقال:

_ حتى الآن لم نجد خيطا قويا يقربنا المشي وراءه من العثور على مقبرة الملكة (نفرتيتي)، أرض العمارنة لم تخرج لنا إلا المزيد من تأملات أخناتون الدينية أو المراسلات السياسية لهذه الفترة مع بابل وكنعان والحِيثِين وغيرهم، بينما جهاز قياس الإشعاع كأنه ميت مما يؤكد عدم وجود أية مومياوات حولنا.

رد (شتيفان):

_ يرجح وليس يؤكد، فليس من المؤكد أن كل المومياوات الملكية كان يدفن فيها خرطوش أحمر.

قال (يواكيم) وهو يقتطع جزءا كبيرا من أحد أرغفة البتاو:

_ أنا أعول أهمية كبيرة على تلك الرسالة التي تعود إلى فترة حكم أخناتون والتي يشكو مرسلها من فلسطين من استيلاء الهبيرو أي العبرانيين على أحد حصون الفرعون هناك.

قال (شتيفان) في استفهام:

_ ووجه الأهمية؟

(يواكيم):

_ لو ربطنا هذه المعلومة بفترة النبي يشوع بن نون وحروبه في أرض فلسطين لأمكنا تحديد ملامح الثورة الدينية التي قام بها أخناتون.

ضيق (براندت) عينيه فظهرت تجاعيد أربعينيات عمره حولها وهو يقول:

_ أنت تثق كثيرا في تسجيلات الحوادث التاريخية للكتب المقدسة، وحتى بفرض ذلك فما علاقة ما تقول بقبر نفرتيتي؟

رد (يواكيم) مستفيضا في شرح وجهة نظره:

_ كلنا نعلم أن أقوى الآراء في تحديد فرعوني الاضطهاد والخروج لبني إسرائيل من مصر تنحصر في رأيين؛ الرأي الأول يجعلهما تحتتمس الثالث وإبنة أمنحوتب الثاني اللذين هما الجدين الثالث والثاني لأخناتون على الترتيب، والرأي الثاني يقول إن رعمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد وابنه مرنبتاح هو فرعون الخروج، بالرجوع إلى الرسالة التي أعول عليها فإنها تقوّي الرأي الأول إذ تجعل أخناتون معاصرا ليشوع بن نون خليفة النبي موسى، وهذا يجعلنا نفترض أن

ثورة أخناتون الدينية كانت صدىً لدعوة النبي موسى، وهذا يفسر كل ذلك الغضب الذي صبه كهنة ديانة آمون وملوك الفراعنة من بعد أخناتون عليه وعلى دعوته، فالتاريخ يعلمنا أن الصدام على أساسٍ ديني لم يحدث بين ديانتين وثنيتين قط.

سوى (براندت) خصلة من شعره الطويل الذي بدأت الفضة تنازع الذهب فيه وقال:

_ لا زلت أذكرك يا (يواكيم) أن هدف بعثتنا الأساسي هو العثور على مقبرة نفرتيتي، وأن اهتماماتك بالآثار الدينية يجب أن تكون هدفًا ثانويًا لك.

_ وأنا لم أكمل وجهة نظري التي إن صحت فإنها تعني أن نفرتيتي والتي شاركت زوجها أخناتون بحماس في ديانته الجديدة حتى أنها صُورت معه في رسوماتها رأسًا برأس، فهذا يعني أن اختفاءها الغامض بعد حوالي ١٢ سنة من بداية حكم أخناتون له علاقة بهذا الدين الذي اعتنقوه، خصوصًا أن اختفاءها جاء عقب قدوم والدة أخناتون (الملكة تي) من طيبة إلى هنا في أرض العمارنة لتحذره مما يحاك ضده في طيبة، وهذا يرجح بأن اختفاء نفرتيتي كان هربًا من كهنة آمون، وبالتالي فلا ينبغي البحث عن قبرها لا هنا في تل العمارنة ولا في مقابر وادي الملوك هناك في طيبة حيث دفنت باقي أسرتها، وحيث معقل كهنة آمون.

تكلم (شتيفان) فقال:

_ ألا ترى يا (يواكيم) أنك تبني قصورا من الآراء على افتراضات
ضعيفة؟

رد ببساطة:

_ إذا كان هناك رأي أقوى فمرحبا به، فبعثات العالم كلوا من البحث
عن هذه المقبرة بدون جدوى، فلماذا لا نذهب إلى اتجاه آخر؟

_ نعم نذهب في اتجاه آخر لكن بناء على دليل علمي وهذا ما لم
نجد حتى الآن.

_ وها نحن نبحث في هذا المكان لأكثر من سنتين عن هذا الدليل
العلمي ولم نجد أفضل مما قلته لكما.

سوى (شتيفان) حاجبيه بإصبعي يده الإبهام والوسطى في حركته
المفضلة وهو يقول:

_ (يواكيم) أنا أقدر إيمانك بالكتب المقدسة لكنها ليست دليلا يبنني
عليه بحث علمي، حتى النبي موسى لا يوجد دليل علمي واحد على
أنه عاش على هذه الأرض يوما واحدا.

ابتسم (يواكيم) ابتسامته الساخرة المعتادة وهو يقول:

_ هل حقا تعتقد أن نقشا هنا أو مخطوطة هناك تعاورتهم آلاف السنين بالطمس أو بالتآكل يكونون حكما على مصداقية الأسفار الدينية التي يقدسها أصحابها ويهتم علماءها بتوارثها فيما بينهم كأكثر مما يهتم الإنسان بولده وماله؟

_ كثير من هذه الأسفار الدينية مليئة بالمتناقضات، هل يمكنك مثلا وأنت عالم بالآثار أن تصدق ما يقوله سفر التكوين بأن تاريخ البشر على الأرض لم يتجاوز الـ ٥ آلاف سنة؟

_ بالطبع لا، ولكن هذه تقديرات بشرية وليست نسا صريحا في الأسفار، ولا أظن أنك لا تدرك الفرق البعيد بينها وبين إثبات وجود من تواتر ذكرهم في الكتب المقدسة، وإلا فبنفس منطقك نستطيع التشكيك في وجود نصف الشخصيات التي في التاريخ.. بما فيهم بعض ملوك الفراعنة.

بسط (شتيفان) كفيه في الهواء كمن يبحث عن كلمة سواء وهو يقول:

_ حسنا، فلنتجنب ذلك الجدار الذي نصطدم به في كل مناقشة مشابهة، ودعني أسألك؛ ما الذي يجعلنا نرجح ذلك التفسير الديني لاختفاء الملكة؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لا شيء! سوى أن هذا هو التفسير الوحيد الذي تبقى أمامنا بعد كل هذا البحث وكل تلك الاستكشافات.. لا تنس أيضا أن الحضارة المصرية القديمة كان الدين محورها وعمود بنائها ودرة تاج زينتها.

تدخل (براندت) في الحوار وقال:

_ لكن أنت نفسك قلت إن هناك رأياً آخر يقول إن فرعوني موسى كانا من أسرة الرعامسة التي تلت أسرة أخناتون وآبائه، وكلا الرأيين له أدلته القوية، فلماذا نمشي وراء تلك الرسالة التي جاءت من فلسطين؟ خصوصاً أننا نعلم أن لك هوىً في إثبات صلة أخناتون بديانة موسى.

رد (يواكيم) في ثقة:

_ وهناك رأي آخر يقول إن خوفو هو فرعون موسى، وأن وزيره حم إيونو الذي أشرف على بناء هرمه ينطق اسمه أيضاً هيمون أو هامون، ولو كنت صاحب هوى لاتبعته هذا الرأي الذي يجعل بناء الهرم الأعظم مزامناً لسنوات اضطهاد بني إسرائيل في مصر، ولو كنت صاحب هدف بحث ديني لكنت الآن هناك في بلدة قنتير في محافظة الشرقية مهد النبي موسى في مصر، فأنتقب مع البعثة الألمانية الأخرى التي يرأسها إدجار بوش لنفتش عما إذا كانت قنتير أو مدينة

رعمسيس كما كانت تسمى قديما هي أيضا مدينة الخروج لبني إسرائيل أم لا.

سكت (يواكيم) لثوانٍ يرتشف بعض رشفات من الماء ثم أكمل:

_ لكن أنا هدي في محدد وهو هذه المقبرة التي ستهب من يعثر عليها الخلود، فلا بأس إن استعنا في بحثنا هذا ببعض الأدلة من هنا أو هناك، ولا تثريب عليّ إن حاولت إثبات نظرية دينية ما من ضمن ما نبحت عنه، والأهم من ذلك؛ هل لديكما تصور آخر للبحث؟

تبادل (براندت) و(شتيفان) النظرات قبل أن يقول (براندت):

_ كلامك لا يخل من منطق، لكنه يفتح علينا فضاءات لا نهاية لها كي نفتش فيها عن تلك المقبرة، فليس من المعقول أن نستثني وادي الملوك وتل العمارنة لننهب صحراوات مصر الواسعة، أو حتى نمسحها بجهاز قياس أشعة الخرطوش الزجاجي الملكي والذي لا يصدر إلا إشعاعا ضعيفا لا يُلتقط إلا عن مسافة قريبة بينه وبين جهاز قياس الإشعاع.

سكتوا جميعا بما فيهم (يواكيم) حتى بدد (شتيفان) سحب الصمت وقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ إذا فرضنا أن نفرتيتي هربت من ذلك الاضطهاد الديني فأين يمكن أن تتجه؟ إما أن تفر إلى أرض كنعان حيث مركز الديانة التي تتبعها وهذا طبعاً مستحيل بالنسبة لملكة، وإما أن تأوي إلى مكان أمين وهذا هو الأرجح.

(يواكيم):

_ وهذا المكان الأمين يجب أن يكون بعيداً عن سطوة كهنة آمون وفي نفس الوقت يوفر الملاذ اللائق لملكة مصر.

صمتوا جميعاً حتى قطع (براندت) حبل الصمت وقال:

_ دعونا نستمتع بغدائنا الآن، فليس لدينا أكثر من وقت الفراغ في حضرة صمت أرض أخيت آتون تلك وضنها بأسرارها علينا.

(٤)

ارتدت (أودريه) عباءة شعبية وأحكمت لف طرحة حول رأسها كالحجاب فبدت أشبه ما تكون بنساء الحي الذي ستذهب إليه بعد قليل مع زميلها، أما (سكوت) و(يوجيه) فلم يحتاجا لأكثر من ملبسهما المعتادة للتنقيب التي هي عبارة عن سروال من الجينز وقميص واسع وحذاء خفيف، وبينما وضع (سكوت) طاقة عربية فوق رأسه فبدا كرجل مصري يناديه الناس بـ يا حاج احتراماً لسنه المتقدم فقد لُفَّ (يوجيه) رأسه بغترة تخفي شعره الأشقر.

ركبوا ثلاثتهم السيارة وقادها (يوجيه) صوب أهرامات الجيزة، ولما اقتربوا من هدفهم أجرى (سكوت) مكاملة سريعة دارت ما بين بعض المفردات البسيطة للغتين الإنجليزية والعربية، وحاد (يوجيه) بالسيارة عن طريق الأهرام إلى شارع أبي الهول المتفرع منه، ثم صف سيارته على جانب الشارع وترجلوا منها، دقيقة ووقفت بحذائهم مركبة توكتوك استقلوها ثلاثتهم فتوغلت بهم في أزقة منطقة نزلة السمان العشوائية بيوتها.

وقف بهم التوكتوك عند أحد بيوت منطقة غرب نزلة السمان المتاخمة لحرم الأهرامات، ودلفوا من الباب الذي كان مفتوحاً وأغلقوه وراءهم، تقدمت إليهم سيدة كانت جالسة تنتظرهم على دكة خشبية موضوعة خلف باب المدخل ورحبت بهم باللغة العربية

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ثم اقتادتهم إلى السلم النازل إلى البدروم برغم أنهم يعرفون الطريق،
نقرت السيدة على باب شقة البدروم ففتح لها ريس عمال الحفر
ورحب بأفراد البعثة مبشرا إياهم بوصول أعمال الحفر إلى مبتغاهما:

_ وصلنا بالنفق إلى النقطة التي طلبتها منا يا سيد (سكوت)، نحن
تقريبا تحت أقدام خوفو نفسه.

وضحك عن أسنانٍ ما بين صفراء وسوداء تساقط بعضها بفعل
الإهمال وبعضها الآخر بفعل الأفيون، فأجابه (سكوت) بنصف
ابتسامة ولم يعقب، ثم أكمل الرجل متعجبا:

_ لكننا لم نجد أية آثار يا سيد (سكوت)!

رد عليه هذه المرة وقال:

_ وأنا بح صوتي يا (خميس) وأنا أؤكد لك أنك لن تجد شيئا، حتى
قلت لك إذا وجدت شيئا فخذ.

_ فلماذا نحفر كل هذا النفق إذن؟

رد عليه في حزم:

_ ألم تحصل على كل ما طلبته وزيادة؟ دعنا نباشر عملنا إذن.

سكت الرجل وقام فأدار جهاز تهوية النفق وأنوار إضاءته، وخلعت (أودريه) العباءة عن طاقم من الجينز لكنها احتفظت بحجاب الرأس، ارتدوا ثلاثتهم خوذات ذات مصابيح ثم نزلوا السلم المؤدي إلى النفق.

يمتد أول النفق رأسيا للأسفل لقرابة الثمانية أمتار ثم يعتدل تدريجيا مؤديا إلى جزئه الأفقي الذي يمتد لقرابة المائة مترا، نزل (سكوت) أولا برشاقة لا تناسب عمره الذي تجاوز عتبة الستين لكنه يبدو معتادا على نزول الأنفاق!، ثم تبعه زميلاه في النفق الذي يصل قطره إلى قرابة المترين في جزئه الأفقي.

في البداية كان (خميس) يظن أنهم يريدون الحفر للوصول إلى ممر أحجار ما يسمى بـ(الطريق الصاعد)؛ حيث كان الوجه الشرقي للهرم الأكبر يحتضن المعبد الجنائزي ومن هذا المعبد يمتد هذا الطريق الصاعد على هيئة ممر ممتد ومبنى من أحجار مماثلة لأحجار الهرم لينتهي بمعبد يسمى بمعبد الوادي والذي يقال إنه كان ينام في حضن ممر مائي كان موصولا بالنيل واندثر مع تعاقب القرون، بالضبط كما اندثر ذاك الطريق الصاعد ودفن تحت ركام الأرض وطبقات الحضارات المتعاقبة.

وكالعادة قبل حفر أي نفق كان (خميس) يتذاكى بأن (سكوت) لا يريد أن يفصح له عن حقيقة مراده فيقول في خبث:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ الممر الصاعد لهم خوفو ليس في الاتجاه المرسوم لحفر هذا النفق
يا خواجه.

_ أعلم يا خميس.

_ لعل الخريطة التي معك...

_ لا أستعمل خرائطَ يا خميس، لدينا ما هو أفضل.

وينظر (خميس) إلى الأجهزة التي بحوزتهم لجس التربة وتحديد
مناطق كثافتها وفراغاتها محاولا بذل كل ما يعتقده في عقله من ذكاء
فلا يفهم من تلك الأجهزة شيئاً، فيقرر الحفر في صمت طالما أن
الخواجه يدفع له ولرجاله فوق ما يريدون.

الشيء الذي لم يستطع (سكوت) منع (خميس) منه هو استعانته بمن
يقول عنه أنه الشيخ.

_ لن أحفر طبقا لما يراه دجالك وعفاريته يا خميس.

_ ليس دجالا يا خواجه ولن يلقي بأية تعليمات، هو فقط شيخ
يصرف بالقرآن عنا شر حرس المنطقة من ملوك الجان!

يقهقه (سكوت) ساخرا:

_ ملوك الجان!?!?

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ طبعا ملوكهم، إذا كان صغار الفراعين يحرسون مقابرهم بمردة الجن السفلي، فما بالك بحرس الهرم الأكبر ذاته يا خواجه؟

فيتركه (سكوت) يُطمئن مخاوفه طالما أن ذلك لن يعطل أعمال الحفر ولن يفشي سر حفائهم.

وأفاق (سكوت) من ذكرياته مع (خميس) عندما وصل ومعه زميلاه إلى نهاية النفق، حيث اعترض مسار النفق ما يشبه الحائط المبني من أحجار مرصوة بعناية.

_ كنتَ محقا يا خواجه، هذا الحائط لا علاقة له بالمر الصاعد، وهذا السرداب الذي يقبع وراء الحائط لم يكتشفه أحدٌ من قبل.

التفت إليه (سكوت) وقال في حزم:

_ ومن قال لك إن هذا سرداب؟ خير ما تصنعه يا (خميس) أن تتوقف عن التفكير وأن تذهب لإحضار معداتنا من فوق.

وذهب (خميس) في صمت فقال (يوجيه):

_ هل تعتقدان أننا سنجد شيئا جديدا خلف ذلك الجدار؟ أم سيكون مثل سابقه؟

زمت (أودريه) شفيتها للأمام في حين قال (سكوت):

_ أيا ما يكون فكل ما أعرفه أننا سيصعب بل ربما يستحيل أن نحفر أنفاقاً أخرى، لقد بدأت الرائحة تفوح، وشرطة السياحة في حالة نشاط في هذه المنطقة بعد أن افتضح أمر أحد الأهالي وهو يحفر تحت بيته.

ثم سكتوا جميعاً حتى عاد (خميس) وأحد مساعديه يحملان الأجهزة التي طلبها (سكوت)، فقامت (أودريه) بتشغيل جهاز منها، وأمسكت بالمجس الممتد منه وأخذت تتحسس به الجدار ثم قالت بعد مرور دقائق طويلة وبشرتها الناعمة تلمع تحت ضوء المصباح جراء ما تصبته من عرق:

_ هو جدارٌ بالفعل ولا يزيد سمك أحجاره عن الثلاثين سنتيمتراً، لكن الجهاز لا يستطيع تقدير حجم الفراغ من خلفه.

قال (يوجيه):

_ فلنستخدم المثقاب، فنحن لا نعلم إن أزلنا أحد الأحجار ما قد يكون وراءه أو ما سنسببه من خسائر.

وبالفعل أشار (سكوت) برأسه (لخميس) الذي قام وأعد جهاز المثقاب وزوده بسلاح ثقب طويل ثم ناوله لمساعدته، وسد الجميع آذانهم بسدادات مطاطية ثم شرع الشاب في ثقب الحجر الصلب

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

حتى تبللت ثيابه من شدة ما تعرّق، وبعد أن انتهى قامت (أودريه) وأعدت جهاز المنظار وأدخلت كاميرته داخل ثقب الجدار.

أظهر المنظار وجود حجرة خالية من وراء الجدار، أبعادها مستطيلة وفارغة تماما من أي شيء.

_ نحتاج لإزالة أحد أحجار الجدار.. قال (يوجيه) فرد (خميس):

_ قلت لكم ذلك منذ البداية.

نظر له (سكوت) وزمّ شفّتيه إلى جانب خده الأيمن ثم اكتفى بأن قال له:

_ إذن فلتفعلها يا خواجه (خميس).

فقام (خميس) وجّهز مع مساعده جهاز الدقاق كما علمه (سكوت) استعماله من قبل، ثم توجهها إلى الحجر الذي اختاره لهما (يوجيه)، وبدأ في تشغيل الدقاق، وضعا طرف إزميل الدق على إحدى حواف الحجر ثم قام الدقاق بدق الإزميل حتى نهاية الحافة بكل سمك الحجر، ثم كررا عملية الدق هذه حتى فرغا تماما من حول حواف الحجر الثقيل، فقام (يوجيه) وزرع عدة متفجرات صغيرة من حقيبة متفجراته مختلفة الأحجام على وجه الحجر، وابتعدوا مسافة كافية ثم ضغط (يوجيه) زر التفجير فدفعت المتفجرات الصغيرة الحجر

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

الثقيل ليسقط في الجانب الآخر داخل الغرفة محدثا سقوطه دويا مكتوما.

أحضر (خميس) فلتر تنقية الهواء الذي زوده به (سكوت) من قبل وقام بإنزاله داخل الحجرة من فتحة الحجر الساقط، وغابوا عنها لساعتين حتى تنتهي عملية تنقية هوائها توجهوا خلالها لشرب الشاي تحت إصرار (خميس) بدعوتهم إلى تناوله، وبعد الساعتين عادوا جميعا إلى الحجرة ودخلوها، وترك (سكوت) (خميس) ليشبع فضوله لدقيقة وليتأكد أن الحجرة خالية من أية كنوز ينتظرها أو من أية أبواب سرية تؤدي إليها! ثم أمره بإحضار إضاءة أخرى كافية وبتركهم هم الثلاثة وحدهم في الغرفة.

وجالوا ثلاثتهم في أرجاء الحجرة، وعندما أخذوا في تفحص جدرانها بدأت سحب خيبة الأمل تتجمع فوق ملامحهم، حتى سأل (يوجيه):

_ كالعادة؟

(أودريه):

_ ثالث نفق ينتهي بثالث حجرة بلا فرق تقريبا بين الحجرات الثلاث.

(سكوت):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ نفس الحوائط السماء بلا أية نقوش سوى ذاك المقبضين النحاسيين الغائرين في أحد الأحجار.

_ وذات نفس النفقين المربعين الضيقين في حائطين متقابلين...

قالت ذلك (أودريه) وهي تمسك ببوصلة ثم أكملت:

_ والنفقان واحدٌ إلى اتجاه الشمال والآخر إلى الجنوب؛ بنفس اتجاه فتحات أنفاق الغرفتين الأخريين اللتين عثرنا عليهما، وبالضبط كما في غرفتي الملك والملكة داخل الهرم الأكبر

_ ونفس الخرطوش الأحمر المرسوم على أحد الحوائط لكن هذه المرة مكتوب فيه اسم (إيمحوتب)... قال (يوجيه) ثم أكمل:

_ حجرات فيها خرطوش باسم (تحوت) وأخرى تحوي اسم (إيمحوتب).

عادت (أودريه) ومعها جهاز جس الحوائط وجهاز المنظار وأخذت تتحسس أرجاء الحوائط والأرضية بكل دقة، وتوقفت طويلا عند فتحتي النفقين الضيقين وأمعنت في فحصهما بالأجهزة، وفي أثناء ذلك كان زميلاها يتفحصان بأعينهما ونقرات أصابعهما كل بوصة في أرجاء الغرفة، وبعد قرابة الساعة قالت (أودريه) وهي تهز رأسها أسفا:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لا شيء مختلف عن سابقتها... الحجرة مصمتة تماما إلا من تلك الفتحات الضيقة المناظرة لفتحات غرف الهرم، فقط مع اختلاف زاوية صعود كل فتحة.

(سكوت):

_ بنفس الأبعاد؟

_ ارتفاع الفتحة عن الأرض هو نفسه في كل الغرفات، ونسبة محيط الغرفة إلى ارتفاعها هي بالضبط النسبة (ط) المعروفة للدائرة؛ ٣,١٤

_ ولا جديد في المقبضين؟

_ مقبضان من النحاس مثبتان في أحد الأحجار على نفس الارتفاع كما في الحجرتين الأخرين.

قال (سكوت) وهو ينظر إلى شاشة جهاز يحمله في يده:

_ ونفس طاقة المكان وتأين جزيئات هوائه كما في غرف الهرم كلها.

نفخ (يوجيه) وخرج عن هدوئه المعتاد وقال:

_ هل حفر هؤلاء الأذكاء الملاعين كل هذه الحجرات فقط لتضحك أرواحهم وتتسلى في أبديتها على المغفلين أمثالنا وهم يدورون مثل الفئران في متاهاتهم الغامضة؟!

وكان (سكوت) تبادل طباعه مع (يوجيه) فقال بهدوء:

_ الانفعال لن يخدمنا، ليس أمامنا سوى الرجوع إلى معسكرنا وإرسال الخرائط والصور التي صورتها (أودريه) إلى الإدارة لدراستها.

_ هل نترك شفرة حلقة هنا أيضا؟

سألت (أودريه) فرد عليها (يوجيه):

_ برغم أننا نعرف النتيجة مسبقا، وبرغم أنني لا أقتنع بأن طاقة هذه الغرفة المكعبة تناظر طاقة الهرم، إلا أننا لن نخسر شيئا، اتركي شفرة أو اثنتين.

_ لنكن عمليين وندع الجدل جانبا، ولنسأل أنفسنا ماذا نريد أصلا من التنقيب تحت الهرم أو بجوار سفح أبي الهول؟

هكذا قطعت (أودريه) دائرة الجدل التي يدورون فيها منذ عودتهم من النفق قبل عدة أيام، ولم يسفر فحص صور وخرائط ومقاييس الحجرة الجديدة عن تقديم أي جديد لهم..

فردّ (سكوت) بتهكم وغيظ:

_ ها نحن سنعيد اختراع العجلة!

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لا أقصد، أنا فقط أفكر بصوت عالٍ، ألسنا نبحث عن سر الهرم الأكبر ولماذا بني؟

رد (يوجيه):

_ بالضبط، فمن له نصف عقل لا يصدق أن ذلك البناء المهول المعجز مجرد مقبرة!

(أودريه):

_ وبالتالي فنحن نبحث عن بناه ولماذا بناه، وبحثنا الطويل المجهدي لم يوصلنا إلا لتلك الحجرات المصمتة..

(يوجيه):

_ كلام جميل لكنه لم يصف جديدا.

(أودريه):

_ لماذا نفترض أن مفتاح سر الهرم سيكون مدفونا تحته أو بالقرب منه؟ بمعنى أن من بنى ذلك الهرم الرهيب وتعمد ملأه بالمتاهات وبالممرات وبالحجرات المغلقة التي لا تؤدي إلا إلى حجرات مغلقة هي الأخرى أيضا، علاوة على الحجرات السرية التي يصعب الوصول إليها، والجدران الصماء التي ليس فيها نقشٌ واحدٌ يدل على أي شيء، ثم أغلق هذا كله بالحجارة حتى جعلها مصمتة تماما بلا أي منفذ...

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هل من يفعل كل ذلك سيضع مفتاح الهرم تحت قدميه أو حتى على مقربة منه؟

(يوجيه):

_ تقصدين...

أكملت هي جملته وقالت:

_ أقصد أننا يجب أن نمشي وراء النظرية التي تقول بأنهم باعدوا بين القفل والمفتاح.

قال (سكوت):

_ ولماذا نفترض أنهم أصلا صنعوا مفتاحا للغز؟

ردت عليه:

_ كمية الحقائق الهندسية والفلكية والرياضية المدهشة التي يمتلئ بها الهرم والتي لا يزال يكتشف الجديد منها كل فترة تدل على أن ذلك البناء بني لغرض علمي، ربما كمرصد كوني أو ربما لتدوين العلوم بطريقة تطبيقية كما يعتقد بعض الباحثين أو ربما لتأسيس حالة دينية وحقيقة صوفية كما تؤمن أنت والملايين غيرك وربما وربما... أما أنا فلا أظن أن من صنع كل ذلك صنعه ليخفي أسراره للأبد وإلا فلماذا بناه أصلا.

رد (سكوت) وهو يناولهم بعض الكعك الإنجليزي ليشاركوه فيه:

_ أو ترك الأمر لذكاء من يأتي بعده أو لما تجود به مصادفات الاستكشافات، أو ربما أسرّ به لتلاميذه كي يتناقلوه شفها فيما بينهم جيلا بعد جيل.

(أودريه):

_ من بنى تلك المعجزة له عقل وتفكير منطقيان لأقصى درجة، فبالأكيد لن يترك الأمور للصدفة، وبالتأكيد لم يرهق عقله ويستنزف أبدان آلاف العمال معه فقط ليتحدى ذكاء البشر من بعده، ومن المنطقي أن يضع مفتاح القفل بعيدا عن يد من شاركوا في بناء الهرم كي يضمن سره وألا يعث به أحدهم، وسواءً أخفاه هو في مكان ما أو أسرّ به لتلاميذه كما تظن يا (سكوت) ليؤسس بذلك أول أخوية في التاريخ كما تعتقد..

قاطعها (سكوت) وقال في ثقة وفخر وهو يشعل غليونه العاجي الثمين الضخم المليء بالنقوش:

_ أو تقصدين أنها الأخوية الأم لنا، فما أخويتنا اليوم إلا تجلي من تجليات الأخوية المقدسة الأولى، كما تجلت من قبل في مدرسة الإسكندرية أيام حقبها البطلمية بعد بناء الإسكندر للمدينة، ثم اختفت الأخوية بسبب الاضطهاد المسيحي لها، لتظهر مرة أخرى أيام

حضارة العرب على يد إخوان الصفا والصابئة وبعض شيوخ الصوفية العرفانية، ولتكون أخويتنا هي سبب نهضة حضارة العرب العلمية، لتختفي مرة أخرى بسبب اضطهاد ديني جديد لكنه إسلامي هذه المرة لتتجلى أخويتنا من جديد في فلورنسا أيام عصر النهضة لتقدم أسمى عقول تلك الفترة من أمثال دافنشي وأنجلو وبوتشيللي وجوردانو برونو من بعدهم، بل هذه الأخوية هي من بذرت بذرة الإصلاح الديني على يد ريوكلين معلم مارتن لوثر، لتتجلى أخيرا في بلادنا الإنجليزية على يد معلمها الأول جون دي ومن تبعه من المعلمين وأشهرهم بالطبع السير إيزاك نيوتن وتظل حية حتى يومنا هذا.

لم تشأ (أودريه) أن تدخل في جدال جديد مع (سكوت) فيما تعتبره مبالغات منه والذي ينتهز كل فرصة كي يرددها على آذان سامعيه فقالت وهي تبسط كفيها لأسفل:

_ أيا ما يكون، سواء من تولى بناء الهرم حفظ سره بنفسه أو أسر به لتلاميذه فلا بد أنهم حفظوه في مكان أمين، وطالما أن (أخويتكم)..

وقالتها وهي تشير بأصابع يديها علامة ما بين قوسين وأكملت:

_ وطالما أن (أخويتكم) لم تتوارث هذا المفتاح فيما بينها فلا بد أنه محفوظ في مكان أمين، وطالما أن كل مخطوطات العصور المزدهرة

التي ذكرتها للتو تخلو من أي إشارة لأية مفتاح وإنما تكتفي فقط بتمجيد ذاك البناء الأعظم الذي بنى البناء الأعظم في التاريخ، إذن فلا بد أن المفتاح لم يصل إليهم العلم به أو مكانه وبالتالي فبالأكيد هو مدفون في مكان أمين وهنا في مصر.

رد عليها (يوجيه):

_ ولماذا مصر؟ قد يكون مدفونا في القدس مثلا أو في روما أو إسطنبول أو في أي مكان امتدت إليه أيدي البنائين الأحرار لتصنع فيه هيكلًا من هياكلها.

ضحك (سكوت) وقال:

_ أولست من البنائين الأحرار؟ فلماذا لا تسأل عن المفتاح أحد خبراء محافلكم؟

بادله (يوجيه) الضحك حتى يفوت عليه فرصة استفزازه، في حين قالت (أودريه):

_ أقوى النظريات في رأيي هي التي تقول إن الهرم أقدم مما نتصور، لقد خلا من النقوش والكتابات من الداخل لأنه بني على الأرجح قبل انتشار الكتابة، وهذا يتلاءم مع الاعتقاد بأن الحكيم (تحوت) الذي قدسه المصريون بعد موته هو من بناه، وهو من علم المصريين

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

الكتابة لذلك خلا الهرم من الكتابات لعدم وجود الكتبة والرسامين بين البنائين.

التقط (سكوت) طرف الكلام ليردد أفكاره من جديد فقال:

_ والحكيم (تحوت) هو (هرمس) عندنا وهو (أخنوخ) عند اليهود و(إدريس) عند المسلمين و(هرمز) عند الفرس، وهو المعلم الأول للبشرية.

قاطع (يوجيه) قبل أن يسترسل في محاضرتة قائلاً:

_ لكن معابد تحوت في الأشمونين خلت من أي إشارة للهرم أو لبنائه ناهيك عن مفتاحه، كما أن هناك اعتقاداً آخر قويا يقول بأن الحكيم إيمحوتب هو مؤسس كل علوم مصر القديمة؛ الطبيب الأول وباني الأهرامات الأول، وأنه في الهرم الأكبر قد حفظت علومه، بل يذهب أصحاب التفاسير الدينية للحضارات القديمة إلى جعله نبياً أُرسِل لتعليم البشرية القديمة ممثلة آنذاك في مصر.

ردت (أودريه) بابتسامة ثقة:

_ وهذا يجمع علينا أشتاتنا في كلمتين؛ تحوت وإيمحوتب، ويؤيد ذلك تلك الخراطيش الحمراء التي وجدناها مرسومة على جدران الغرف التي عثرنا عليها، وهي تحوي إما اسم تحوت أو اسم إيمحوتب، بل

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

لعل الاثنين امتداد لفكر واحد أو ورثة علم واحد أو أبناء مدرسة واحدة بل لعلهما شخصٌ واحد..

وهمّ (سكوت) بأن يلتقط طرف خيط كلامها كي يحيكه في ثوب تمجيدته لجماعته، لكنها أمسكت يده واسترسلت في كلامها بسرعة وقالت:

_ وبالتالي فيكون تحوت أو إمحوتب أو أيّ وريث لعلمهما قد دفن السر في مكان أمين.

(سكوت):

_ إذن فعلينا تخمين مكان دفن هذا المفتاح لأننا بالطبع لن نحفر بر مصر كله.

قال (يوجيه) وهو ينظر أمامه كأنه يستطلع أفقا بعيدا:

_ المفتاح لن يحفظ في معبد مشهود أو يدفن في قبر مشهور ضمانا لسريته، كما أنه لن يدفن خبط عشواء لضمان إمكانية العثور عليه، فإما أنه دفن في قبر أحد الحكيمين واللذين لا يعرف حتى الآن أين دفنا بل لا يُعلم كيف اختفى ذكرهما فجأة في التاريخ، وإما أن يكون في معابدهما أي دليل يقود إليهما.

(أودريه):

_ إذن سنركز في خطتنا القادمة على المعابد ونبحث في ذات الوقت عن قبريهما.

قال (سكوت):

_ هل تعتقدان أننا بذلك حللنا المشكلة؟ أولا يمكن أن تكون نظريتكما خاطئة أساسا، ثانيا نحن سنبحث داخل معابد قتلت بحثا من عشرات البعثات ولم يعثر فيها على ما يشير إلى أي أهرامات، ونفتش عن قبرين نبشت الأرض تنقيبا عنهما، ثالثا قد تكون نظريتكما صحيحة في حين يكون المفتاح في مكان آخر لا هو بقبر ولا بمعبد.

رد عليه (يوجيه):

_ جميعنا نعلم أن التنقيب عن الآثار مبني على التخمين وترجيح أقوى الاحتمالات، وما وصلنا إليه للتو هو أقوى التخمينات بعد أن أعيانا التفتيش حول الهرم ذاته، فإذا عثرنا على أي من هاتين المقبرتين فهذا في حد ذاته إنجاز يستحق المغامرة، ولو عثرنا على مفتاح الهرم فهذا ولا أروع منه، وفي أضعف الاحتمالات سنعثر على أي آثار أو يكون تنقيبنا غطاء لتصريف ما يعثر عليه بعض المصريين من كنوز تحت بيوتهم!

سكت (سكوت) مفكرا لدقيقة باعتباره ممول البعثة قبل أن يقول:

_ لا بد أن أعود لرجالنا في إنجلترا وأمريكا أولاً.

ردت (أودريه):

_ بالطبع.. هذا مفهوم، فنحن سنحتاج الكثير من دعمهم بالذات التكنولوجي وخرائط المسح الجيولوجي بالقمر الصناعي.

قال (يوجيه) في سخرية:

_ ونظرياتهم عن سريان طاقة المكان إلى مرافقه وملحقاته!

فرد عليه (سكوت) من فوره:

_ بالمناسبة لقد تحولت الشفرات الثلثة التي تركناها في الغرفة الأخيرة وصارت حادة تستطيع أن تحلق بها عانتك.

ضحك (يوجيه) ثم رد:

_ وماذا بعد؟ الشفرات الأخرى في الحجرات الأولى صارت أيضا حادة بعد تركها فيها لفترة، وكذا ستصبح أي شفرة ثلثة تتركها داخل الهرم أو أي شكل هرمي له نفس نسب أبعاد ذاك الهرم.

_ ألا يدل ذلك هذا على أن طاقة المكان الهرمي انتقلت إلى الغرف السردابية التي حوله؟

_ كلامٌ رائع... أين مفتاح الهرم إذن وسط هذه النظرية؟

ثم أكمل في سخرية:

_ احتفظ لي بإحدى الشفرات لأحلق بها لحيتي أيضا إن كانت للنظرية ثمة فائدة.

تدخلت (أودريه) في الحوار وقالت:

_ معك حق يا (يوجيه) لكننا لم نخسر شيئا في معرفتنا بهذه المعلومة ولعلها تكون مفيدة لنا يوما ما.

سكت (يوجيه) ولم يعقب فغيرت (أودريه) مجرى الحديث وقالت:

_ فهل سننهي إذن أعمال بعثتنا هنا في صحراء أبي رواش؟ لكننا لم نعثر إلا على أشياء بسيطة القيمة.

(سكوت):

_ لا بأس، أصلا مهمتنا هنا في أبي رواش كانت مجرد غطاء لما نفعله هناك في نزلة السمان وسن العجوز، ثانيا لقد اتصل بي سمسارنا من مدينة المنيا، وأرسل لي صور بعض ما وجده الأهالي هناك في مناطق تونا الجبل والأشمونين، هنالك البعض منها يناسب الحقبة القديمة هنا لآثار أبي رواش، وهي التي سنقول بأننا عثرنا عليها، والباقي انتقيت منه ما يستحق نقله للخارج.

رد (يوجيه) في أسى:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ منذ أن ألقى وزير الثقافة الجديد حصة الـ ١٠% التي كانت قانوناً من حق المنقب أن يحصل عليها ونحن نلجأ لما لا أحبه!

ابتسم (سكوت) في سخرية وقال:

_ عندما بنى الصينيون سورهم العظيم ما احتاج المغول في غزوهم للصين إلى هدمه، فلقد أحسن الصينيون بناء السور لكنهم لم يحسنوا أبداً بناء حراس ذلك السور.

ضحك (يوجيه) ثم قال:

_ ومتى ستصل هذه الآثار لنعاينها؟

_ السمسار ينتظر حضور بعض أقاربه ممن لهم حصانةٌ ما تمنع تفتيش الشرطة لسياراتهم، وهم سيأتون بالبضاعة من المنيا أثناء عودتهم الطبيعية إلى مقار عملهم في القاهرة، وقد وعدني أن يأتيني أولاً قبل أن يذهب إلى تجار خان الخليلي والجمالية.

(يوجيه):

_ وحتى يحين ذلك سنغلق تلك الأنفاق التي حفرناها بدون جدوى... سنغلق مداخلها فقط فلعلنا نحتاجها يوماً ما!

(٥)

خرج (صلاح عفيفي) من داره بعد أذان العشاء بساعتين، استقل دراجته النارية ويمم وجهه غربا في اتجاه قرية تونة الجبل، في بداية المشوار إلى هناك توقف على جانب الطريق وركب (الشيخ) خلفه ثم طارت بهما الدراجة إلى وجهتهما المقصودة..

_ كل شيء جاهز يا (صلاح)؟

_ الجميع في انتظارنا؛ أصحاب المكان والضحية وطلباتك المعتادة.

_ وهل اشترى جِوال النقود إياه بخور الطقش المغربي؟

ضحك (صلاح) وقال:

_ قلت له بأننا نحتاج إلى جرّامات قليلة منه، وبالفعل ذهب المسكين إلى كل من يعرفهم ومن لا يعرفهم من العطارين، وإجاباتهم المترددة بين التهكم عليه وبين الخوف والتوجس منه أكدت له صحة طلبنا، وبعد أن كلّت أقدامه من البحث عنه تعثرت رجلاه في رجلنا الذي باعه لبانك المغربي بأكثر من مائتي ألف جنيه.

ضحكا سويا ثم قال (صلاح):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ بالمناسبة يا شيخنا؛ هل لهذا البخور وجود فعلا؟ هل هي فعلا شجيرات وحيدة في المغرب لا يستخرج الطقش من سواها؟ أم أنها أساطير مثل الزئبق الأحمر؟

_ ولماذا لا أعلمك سر مهنتي بالمرّة وأتقاعد أنا؟ ألا تكفيك مهمة اصطياد الزبائن؟

سكتنا بقية الرحلة حتى لاح لهما بيت يقبع عند أطراف الصحراء المحيطة بالقرية، أطفأ (صلاح) إضاءة دراجته وتمهل في سرعته حتى إذا اقتربا من البيت ترجلا سويا عن الدراجة وأكملا طريقهما مشيا.

دق (صلاح) باب البيت بالطريقة المتفق عليها ففتح له أحد أهل الدار واقتادهما في صمت إلى حيث ينتظر الباقون في قبو البيت، وكأنهم كانوا جميعا معا منذ دقائق فلم يلق أحد سلاما بل دخل (الشيخ) في الموضوع مباشرة وقال وهو يفتش الأرض بجوارهم:

_ هل كل شيء جاهز؟

هز الجميع رؤوسهم وأخرج ممول عملية التنقيب لفافة صغيرة من جيبه بحجم عقلة الأصبع وناولها للشيخ وهو يقول:

_ وها هو بخور الطقش المغربي، يعلم الله كيف حصلت عليه.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

فك (الشيخ) اللفافة وأخرج منها قطعة البخور التي على شكل قرص شبه مستدير كهرماني اللون ومثقوب من منتصفه بثقب دائري متقن، وتظاهر الشيخ بفحصها وشمها وهو يقول:

_ بل تحمد الله أنك لم تتعرض للنصب وحصلت على قطعة حقيقية منه.

ثم نظر لأصحاب البيت وسألهم:

_ أنتم ثلاثتكم أصحاب المكان؟

هزوا رؤوسهم بالإيجاب فقال:

_ سيختار الملك الذي سنقوم الآن بمخاطبته من منكم المؤمن عنده والأكثر إحصانا من السحر السفلي، فذلك الذي سيقوم بالحفر وسيتولى الملك حمايته من الرصد، وسنعرف من الملك بعدها طريقة التنقيب إن كانت بالرفع أم بالتفتيت.

رد الممول في وجل:

_ ومن هما ذلك الملك وذاك الرصد؟ وما هو الرفع والتفتيت؟

نظر إليه (الشيخ) وقال في حزم:

_ ستعرفون كل شيء في أوانه.

ثم أشار لأهل المكان بإطفاء النور، واعتدل في جلسته ثم قام بإشعال عدة شموع رصت بشكل دائري وكوم في وسطها كومة صغيرة من تراب أرضية القبو، وأخرج (الشيخ) من بقجته ورقة من ورق الزبدة مقصوصة على شكل دمية بشرية طولها قرابة الشبرين وعليها كتابات بحروف سريانية باللون الأحمر، ووضعها فوق كومة التراب، ثم أغمض عينيه وبدا يندمج في دوره ويحرك كفيه فوق دمية الورق، ثم شبك أصابعه أمام صدره وبدا أنه يتضرع في خشوع:

_ أيها الملك الأحمر.. يا سيدي ومولاي.. أنا عبدك (الملواني بن سعاد) أتضرع إليك أن ترحم ذلي وأن تجبر ضعفي وأن تجيب سؤالي إليك وأن تحميننا من الرصد المرصود...

وبعد أن أطال في التبتل حتى كادت دموعه تسيل من عينيه؛ قطع قطعة من البخور وحرقتها، بعدها بدأت دمية الورق بالوقوف على قدميها والتحرك، كادت صرخة أن تندّ من الممول لولا أن كتم أنفاسه بيده، فأكمل (الملواني) بعضاً من تبتلاته ثم قال:

_ أيها الملك المبجل، من تختار معاوننا لك ليكون مجتباك وطوع أمرك؟

توجهت الدمية ببطء نحو (الملواني) الذي مال برأسه نحوها كأنه يستمع إليها وهي تهمس له ثم قال:

_ أنت يا (رمضان) من وقع عليه الاختيار.

ثم أخذ (الملواني) يتمتم من جديد ويخاطب الجن الذي استحضره في خشوع ويسأله أن يرشدهم إلى طريقة التنقيب وقام بحرق قضمة أخرى من البخور، وقفت دمية الورق مكانها ثم ارتفعت يداها لأعلى فقال (الملواني):

_ سيكون التنقيب بطريقة الرفع.

أخرج (الملواني) من حقيبته أربعة أزاميل من حديد وطلب من أحد أصحاب المكان طستا فيه ماء، ولما حضر الماء قام بغمس الأزاميل فيه ثم أخذ يقلب الماء بأطراف أصابعه وهو يقرأ تعاويذ بلغة غير مفهومة، وظل يقرأ لدقائق طويلة حتى إذا ما انتهى قام برفع الأزاميل من الماء وأخرج شاكوشا نحاسيا من بقجته، أخذ يدق الأزاميل في أركان المكان وهو يقرأ تعاويذ جديدة، وبعد أن انتهى من دق الأزاميل جلس في منتصف دائرتها وأخذ يناجي الجن من جديد ثم حرق القطعة الأخيرة من بخور الطقش، أحسوا بعدها بهزة سريعة تسري في المكان ارتاع لها من في القبو في حين تهلل لها وجه (الملواني) وقال:

_ لقد استجاب الرصد لنا وانصرف، وقام الملك الأحمر برفع الخبيثة من طبقاتها السفلية إلى أقرب ما يكون تحت أرجلنا ثم ثبتها لنا... هيا يا (رمضان) ابدأ الحفر ثم يعاونك بعدها أخواك.

استمر الحفر لثلاثة أسابيع، في البداية حفروا نفقا ضيقا رأسيا لأسفل لقربة الثلاثة أمتار، ثم تحولوا إلى الاتجاه الأفقي فعمدوا إلى توسيع قطر النفق إلى قرابة المترين، وكلما واجهتهم مشكلة لجأوا إلى (الملواني) الذي يبدأ بعدها في تمتماته وتضرعاته فيتواصل الحفر بعدها بغير مشاكل، ولم تكن لهم حاجة إلى حفر نفق طويل بسبب عملية الرفع التي قام بها (الملواني) والتي سهلت كثيرا من المهمة المطلوبة، واستمروا هكذا حتى فوجئوا بـرمضان يصيح فيهم:

_ جسم صلب!

هرعوا جميعا إليه وبدأوا في الحفر حوله بحذر شديد، ساعة ثم بدأت ملامح بوابة المقبرة تلوح إليهم فأخذوا يصرخون في فرح ويحتضن بعضهم بعضا، أمرهم (الملواني) بالابتعاد ثم أحضر فرشاة من السلك وأخرى من الشعر وبدأ ينظف حول البوابة حتى اتضحت معالمها تماما، هم (رمضان) بفتح البوابة فاستمهله الممول وأخرج هاتفه المحمول وقام بتصويرها عدة صور.

_ ما هذا؟

أجاب الممول:

_ ألم يصلكم المحمول ذو الكاميرا بعد؟ سنوات قليلة وستجد كل الهواتف في العالم مزودة بكاميرات.

ركل (رمضان) البوابة بقدمه فسقطت وهمّ وإخوته بدخولها فسارع (الملواني) بمنعهم وصاح فيهم:

_ انتظر! هل جنت؟

_ ماذا؟

_ ليس الليلة، يجب ترك المقبرة للتهوية ليومين على الأقل وإلا أصابتك الميكروبات المتراكمة على مدار ألفي سنة بكل الأمراض التي قد تعرف والتي لا تعرف.

وقضوا يومهم في انتظار تهوية المقبرة بفروغ صبر، ولم يفكر أحد منهم في المغادرة والعودة بعد اليومين فالطمع قد يسول لأي منهم بالمغامرة بصحته بل وبحياته واقتحام المقبرة قبل تهويتها، لكن جميع من ينقب عن الآثار في قرى المنيا قد أخذوا العبرة من قصة أولئك نفر التسعة الذين بلغت بهم الشجاعة أن يحفروا بحثا عن الآثار أسفل الهضبة المقام فوقها استراحة المحافظة، كانت بداية الحفر من

حقل أحد أولئك النفر لزراعة الموز والمجاور للهضبة ومنه تسللوا وتوغلوا حفرا كي يصلوا إلى المقبرة التي يعرفون أنها في بطن الهضبة أسفل الاستراحة، كان عملهم يقتصر على فترة النهار حتى يغطي ضجيجهم على أصوات حفرهم، وظلوا على دأبهم وصبرهم حتى وصلوا ذات يوم لقرب بوابة المقبرة فانصرفوا في نهاية النهار، وعاد أربعة منهم صباح اليوم التالي ليجدوا الخمسة الباقين وقد بيتوا خيانتهم وتسللوا لفتح المقبرة ليلا، فكان جزاء تسرعهم في اقتحام المقبرة أن ماتوا من فورهم مختنقين ومسمومين بفعل ما استنشقه، وكان منظر وجوه الموتى مريعا؛ عيون جاحظة وألسنة متدلّية ووجوه مزرقّة، فملئ الباقون منهم رعبا وولى بعضهم فرارا يصرخ من المنظر.. وافتضح الأمر!

ولذلك أثر الجميع التعقل وقتلوا الممل بتداول الأحاديث والقصص، وبالطبع كان النصيب الأكبر من التساؤلات موجهها للملواني

لماذا تلقب بالشيخ وأنت ساحر؟

ما هي طبيعة بخور الطقش المغربي؟

هل هو مجرد نبتة نادرة من المغرب أم يحتاج إلى قراءة تعزيمات لتحضيره؟

ما هو الرصد وما الفرق بين الجنّي السفلي والعلوي؟

ما هذا التفتيت وما ذاك الرفع؟

وكان (الملواني) مقتضبا جدا في إجاباته، لكنه روى بها بعضا من ظمئهم بما يزيد من تشوقهم، فبخور الطقش المغربي - أو كما يسميه البعض باللبان الحارق - بخور نادر جدا لا تنبت شجرته إلا في المغرب وهو لازم لاستحضار الأرواح العليا من الجان وصرف الرصد الحارس الذي يسخره سحرة المقبرة لحراسة كنوزها وموميائها، وهذا الرصد أنواع ما بين العلوي والسفلي، العلوي هو ذلك الذي يسكن قريبا من الناس في الخرائب أو أماكن التغوط وقضاء الحاجة وهذا يكون أليّن عريكة من السفلي الذي لم يعتد - مثلما اعتاد العلوي - وجود أي بشر حوله فيكون صرفه أصعب بكثير وتصرفاته أشد عدوانية، ولذلك كان لا يقدر على تسخيره للحراسة إلا السحرة الراسخين في علمهم والذين يكلفون برصد مقبرة الفرعون ذاته أو أحد المقربين من منزلته، أما المقابر الأدنى منزلة فيكلف الجن العلوي برصدها، ولا يقتصر عمله (كشيخ) على مرآة الرصد بل يطلب مساعدته في مفاداة شرك المقابر، حيث كان الكهنة لا يكتفون برصد الجن لحراستها بل يحيطونها بالشراك الحامية، مثل أرض لينة تهوي بمقتحم المقبرة إلى بئر عميقة، أو كرتق من الجراثيم تتفتق عما فيها في وجه من يدهسها لتصيبه بالأمراض وغير ذلك، والشيخ الراسخ في مهنته يسخر الجن أيضا في جلب الخبيثة قدر المستطاع إما برفعها من هاويتها التي هي فيها أو بتفتيت الأرض من فوقها عنها، فيتجنب

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

المنقبون عن الخبيثة كل تلك الشرك المميتة، ونحن في حالتنا هنا قد استعملنا الرفع.. قال (الملواني).

_ فلماذا احتجنا لنحفر ما حفرناه؟ لماذا لم يرفعها لنا الجن إلى سطح الأرض أو قريبا منها؟

هكذا سأله أحدهم فأجابه آخر ساخرا منه:

_ ولماذا لا يحمل الآثار حتى يضعها بين يديك؟ ألا تريد أن تتعب في شيء؟ أم أنك تريد الجن خادما عندك؟ لماذا لا تطلب منه أن يبيعها لك أيضا؟

فاجأه (الملواني) لما قال:

_ هل تظن أنك هكذا تمزح؟ هذا ممكن الحدوث لكن مع الشيوخ أولي الخطوة! ألم تسمع بقصة بلدة (بني حسن) المتوارثة منذ قرن تقريبا؟

_ أية قصة؟

_ قصة رجل من أهل بلدة (بني حسن) طرقه عابر سبيل ذات ليلة؛ رجل يرتدي العباءة المغربية ويتكلم بالفصحى، وبعد أن ضيفه صاحب الدار قال عابر السبيل له أنه يريد بعض الخلوة ليصلي ويقرأ ورده الليلي، فتركه صاحب البيت وأغلق وراءه باب المضيفة، ثم بعد

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

عدة ساعات طرق الباب لينظر إن كان بالضيف أية حاجة، ففوجئ
بعباب السبيل يفتش ملاءة على الأرض وفوقها عدة تماثيل صغيرة من
الذهب!

صاح الرجل في دهشة ورعب: ما هذا؟!

أجابه الضيف بكل هدوء: رزقُ ساقه الله إليك، ذاك نصيبك وهذا
نصيبي، أم أن لك رأيا آخر؟

ولكن كيف حدث ما حدث؟ سأله صاحب المكان.

نظر له الضيف نظرة قال صاحب البيت لأولاده أنه لم ينسها يوما ثم
أجابه:

لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم!

ثم حمل الضيف نصيبه وانصرف.

بعد أن أفاق صاحب البيت من ذهوله قلب المضيفة رأسا على عقب
فلم يجد إلا رائحة ذلك البخور الغريب الذي هو بالتأكيد الطقش
المغربي، وانتقلت حياة الرجل نقلة نوعية، لكنه احتاج لبعض الشيوخ
- شيوخ حقيقيين هذه المرة - أقاموا عدة ختمات للقرآن في المضيفة،
صرفا لِمَا عاناه أهل البيت من ثقلٍ غريب في نفوسهم وكوابيس

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

تترأى لهم في مناماتهم، ولم تعد الأمور إلى طبيعتها إلا بعد شهرٍ كامل من الختمات المتكررة!

سكتوا جميعا حبيسي الأنفس حتى قطع صمتهم أحد الإخوة وهو يقول:

_ بالمناسبة أنا وإخوتي نريد تغيير الاتفاق!

قال الممول بتوجس:

_ ماذا تعني؟

_ نريدها مثالثة، ثلث لنا وثلث لك وثلث للشيخ.

صاح فيه الممول:

_ لكن هذا لم يكن اتفاقنا من البداية!

وصاح (صلاح):

_ وأين نصيبي أنا؟

قال له أحد الأشقاء:

_ سوف يراضيك كل طرف من الثلاثة، أنت مجرد وسيط.

صاح الممول:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لقد اتفقنا أن أعطيكُم مائة ألف من الجنيهات عن كل تمثال نجده
وأن أَدفع أجرة الشيخ وصلاح، وها أنتم تخونون الثقة.
صاح فيه (رمضان):

_ وأنت عندما أصرت أن يأتي صديقك دارس الآثار ليفحص لك باب
المقبرة ألم يكن ذلك تخوينا لنا؟ حتى صاحبك هذا أنت لم تثق فيه
فصرفته من قبل أن يرى ما بداخلها حتى لا يطمع فيك.
وتعالَت الأصوات بينهم حتى صاح (الملواني) بهم عدة مرات:

_ اسمعوني!

نظروا إليه فقال بعد أن سكتوا:

_ ومن قال إنني أريد نصيبي مساخيظ؟

قال (رمضان):

_ أَلستَ شيخاً؟ لابد أن لك طرقتك لبيع المساخيظ.

صاح فيه (الملواني) وهو يشير بسبابته في وجهه:

_ لا تتعد قدرك معي.. أنا لست دلالا.

سكتوا جميعاً ثم قال (رمضان) في لهجة اعتذار.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ وهل يرضيك هذا يا شيخ؟ الأرض أرضنا وأنت بدونك لم نكن
لنستخرج شيئاً ثم يأتي الممول ويأخذ نصيب الأسد؟
رد عليه الممول:

_ وأين كان هذا الكلام من البداية؟ وهل كنت ستتحمل عني ثلث
ما أنفقته إذا كنا لم نجد شيئاً؟

لم يرد أحد ولكن بقي الجو مكهرباً وأخذ الأشقاء الثلاثة ينفخون في
صمت وهم يدورون حول أنفسهم، حتى قطع الممول حبل التوتر
وقال وهو يشعل سيجارة:

_ حسناً، سأدفع مائة وعشرين ألفاً في كل مسخوط، أقصد عن كل
تمثال، وأزيد أجرة الشيخ وصلاح مثلها عشرين في المائة.

_ بل اجعلها خمسين بالمائة.

_ خمسة وعشرون بالمائة وهذا آخر كلام عندي.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

جلس المملوani وصلاح والأشقاء الثلاثة يضحكون وهم يعدون النقود التي حصدها من الممول الضحية.

_ مليونان بالتمام عدا ونقدا.

_ لكن للأسف لن يتخطى نصيب أحدنا المائتي ألف جنيه بعد تسديد ثمن التماثيل المزيفة ونصيب أصدقائنا من مركز الشرطة الذين يتولون إخفاء أي بلاغ ضدنا عن قياداتهم، هذا بخلاف حصة شيخ المنصر والتربي والثريات إلخ..

_ ولو كان نصيبك مليوناً لما تغيرت حسرتك، ألا تكفيك مائتي ألف؟

_ ليس قبل أقل من عام حتى نستطيع القيام بعمل مماثل وذلك متوقف أيضاً على أن يجد (صلاح) مغفلاً آخر.

_ بالمناسبة؛ ماذا كنا سنصنع لو كان ذلك المغفل يثق في صاحبه الأثري واصطحبه معه للداخل؟ لو كنا مانعنا دخوله لشكا هما الاثنان في أمرنا.

_ ومن قال لك بأنه أثري مخضرم؟ لو كان كذلك لاكتشف عملية النصب بمجرد رؤية باب المقبرة.

_ كيف ذلك؟ إنها مقبرة حقيقية بالفعل.

_ هي كذلك، لكن الأثري الحقيقي سيكتشف بمجرد رؤية البوابة أنها فتحت منذ زمن ولن تخدعه رائحة الجثث المدفونة حديثا في المقبرة والتي أتى بها صاحبنا التري، ولأنه قليل الخبرة فحتى لو عاين التماثيل فلن يكتشف حقيقتها بسبب دقة عملية التزييف والتي تضمنت تعتيقها بدفنها لفترة في أحضان بعض الجثث.

_ هل أخبرتكم من قبل؟ لقد كنت ذات يوم وأنا صغير مع عمي في المتحف المصري، وشاهدت بعيني هاتين عمي وهو يجادل أحد مرشدي المتحف عن أحد التماثيل أنه تمثال مزيف! وأن الأزميل الذي استعمل في نحت هذا التمثال لم يكن هو النوع المستعمل في الأسرة الفرعونية التي يعود لها ذلك الفرعون، وشاهدت المرشد وهو يتصب عرقا وعمي يجادله في زوايا النحت الدقيقة ويدعوه لمقارنتها بغيره من تماثيل عصره، حتى قال له عمي إن الختم الصغير لمصلحة الآثار الذي على التمثال هو الشيء الوحيد الحقيقي فيه! عندها مال المرشد على أذن عمي وأخبره أنها فعلا قطعة مقلدة والأصلية محفوظة في المخازن حماية لها من الضوء ومن العوامل الجوية، وأن كثيرا من الدول تصنع ذلك مثل إيطاليا التي تخفي تماثيل شوارع روما الحقيقية وتعرض نسخا مكانها، وبالطبع هز عمي رأسه علامة الاقتناع!

_ لم تخبرنا يا شيخ (ملواني)؟ كيف استطعت تحريك العروس الورق؟

رد عنه (صلاح):

_ الشيخ (ملواني) شيخ صرف أرصاد بحق، وما شاهدتموه من العروس كان حقيقة، بل إن التنقيب بالرفع أو بالتفتيت كلام حقيقي، ودق الأزامل الأربعة ما هي إلا محاكاة لما يحدث في الحقيقة.. أليس كذلك يا شيخ؟

نظر الأشقاء الثلاثة لبعضهم في وجوم، بينما اعتدل (الملواني) في جلسته دون أن ينظر لأحد وأخذ يللمم أغراضه ونصيبه من المال وهو يقول:

_ صنعتي فيها من الحقيقة مثل تلك التي لمقبرة بيت جدكم هذه بالضبط، والتي كانت مقبرة حقيقة مغلقة يوما ما، وكما أنكم لا تستطيعون الصيد بمقبرة مزيفة تماما فلن تكتمل الخدعة بشيخ زائف أيضا.. هيا بنا يا (صلاح)!!

(٦)

استرخى (سكوت ماسون) على أريكته المفضلة في جناحه الواسع في فندق مينا هاوس وأخذ يتأمل منظر الأهرامات المهيب من إطلالة شرفة الجناح، إنها الإطلالة التي تعشقها عيناه من شرفة جناحه المفضل في فندقه الأثير والذي لا يقطن سواه حين ينتهي من أو قبل أن يشرع في أعمال بعثاته التنقيبية التي لا تنتهي إحداها حتى تبدأ الأخرى، بل إنه كثيرا ما يترك استراحة البعثة أثناء أيام التنقيب ليأتي إلى هنا ليقيم ليلة أو ليلتين كي يستمتع بالمنظر الأكثر إلهاما له، فيغرق في تأملات طقوس ديانته، أو يمتطي خياله جواد أحلامه بفك شفرة الهرم الأكبر التي كرس عمره في البحث عن مفتاحها.

لكن برنامج اليوم مختلف بعض الشيء، فما هي إلا دقائق ويأتيه (منصور) سمسار الآثار ليعرض عليه حصيلة ما جمعه من تنقيب بعض الأهالي في بلدته (الأشمونين) ومن حولها من القرى.

بالتأكيد سيصدع (منصور) دماغه في البداية بالحكاية التي لا يمل من تكرارها عن الصدفة التي بها شقت أسرته طريقها في عالم سمسرة الآثار، وسيقول بأنه يفخر بأن جدته كانت سيدة بسيطة تعمل كدلالة قماش وأدوات زينة لنساء بلدتهم، وأنها ذات يوم بعد أن انتهت من غسيل بعض ثياب أسرته قامت بدلق الماء من طست غسيلها، وكالعادة فإنها ترمي الماء المتسخ عند سفح الكوم حيث تقع

بيوت ميسوري البلدة فوقه ليكون أمانا لهم من فيضان النيل الذي كان معتادا قبل بناء السد العالي، وكانت أسرهم رقيقة الحال تسكن أحد البيوت البسيطة المبنية أسفل سفحه، وعندما ألفت السيدة ماء طستها على منحدر الكوم إذا به ينزلق ومعه تمثالان صغيران من ذهب!

وكان أبناء المرأة - والد (منصور) وأعمامه - من الفطنة بحيث لم يسارعوا ببيع التمثالين لأي مشتري، بل كانا طريقهما لدخول عالم تجارة الآثار، صاروا تجارا يشترون ويبيعون قطع الآثار العادية وسماسة وسطاء في قطع الآثار الثمينة والنادرة، وفي النهاية سيتباهى (منصور) بالكبراء الذين يدعي أنهم معارفه وأنهم متورطون معه في هذه التجارة.. أسماء من الثقل بحيث يستحيل على أي عاقل تصديق أن يتورط أمثالهم في مثل هذه الأعمال، وحين ضاق (سكوت) ذات مرة بما يراه من مبالغات (منصور) سأله:

_ إذا كان هؤلاء متواطئين معكم في تجارتكم، فكيف دخل ابن عمك السجن في قضية تهريب آثار؟

أجابه بكل ثقة:

_ مشكلة ابن عمي أنه طمع في تجاوز حده في صفقة قطعة أثرية فريدة غير متكررة فكان السجن قرصة أذن له.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وسحبه رنين هاتف الغرفة من تأملاته وذكرياته لينبهه موظف الاستقبال لقدوم ضيفه إليه..

دقيقة ودخل (منصور) تسبقه ضحكاته ولسانه الذي لا يتوقف عن الثرثرة وسرد الحواديت، ودعاه (سكوت) للجلوس وقام بإعداد كأس ويسكي لنفسه وكوب عصير لضيفه ثم قال قاطعا حبل الهذر على (منصور):

_ الصور التي أرسلتها لي توشي بأنك قد جئت بصيد كبير من الأشمونين.

_ ليس الأشمونين وحدها، لدينا خبيثة من بني حسن وأخرى من الأقصر، فعلا صدق الرأي القائل إن الآثار رزق لصاحب الصدفة وليست للباحث عنها، فأكثر الخبايا هذه المرة عثر أصحابها عليها مصادفة..

قاطعه (سكوت) مرة أخرى وقال:

_ لقد أرسلت لك كشفا بأرقام الصور التي اهتم أنا ووكلائي بالآثار التي فيها، هل أحضرت العملات الورقية التي كانت في كل صورة من هذه الصور؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قام (منصور) من مقعده وسحب محفظته وأخرج منها رزمة عملات من فئة العشرة والعشرين جنيها وناولها (لسكوت) وهو يقول:

_ بالتأكيد، ولكن ما حاجتك لها يا سيد (سكوت)؟ هذه العملات يضعها صاحب قطع الآثار بجوار القطع في الصور، وعندما يقرر الزبون المنتظر شراء إحدى القطع فإنه يطلب معاينة الورقة التي كانت مع القطعة حتى يتأكد من مطابقتها أرقامها أنها القطعة التي في الصورة، لكن أنا وأنت وضعنا مختلف.

_ أعلم ذلك سيد (منصور)، أنا لا أحتاج هذه العملات لثقتي فيك أولاً وثانياً لأن خبرة ثلاثين عاماً لي جعلتني أحفظ الآثار المصرية ككف يدي، ولكن هذا طلب الزبائن، ومن يدفع هذه الملايين الطائلة من الدولارات لا يجب مناقشته أبداً في أي طلب مهما بدا سخيفاً.

تجرع (سكوت) جرعته الأخيرة من كأسه وقام لإعداد كأس جديد ثم أكمل قائلاً:

_ بالمناسبة، بعض القطع المقلدة التي حكيت لي عنها؛ هناك من هو مهتمٌ باقتنائها.

قهقه (منصور) عالياً فتحشرجت حنجرته الخشنة وبدت آثار الحشيش التي على أسنانه ثم قال:

_ لماذا؟ هل هناك من يريد أن يستعملها للنصب هناك في أمريكا وأوروبا؟

ضحك (سكوت) وقال:

_ بالطبع لا، لكنها مقلدة بمهارة لدرجة أن الفرق الوحيد بينها وبين الأصلية هو سنة الصنع!

رد (منصور) باهتمام:

_ هل تعلم أن صنع هذه القطع يأخذ مجهودا لا يقل عن مجهود التنقيب؟ أولا يقوم النحات الماهر باستخدام نفس الأدوات التي استعملها الجد الفرعوني؛ نفس الإزميل النحاسي بنفس التصميم، ويراعي زوايا النحت، وميل الكتفين، والزاوية بين القدمين، وحجم الرأس بالنسبة للجسد... الخ، وبعد الانتهاء من النحت يأتي دور الدفن، فيقوم أحد التربة بدفنها ليلا مع جثة حديثة الدفن وتترك معها حتى تنتهي الجثة من تحللها، ثم يتم استخراجها... قطعة معتقة فيها فن النحت القديم ويفوح منها عبق القبور!

_ أتدري يا (منصور)؟ أحيانا أتساءل ما هو الفرق بين هاتين القطعتين؟ قديمها وحديثها؟ بل إنك لو عرضت هاتين القطعتين على الأثرياء قبل مئتي سنة من اليوم لاختاروا القطعة الحديثة بدلا من

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

القديمة التي قد خدشت أو كحتت بعض أجزائها، إذ لم تكن تكتسب الآثار وقتئذ أهميتها التي عليها هذه الأيام.

_ بالضبط، وكان من يعثر قديماً على تمثال من الذهب فإنه كان يعمد إلى إذابته، إذ كانت قيمته الوحيدة هي ما يحويه من معدن نفيس.
_ والكلام معك سيد (منصور) لا يُشبع منه، لكن ما زال أمامنا عملٌ طويل، متى نذهب لنعاين القطع الأثرية قبل تغليفها في قوالب الجبس؟

_ الليلة أرسل لك السيارة عند مقهى جروي الساعة الحادية عشرة.

في تمام الحادية عشرة مساء استقل (سكوت) السيارة ذات الزجاج الضبابي التي أرسلها له (منصور)، جلس بجوار الراكب في المقعد الخلفي والذي ناوله عصاة أعين سوداء ارتداها (سكوت) في هدوء، ولأكثر من ساعة يميز (سكوت) أصوات شوارع القاهرة ونفير سياراتها قبل أن تدلف بهم السيارة في طريق خالٍ من أصوات الزحام لتسير فيه لفترة قبل أن تبطئ سرعتها لتدخل بهم في مرآب مخزن كبير له بوابة ضخمة، شعر (سكوت) بضخامتها من صوتها وهي تفتح

فدلفت منها السيارة ثم طلب المرافق بأدب من (سكوت) رفع العصا من على عينيه.

نزل (سكوت) من السيارة فوجد (منصور) يرحب به بكل حرارة وكأنه لم يكن معه منذ ساعات قلائل في جناحه بالميناء هاوس، وبعد مراسم الترحيب المبالغ فيها على عادة الشرقيين أشار (منصور) إلى مجموعة من القطع الأثرية رست بجوار بعضها على جزء من أرضية المخزن مبطنة بطبقة مطاطية.

تناول (سكوت) رزمة من جيبه وأخرج منها مجموعة الصور التي أرسلها له (منصور) من قبل، ثم بدأ يقارن القطع التي أمامه بتلك التي في الصور ويفحصها قطعة قطعة، استغرقت منه عملية الفحص قرابة الساعة بعدها نظر إلى (منصور) وهز رأسه علامة الرضا وإشارة للبدء في الخطوة التالية.

قام مجموعة من مساعدي (منصور) بتغليف القطع بعناية وحذر، فلفوها في لفائف من الكتان ثم في لفائف من مادة الفوم، ثم بدأوا في وضع القطع في قوالب من الجبس وأحكموا صب لحامها حولها، وبعد جفاف لحامات القوالب أخرج (سكوت) من سترته قلم حبرٍ سري وقام بالتوقيع عدة مرات على جميع جوانب كل قطعة منها ثم قال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ غدا يا (منصور) ستجد في حسابك ٢٠% من المبلغ، وبعد خروج أصدقائنا الدبلوماسيين بالقطع من مطار القاهرة سيتم تحويل ٣٠%، وبعد وصول القطع لأصحابها سيكتمل لك المبلغ.

هز (منصور) رأسه في عدم رضا وقال:

_ لماذا لا تقتنع أن خروج البضاعة من البحر مأمون للغاية، بدلا من هذه المبالغ التي يأخذها هؤلاء الدبلوماسيون الأجانب والتي نحن أولى بها أنا وأنت.

هز (سكوت) رأسه وهو يقول:

_ هذا صيد ثمين لا يمكننا المغامرة به عبر البحر من قارب إلى قارب.

_ وبالنسبة للقطع الأخرى التي ستأخذها أنت؟

_ يمكنك إرسال القطع التي اتفقنا عليها إلى (يوجيه) وهو سيعطيك شيكا بثمانها.

ابتسم (منصور) وقال:

_ وقلت لي إنك مهتم بالقطع المقلدة، لكنها ليست عندي هنا الآن.

ابتسم (سكوت) بدوره وقال:

_ احتفظ لي بها عندك في الأشمونين، فقد تفاجأ بي هناك قريبا!

(٧)

استقر (حامد) في مقعد القطار المتجه من القاهرة إلى الصعيد، ومال بظهر الكرسي للوراء ومد قدميه للأمام في استرخاء، رحلة لأربع ساعات يقضيها من محطة رمسيس بالقاهرة إلى مدينة ملوي جنوبي مدينة المنيا، حيث سيبادر فور وصوله بالذهاب إلى مقر عمله الجديد بمتحف ملوي لتسليم أوراقه المطلوبة لاعتماد توظيفه، وبعدها يستقل إحدى سيارات الأجرة الجماعية لتحمله إلى بلدة آبائه الأشمونين حيث سيقوم.

واستقر القطار في سرعته وهو ييمم وجهه صوب الجنوب وتشق سِكِّته حقول الفلاحين الممتدة على جانبي مرمى البصر يمينا ويسارا، وسرعان ما غرق (حامد) في تأمل بقعة الجمال الأخضر المترامية أمامه، يقطع امتداد لونها إحدى الماشية المربوطة هنا أو أخرى يقودها صاحبها هناك، ويشوه جمالها أبنية من الطوب والخرسانة تُركت واجهاتها الخارجية بغير تشطيبٍ لتلطخ قواعد الجمال والتناسق، بل زرعت في الأرض أصلا بعشوائيةٍ وتحدٍ لقوانين تجريم البناء على الأراضي الزراعية، لكنه قانون الضرورة الذي لا تقدر على تحديه أو إيقافه أية حكومة مهما كانت نافذة.. ضرورة ملايين من البشر تتناسل وتتضاغط منذ فجر حضارة نيلها في شريط عمراني لم يتغير

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

نطاقه على ضفاف ذلك النيل منذ نشأتها، ولم يزد لها اطراد بذرتها إلا نزولا في سلم حضارتها!

هكذا أخذ (حامد) يحدث نفسه..

لم يكن العدد أبدا عنصرا مهما في أي عصرٍ في تاريخنا المصري.. وما أطوله.

كنا مزرعة أوروبا في العهد الروماني، ثم مزرعة الشرق في عصور الخلافة، ثم بقرة بريطانيا الحلوب في عهد إمبراطوريتها، ثم صرنا اليوم من أهم مستوردي الغذاء في العالم!

كان آباؤنا يتبايعون الأرض بالأفدنة متساهلين في دقة قياسها، الآن يتصارع أبناؤهم على المتر المربع فيها.

كانت الأرض الزراعية علامة الغنى لصاحبها فصارت عنوان الفقر لا ينجو من فقرها إلا من يبيعها تقسيم مباني أو من ينقب بطن داره فيها بحثا عن خبيثة تاريخها.

كنا قبلةً للمهاجرين فصرنا من أكبر مورديهم.

تتزاحم في بلادنا عائلات وقبائل من أصول مغاربية أو شامية أو عربية أو تركية.. ومن أواسط آسيا إلى جنوب أوروبا، الآن صرنا نزاحم أمم الأرض في أصقاعها.

بنينا أهراماتنا ونحتنا معابدنا ومسلاتنا وغزونا الشرق والجنوب ونحن فقط مليونان أو أكثر قليلا، فها نحن قرابة السبعين مليوناً وصار العالم يتشكك أن نكون نحن أحفاد هؤلاء البنائين العظام بل يتشككون في نسبة أهراماتنا إلينا.. حتى (ليندا) التي ما عهدتها إلا منصفة غير منحازة:

_ لا تحاول أن تقنعني يا (حامد)، لا يوجد دليلاً واحداً على نسبة هذا الهرم إلى الملك (خوفو)، بل إن هذا الملك نفسه حوله علامات استفهام وغموض، فليس له من الذكر في التاريخ المصري القديم إلا النذر القليل جداً، حتى اسم خوفو مختلفٌ عليه، فهيرودوت سماه كيوبس والمؤرخ المصري مانيتون السمنودي أسماه سوفيس...
قاطعها (حامد):

_ وكثير من الملوك المصريين كان لهم أكثر من اسم، وكثيراً ما كان المؤرخون يترجمون الأسماء إلى لغاتهم بمعانيها، فكلمة كيوبس معناها الجلالة باللغة الإغريقية وهو نفس معنى كلمة خوفو باللغة المصرية القديمة، بالضبط كما ترجم العرب اسم رعمسيس وسموه الوليد في كتب تاريخهم لأن كلمة رعمسيس تعني ابن رع.

_ وهل يعقل ألا يحتوي الهرم بأكمله على نقشٍ واحدٍ يدل على نسبته إلى خوفو؟

_ كيف ذلك؟ هناك في إحدى الحجرات العلوية التي فوق حجرة دفن الملك عثر على خرطوشة مدون بها اسم خوفو.

ضحكت (ليندسي) ثم قالت:

_ وهل هذا معقول؟ الملك يبني كل هذا البناء المعجز مقبرةً له ثم يحجم عن تدوين اسمه عليه إلا على استحياء؟ كان يفترض أن نجد الهرم بجدرانه وغرفاته وممراته يفيض ذكرا بالملك العظيم، انظر إلى مقابر فراعنة وادي الملوك بالأقصر؛ لم يتركوا شبرا فيها بغير نقوشٍ ورسومات.

_ ذلك لأن المصريين لم يبدأوا في نقش جدران مقابرهم إلا من الأسرة الخامسة لملوكهم، وخوفو من الأسرة الرابعة.

_ الجبانات المحيطة بالهرم والتي قالوا بأنها مدافن عمال بناء الهرم مليئة بالنقوش، هل يزخرفون قبور العمال ويخلدون فيها أسماءهم ثم يتركون قبر ملكهم؟ هذا كلام مستحيل تماما، ثم هل رأيت ذلك الخرطوش الذي تقول إن فيه اسم خوفو؟ كأنه رسم طفولي لدائرة بالطبشور الأحمر لا يصدر من فنان، وألوان الخرطوش أكد الكثيرون أنها يصعب نسبتها لذلك الزمن وأنه خرطوش حديث، قارن بينها وبين ألوان قبور العمال أو مقابر وادي الملوك لتدرك الفرق.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هل تتخيلين أن هناك من تسلل لهذه الغرفة بعد موت الملك ليحاول نسبة البناء إليه بهذه الطريقة الساذجة؟

_ ألم تقل منذ قليل أن كلمة خوفو معناها الجلالة؟ أنت تعرف أن الخرطوش هو أي نص مقدس وليس شرطا أن يكون اسما لفرعون، فلماذا لا نقول إن الخرطوش تعبير ديني رسمه أحدهم من تلقاء نفسه؟ الكثير يحلو لهم تدوين ذكراهم أو خواطرهم.

رد عليها باستنكار:

_ ذكراهم وخواطرهم؟ وفي الهرم الأكبر؟

_ دعك من الخرطوش، هل هناك جدارية واحدة أو حتى بردية في طول مصر وعرضها تكلمت عن بناء الهرم؟ أو جاءت على ذكره أصلا فقالت؛ ولقد بنينا الهرم؟.. المصريون الذين كانوا يدونون تفاصيل حياتهم هل يحجمون عن تدوين ولو ملحوظة واحدة عن أهم بناء في تاريخهم؟

_ الكثير من البرديات فقدت فلم تصل إلينا، وكثير من نقوش سالف الملوك أتلّفها الخلف منهم طمسا لعظمتهم وكي ينسبوا إنجازات سابقهم لأنفسهم.

_ فلماذا لم ينسب أحد منهم الهرم لنفسه؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هؤلاء هم اليهود اليوم يحاولون نسبته لرعمسيس الثاني الذي يزعمون أنه فرعون اضطهادهم ليلبّسوا على التاريخ أنهم هم مهندسوه وبنائوه.

_ هذا هوس ديني لا قيمة له، وليس معنى أنني أنفي نسبة الهرم لخوفو أنني أنسبه لغيره من الفراعنة، لا دليل واحد على نسبه لأي أحد أصلاً.

_ فمن يكون بناءً هـ إذن؟ علماء حضارة قارة أطلنتس الغارقة كما يزعم أفلاطون؟ أم الذين جاؤوا من الفضاء كما يزعم مهاوييس هذه الأيام؟

_ وأنا لا أصدق لا هذا ولا هؤلاء، بالضبط كما لا أصدق أن هذا البناء الرهيب العملاق المعقد مجرد مقبرة.

_ والتابوت الذي في حجرة الدفن؟

_ ومن قال إنه تابوت؟ وأين ذهب غطاؤه؟

_ سرق كما سرقت مومياء الملك ومتعلقاته وكنوزه.

صاحت في دهشة:

_ سرق؟! وماذا عساه يصنع به سارقه؟!

ثم أكملت:

_ أنا أفهم أن يسرق اللصوص ذهباً أو تماثيلَ أو حتى مومياء، لكن ذلك الهرقل الذي يخرج من غرفة الدفن وممراتها الضيقة متأبطاً كتلة حجرية وزنها عدة أطنان فهذا شخصٌ لا أصدق حجم قوته ولا مقدار غبائه!

سكت متأملاً ثم قال:

_ فمن يكون إذن؟ ولماذا يؤمن أكثر العلماء بأنه مقبرة خوفو؟

_ كم من إيمانٍ للعلماء ثبت فيما بعد خطؤه، وعلم الآثار برمته قائمٌ على الظنون وترجيح أقوى التفاسير لِمَا وصلنا من أدلة، ولعل الهرم يفصح يوماً عن سره الممكنون.

واسترد (حامد) ذهنه من شروده وتداعيات ذكرياته على وصول القطار إلى محطته.

(٨)

جلس (يواكيم) مع (شتيفان) في شرفة غرفته التي تطل على نيل الأقصر يرقبان الغروب في صمت، وأخذا يرجوان الشمس أن تتريث قليلا قبل أن تودعهما في رحلة غروبها، فأقسمت لهما بأن موعهما معها شفق الغد إلا أنهما أسرا إليها أنهما لا يثقان في أن يهبهما زوال الغد روعة ألوان لوحة اليوم، فما زادت عن أن تخضب وجهها بابتسامة حمراء حَجَلَى ما لبثت أن بهتت داعية الغسق أن يحل محلها في تطيب خاطر ضيفيها، فما كان لهما من حيلة إلا الأمل في غدٍ يكمل سحر اليوم موصولا بفتنة الأمس.

وقطع عليهما (براندت) حبل طيرانهما فأعادهما إلى شرفة الفندق من جديد وقال:

_ لقد وصلني بريد إلكتروني من إدارة الجمعية، خلاصة المهم فيه أنهم يوافقون إلى حد ما على نظرية (يواكيم) في توجيه البحث عن مقبرة نفرتيتي إلى خارج تل العمارنة وخارج وادي الملوك، وباقي الرسالة ملف عن الأماكن التي يقترحون البحث فيها، لكن هذا الملف طريف إذ تمتد الأماكن المقترحة من آثار المطرية جنوب القاهرة حيث أطلال مدينة أون العتيقة إلى مدينة ملوي جنوب المنيا وبينهما يقترحون علينا مقابر بني حسن وتونا الجبل والأشمونين!

ضحكوا ثلاثتهم ثم أكمل (براندت):

_ وهم يتكون لنا الاختيار بين نقاط التنقيب هذه، علينا فقط أن نخطرهم باختيارنا كي يقدموا لنا المساعدات التقنية وصور القمر الصناعي لطبقات أرض المنطقة الخ هذا الكلام المعروف... بالمناسبة يذكرون أيضا أنهم سيرسلون لنا أجهزة أكثر حساسية لقياس الإشعاع الضعيف لخراطيش الموميאות، لكن طبعا هذه الأجهزة لن تفيدنا إلا حين نستقر على مكانٍ للبحث.

سكت لثوانٍ ثم قال:

_ ها؟ ماذا تقترحون؟

قال (شتيفان):

_ ليس من المنطقي أن نأخذ بأي ترتيب جغرافي فنبدأ من الشمال إلى الجنوب أو العكس وإلا فإننا قد نستغرق عقودا من الزمن دون الوصول لشيء، لا بد من استعمال الترجيح المبني على نظرية علمية.

رد (براندت):

_ لدينا المطرية والأشمونين وبني حسن وتونا الجبل وملوي، وكل مكان منهم لديه نقطة ترجيح تجعله أولى من غيره بالبدء فيه.

تكلم (يواكيم) لأول مرة وقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لو أنصتم لهذه النظرية الدينية فلربما وجدنا فيها نوعا من الحل.
نظرا إليه فأكمل:

_ تقول النظرية إن عبادات المصريين قديما ومعابدهم على طرفي صراع؛ طرف سماوي وطرف وثنى، كما هي حقيقة الصراع الديني طوال التاريخ البشري القديم بكل أجناسه وليس الفراعنة فقط.
قاطعهُ (شتيفان) وقال:

_ هذه نظرية دينية، لكن أقوى ما أثبتته علم الآثار ومعهُ علم تاريخ الأجناس أن الدين تطورٌ تاريخي للبشر يبدأ بالأنيمية فالسحر فالطوتم فما تسميه بالوثنية لينتهي بظهور الديانات الإبراهيمية.
رد (يواكيم):

_ ليس موضوعنا الآن مناقشة تضارب هذه النظريات، أنا أعرض وجهة نظر لعلها تُقربُ بغيثنا إلينا.
قال (براندت):

_ أكمل للنهائية يا (يواكيم) ثم نسمع تعليق (شتيفان).
استرسل (يواكيم) فقال:

_ الصراع الوثني التوحيدي في مصر القديمة يمكن ملاحظته من وصف أكبر معبوداتهم، فالإله أتوم الذي تصوره الميثولوجيا المصرية على أنه إله الخلق الأول والذي خُلق من ماء ثم خلقت ذريته من منيّه، من الواضح أنه هو آدم في الديانات الإبراهيمية، وتحوت الذي علم الناس الحساب والكتابة والقلم هو النبي أخنوخ أو إدريس عند المسلمين، والإله نوو إله الماء هو النبي نوح وهكذا، وفي مقابل هؤلاء تجد آلهة المعابد الوثنية الصرفة مثل آمون في مدينة طيبة وبتاح في مدينة منف، وفي الفترات التي تغلبت فيها الوثنية كان يعمد كهنتها إلى تحريف القصص السماوية وإلى تأليه رسلها وتحويل معابدهم إلى معابد وثنية كي تنضم بدورها إلى مصادر للهبات والندور.

وإذا تمعنا في وصف آتون إله أخناتون الذي صاغ به ثورته الدينية، ونقيناها من تدخلات وتفسيرات علماء الآثار فسنجده إله توحيدي وأنه إله الشمس وليس الإله الشمس. ولذا شن كهنة الإله آمون حربهم على ديانة أخناتون وهكذا.

قال (شتيفان):

_ هذه نظرية معروفة ولكن ما دلالتها بالنسبة لنا؟

_ حسب نظريتي فإن أخناتون ونفرتيتي كانا موحدَين ومتأثرَين برسالة النبي موسى، فإذا فرت نفرتيتي بدينها وكتبها فإنها ستفر إلى

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

حيث معابد بقايا الديانات التوحيدية وستبتعد عن معاقل الوثنية،
لذلك أنا أرجح أنها إما ذهبت إلى أون حيث بقايا معابد أتوم أو آدم،
وإما ذهبت إلى الأشمونين حيث معابد تحوت.

سكتوا جميعا للحظات قبل أن يقول (شتيفان):

_ أنت بذلك تخالف معظم قراءات كبار الأثريين، وأن ديانة أخناتون
هي ديانة لتوحيد آلهة المصريين في عبادة قرص الشمس آتون وأن
أخناتون أول من نادى بالتوحيد الذي هو توحيد هذه الآلهة التي
تسميها وثنية في إله وثني واحد.

_ وستجد الخلاف على أشده في كثير من نقاط التاريخ المصري بل وفي
قراءة أسماء ملوكه ووزرائه وكهنته، وكل صاحب حكم إنما يحكم
مدفوعا بقناعاته وآرائه المسبقة...

ابتلع (يواكيم) ريقه ثم أكمل:

_ هل تظن أن كهنة معبد آمون بطيبة صبوا جام غضبهم على
أخناتون وأن الفرعون حور محب آخر فراعين هذه الأسرة قد طمس
في غل كل ما طالت إليه يده من آثار أخناتون بل وشوه غطاء تابوته
الخشبي فمسح اسمه من فوقه وكحت صورة وجهه، هل فعلوا كل
ذلك فقط لأنه حاول لم شمل آلهتهم المتعددة في الإله الشمس؟!!

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

رد (شتيفان):

_ أنت الآن تفعل ما تنتقد عليه غيرك، فتفسر التاريخ تبعاً لمنطلقك الديني.

_ التاريخ يصنعه البعض فيسجله البعض الآخر على طريقته ثم نقرأه نحن كلٌّ بطريقته.

وسكت لثانية ثم أردف:

_ هل لديك خطة أخرى للبحث؟

هز (شتيفان) كتفه لأعلى وقال:

_ كلا، ولكنني أخشى أن نسير في الاتجاه الخاطئ، خصوصاً أننا لو تبيننا ذلك التفسير الديني من البداية فسنظل أسراه في تفاصيل خطوات تنقيبنا.

تدخل (براندت) وقال:

_ يمكننا هنا أن نمسك العصا من منتصفها، فنأخذ بنظرية (يواكيم) الدينية كنقطة بداية ثم نسير بطريقتنا العلمية المعتادة في التفاصيل... موافقون؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هز كل من (يواكيم) و(شتيفان) رأسيهما علامة الموافقة ثم قال
(شتيفان):

_ لكننا حسب نظرية يواكيم لدينا مكانان؛ المطرية حيث معبد آتوم
والأشمونين حيث ثمة تحوت، فبأيهما نبدا؟
رد (براندت):

_ الأوقع أن نبدا بالأقرب.. الأشمونين، فالأرجح ألا تفر الملكة كل هذه
المسافة إلى معبد آتوم.
(شتيفان):

_ أو تفر حيث الأبعد حتى تكون بمنأى أكبر.

_ لكنها بذلك ستكون أبعد عن الاتصال بأخناتون.

هز (شتيفان) رأسه وقال:

_ لنبدأ إذن بالأقرب، ولنأمل أن يمنحنا جهاز قياس إشعاع الخرطوش
آية بارقة أمل في ذلك البحث الجديد.

(٩)

فوجئ (حامد) بـ (صلاح) في استقباله عند محطة قطار (ملوي)، فبرغم أنه قد أخبره أنه سيرج على متحف ملوي أولاً ليسلم أوراق توظيفه قبل مجيئه إلى الأشمونين حيث سيقطن معه في بيتهما الذي ورثاه عن جدهما، إلا أن (صلاح) فاجأه بهذا الاستقبال عند المحطة.

_ لم تكن لدي أي مشاغل اليوم فأثرت أن أصحبك في جولتك.

وبعد أن أنهى (حامد) إجراءات عمله وأخبره هناك في المتحف أن يبدأ دوامه مع بداية الأسبوع المقبل، استقلا سويا إحدى سيارات الأجرة الجماعية التي لا تنقطع بين ملوي والأشمونين، وسكتا طوال الطريق إلى الأشمونين وكأنهما اتفقا ضمناً على أن يؤجلا عتاب ما مضى حتى يأويا إلى منزلهما!

خرجت بهما السيارة إلى طريق ملوي - ديروط، وخلال ربع ساعة كانت تدور حول قرية الأشمونين، وتراءت أكوام القرية - أو كِمان كما يلفظونها في لهجتهم الصعيدية - لناظري (حامد) بعد أن غاب عن مشهدها لأكثر من عامين، هي هي الأكوام كما ألفتها عيناه منذ وعى عليها، بارتفاعاتها المختلفة عن مستوى النيل وامتداد مساحاتها المتباينة ولكن بعد أن ضربتها أيدي التحديث بفرشاة ألوانها الشاذة. وبعد أن كان الكوم الواحد قديماً تربض فوق ظهره منازل العائلة

الواحدة فيكاد يكون مقصورا على بيوتهم الطينية ويحمل تبعا لذلك اسم عائلتهم تلك؛ تغير الوضع إذ نالت منه يد التغيير فأحالت كثيرا من البيوت الطينية المناسبة لحر الصعيد إلى أخرى إسمنتية تصح أفرانا في شهور الصيف، ولم يعد معييا أن يبيع أحدهم داره لغير أبناء عائلته كما كان ذلك معييا في الماضي، فاختلطت أنساب المباني فوق الكوم الواحد.

وضغطت الحياة بتقلب أحوالها فتغير معها العقل وموروثاته القبلية، فحلت ثقافة الهجرة والسفر طلبا للرزق مكان عقيدة الالتصاق بالأرض المميزة للمصريين، وفرض الانفجار السكاني شروطه فتخلى الناس عن معاني الخصوصية وتقدير التقاليد المتوارثة، فبيعت البيوت خارج نطاق شهادة الميلاد، وتعددت الطوابق الإسمنتية التي لم تكن تزيد في سلفها الطيني عن طابقٍ أو طابقين، وبعد أن كان بناء بيتٍ جديد يقوم فوق انقاض هدم وردم البيت القديم حتى صارت أكوام القرية طبقات من شواهد التاريخ بعضها فوق بعض.. تغير ذلك؛ فلم يعد البناء الجديد يصلح إلا بنش انقاض كل قديم وحفر أساسات وصب عواميد تتحمل تعدد طوابقه، صار كل طابقٍ يرام رفعه في الجديد يستلزم حفر طبقة من طبقات التاريخ تحت أرضه.. جديدٌ يأبى الوجود إلا باستئصال جذور القديم.. شاهقٌ ربما في ارتفاعه لكنه لم يزد الماضي إلا نبشا واجتثاثا.

حتى ثقافة السكن تغيرت وأصابتها عدوى الحداثة، فزاحمت بدعة الإيجار عقيدة التملك الراسخة في قلوب أهل القرى طوال آلاف من السنين.

واحتار عقل (حامد) في تقصي بذرة تلك الثقافة الجديدة، أهو ضغط زيادة الناس أم قلة ذات اليد أم ضمور جينات الالتصاق بالأرض عبر أجيالٍ من التغريب، ذلك التآكل الذي بدأ مع الرضا بمنزل يفصل قاطنه عن الأرض عدة طوابق تحته، إلى قبول مشاركة الغريب في سكنه وصولاً إلى الانتماء للأرض بعقدٍ مؤقتٍ يمكن فصره أو إعادة تجديده انتمائه بعد انتهاء عقد الإيجار.

وكثيراً ما صادف الحفر فراغات ودهاليز بيوت قديمة احتفظت ببعض معالمها تحت طبقات ردمها، وكثيراً ما تعطلت عجلة البناء في انتظار عطية ما تجود به الأطلال من كنوز أو خبيئات أصحابها، وكثيراً ما خرجت نوادر وقصص من تحت تلك الأنقاض، وكثيراً هم من تعمدوا هدم بيوتهم بحجة تعليتها بينما صحيح مرادهم نبش تاريخها للتفتيش عن كنوزها، فلم يجد عليهم التاريخ بأيٍ من كنوزها، حتى صار معتقداً عند الناس أن الآثار رزقٌ لمصادفها لا لطالبيها.

وأبطأت السيارة وتركت طريق ديروط إلى مدخل الأشمونين، ونزل (حامد) و(صلاح) عند أقرب نقطة من المنزل الذي لم يتغير منذ بناه جدهما أو بالأحرى منذ جدد بناءه، ولم يغير الجد في تصميمه القديم

كثيرا بعد أن أعاد بناءه بالطوب الأحمر بدلا من الطوب النيئ المملس بالطين والجص.

كانت البيوت القديمة للطبقة المتوسطة والميسورة ذات تصميم واحد في أغلب الصعيد والريف المصري، وإنما تختلف مساحاتها طبقا ليسار كل صاحب دار، فكانت تبدأ بحوش مسور يفضي إلى واجهة البيت، وسور الحوش مبني أيضا من الطوب اللبن المملس بالطين ويبنى أسفله مصاطب لاستقبال الضيوف إن عجزت غرفة الضيوف الداخلية عن استيعاب أعدادهم في المناسبات الكبيرة، كما تقام في هذا الحوش الولائم والعزومات.

وبعد أن تجتاز هذا الحوش تجد واجهة الدار وقد احتوت على باين، باب جانبي صغير يفضي إلى غرفة الضيوف ويسمونها المندرة ومنه يدخل الضيوف إليها، وباب رئيسي يؤدي إلى صالة التوزيع الرئيسية في البيت، في هذه الصالة تجد بابا داخليا لمندرة الضيوف، وتتناثر في الصالة بعض كنبات الجلوس حسب مساحتها، وتنتهي الصالة بباب مقابل لباب البيت الرئيسي يفضي إلى باقي مرافق الطابق الأرضي. وراء ذلك الباب تجد صالة توزيع صغيرة للمطبخ والحمام وغرفة للسفرة وغرفة نوم أو أكثر حسب اتساع البيت وسلم يفضي إلى الطابق العلوي.

الطابق العلوي عبارة عن حمام وغرف يسمونها المقاعد متراصة على شكلٍ مربع، فهذه مقعدة الأب والأم وهذه مقعدة فلان أو فلان من الأبناء، ويحتضن مربع المقاعد هذا في وسطه منورا مفتوحا - يطلقون عليه اسم الحَصِير - تكون وظيفته إنارة الطابق الأرضي بضوء الشمس، ويكون هذا الحصير مسورا بسورٍ كافٍ في ارتفاعه كي لا يسقط الأطفال منه إلى صالة الطابق الأرضي.

وكل ما فعله الجد عندما جاء ليجدد بناء البيت المتهالك - قبل وفاته بسنواتٍ قليلة - أن اتبع الموجة في البناء بالأسمنت والطوب الأحمر اللذين يعيش بناؤهما مدة أطول وإن كانا أقل مناسبة لجو الصعيد الحار، لكن الجد حافظ على روح تصميم المكان ولم يغير فيه إلا لماما، فبقي الحوش بنفس مساحته ومصاطبه وارتفاع سوره وإن تحول إلى الطوب الأحمر، ولم يزد في طوابق البيت، وأبقى على توزيع غرف الدار ومرافقه وسقف كل طابق المرتفع إلى قرابة الأربعة أمتار، لكنه ألغى حضير الطابق العلوي فاكمل سقف الطابق الأرضي، وزود البيت بسطوح فوق الطابق العلوي، وعمد الجد إلى توسيع بحر السلم المؤدي إلى الطابق العلوي والسطوح الجديد فزادت مساحة بئر ذلك السلم إلى ما يشبه القبو والذي استغله الجد كخرفة للخزين.

وذلك القبو بالإضافة إلى موقع الدار الذي يقع قرب أطراف القرية عند تخوم مدينة (خمنو) أو (شمنو) الفرعونية القديمة كانا سبب نقطة الجفاء بين ابني العم!

لقد فوجئ (حامد) بأن (صلاح) قد حاول التنقيب في قبو البيت بحثاً عن الآثار في باطن أرضه والتي رجح له عقله وزين له من وسوسوا من أصدقائه أن خبيثة نفيسة تبيت بالتأكيد في أحضان تلك الأرض التي تعددت طبقات الحضارات أسفل منها.

وفي السر وبعيدا عن معرفة أي أحد من عائلتهم هناك جاء (صلاح) بمن يسميه شيخا وبمن يساعده في نقيب الأرض، ولم ينكشف الأمر إلا بعد أن خرج خاسرا ما يقول إنه تحويشة عمره التي أنفقها على ذلك التنقيب، ولم تمنحه الأرض في المقابل إلا أكواما من التراب وأنقاض مقبرة وجدوها منبوشة من قبل ولم يترك فيها نابشها إلا بعض حطام من الفُخَّار المنتشر بكثرة في آثار الأشمونين والذي يسمونه بالفقش.

وكاد (صلاح) أن يصاب بالجلطة عند رؤية المقبرة الفارغة، ولكنه إنسان محب للندى، ومنذ صباه وهو يلاطم موجاتها بمركب شقاواته - الذي لم تكن الآثار أول رحلاتها - فلم تزدده ملامتها إلا تعلقا بها.. حلوها ومرها، فاستوعب صدمته، واستودع شقى عمره، وقام ليبدأ من جديد.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وغضب منه (حامد) وقتها مرتين، واعتبره خائناً خيانتين؛ خيانة القرباة إذ طمع في الخبيثة لنفسه وخيانة الوطن إذ كان ينتوي بيع ما يجده من تاريخ بلاده.

_ ولأنني كنت أعلم موقفك يا (حامد) من النقب عن الآثار لم أخبرك، لكني أقسم بري أنني كنت سأقتسم معك حصيلة كل شيء كنت سأجده.

_ ومن قال لك بأنني كنت سأقبل ذلك؟

_ منظر حقيبة مملأ بالنقود هو أقوى ألوان السحر.

_ نقود الدنيا لا تشتري الضمير، والمال الحرام كالماء المالح لا يروي أبداً.

_ ومن قال لك إنه حرام؟ العلّامة الشيخ (شعبان) قال إن كانت الآثار في أرضٍ ملكك فهي رزقٌ ساقه الله إليك ليس لأحدٍ أن ينازعك فيه.

_ وأنا لا أستمع إلا لشيوخ دار الإفتاء، بل إن الشيخ شعبان نفسه عندما ووجه بفتواه تلك لما ثارت عليها الثائرة عاد فأنكر أن يكون قد أفتاها، وتعلل بما سماه سوء فهم الناس لكلامه.

_ شيوخ الإفتاء لا يقدرّون على تحليل ما تجرمه الدولة وإن كان حلالا، وكما قلتَ أنت؛ فالشيخ شعبان تراجع بسبب العاصفة التي هبت في وجهه.

_ أفيق يا (صلاح)؛ آثارنا؛ ثروتنا؛ تاريخنا... ينهبون بانتظام، هناك في متاحف العالم بل في أقبية قصور الأثرياء من آثار الفراعنة ما لا تملك مثله هنا في مصر، حتى الهرم الذي لم يقدرّوا على حمله خارج البلاد يريدون السطو على تاريخه فيدعون أننا لسنا بُناتة.

_ بل أفق أنت يا (حامد) من مثاليات كتب الجامعة واسمع حقيقة هذه الدنيا التي ستصدمك بعد أن تخرج إليها كما صدمتني أنا قبلك بسبع سنين، المثاليات لا تطعم خبزا ولا تفتح دارا، نصف من يجرمون تجارة الآثار متورطون فيها، أغلب من يعملون على صرف الرصد الحارس للمقابر هم شيوخ وقساوسة، معظم آثارنا في الخارج خرجت برعاية حكام المحروسة، الهرم الذي يُقلق نسبه منامك كاد الوالي محمد علي أن يهدمه ليستعمل أحجاره في بناء قنطره الخيرية، هناك من الرؤساء من أهدى للخارج قطعا أثرية نادرة بل منهم من أهدى معابد بأكملها لأمريكا وأسبانيا وهولندا!، بل اذهب واسأل أساتذتك في الجامعة عن القطع المزورة في بعض متاحفنا والتي يعلم الجميع أنها استبدلت بليل.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ حتى بفرض صحة ما تقول فالضمير ضميرك وحدك وستحاسب يوم القيامة بمفردك.

نفخ (صلاح) وهز رأسه في أسف وقال:

_ على كلٍ فليهنأ ضميرك وليرتح بالك، فلم تكافئني الأرض إلا بأكل مالي.

_ ما يأتي حراما يذهب هباء يا ابن عمي.

فاحمر وجه (صلاح) من تعريض ابن عمه وقال:

_ لا دخل لك بشئوني بعد اليوم.

وكانت هذه هي آخر جملة بين ابني العم من قرابة العام، والذي كان مروره كفيلا بمداواة بعض الشرخ فيما بينهما، خصوصا أن ظروف العمل قد قذفت (بحامد) من القاهرة ليشاطر ابن عمه العيش في نفس الدار التي كانت مثار الجفوة بينهما، ولأن الحياة يجب أن تستمر فقد كسر (صلاح) حاجز التوتر وقال بعد أن دلفا داخل الدار:

_ مرحبا بك في دارك يا ابن عمي... ما فات قد مات، أليس كذلك؟

ابتسم (حامد) وقال:

_ الحمد لله أن ذلك قد حدث قبل انتقالي للحياة هنا.

ثم ضحك وأردف قائلاً:

_ والحمد له أيضا أنك لم تجد شيئاً حتى نغلق هذه الصفحة.

ضحك (صلاح) ثم قال في أسي:

_ أغلقت الصفحة وطوت معها أحلام الثراء وابتلعت معها ما حصلته من حطام الدنيا.

_ وماذا أنت صانعٌ في حياتك يا ابن عمي؟ لماذا لا تعمل بشهادتك الجامعية.

ابتسم (صلاح) في مرارة وقال:

_ هنا في قرى الصعيد قليلاً ما يلجأون لمحمي! وجامعاتنا تُخرِّج كل عام عشرة أضعاف ما يحتاجه سوق القانون في مصر.

سكتا سوياً قبل أن يكمل (صلاح):

_ لا تحمل همي، فابن عمك مشاغب من يومه، والدنيا مليئة بالخبطات والفرص التي تأتيك في أسبوع واحد بقوت عدة أعوام.

_ وقد تأخذ منك خبطة أخرى قوت أعوامك تلك، أنت بذلك لن تستقر ولن تتزوج و...

قاطعته (صلاح):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أنا أتزوج؟! أنا طيرٌ طليقٌ في سماوات لا أرض تحتها.

_ لن تتزوج؟ ألا تدري معنى ذلك هنا أيها الصعيدي؟

ضحكا سويا ثم أردف (صلاح):

_ ربما إن أحياني الله لسن الأربعين وأكون قد شبعت من التحليق

فسأبحث يومها عن عشٍ آوي إليه.

ثم ارتعش جسده فقال له (حامد):

_ ما بك؟

_ مجرد الكلام عن الزواج وعشه أصابني بالقشعريرة.

(١٠)

خرجت (أودريه) من البحر أخيراً، ورفعت نظارتها البحرية عن
عينها وخلعت زعانفها وسارت نحو المظلة التي يجلس تحتها
(يوجيه) مستغرقاً في قراءة كتابٍ بين يديه بينما هي لم تفق من آثار
سحر الأعماق بعد.

لم يشعر (يوجيه) بقدمها إلا وهي تتناول منشفتها وتجفف جسدها
فرفع عينيه لها وقال:

_ ثلاث ساعات من العوم السطحي يا أودريه؟

أجابته وهي تتمدد على أريكة البحر بجوار أريكته وتعيد دهان
بشرتها بواقي الشمس:

_ ولولا أشعة الشمس ألهبت ظهري - برغم ما عليه من طبقات
الدهان الواقية - ما أفقت من غيبوبة ذاك السحر المذاب في ذلك
الخليج.

_ حسنٌ أننا اخترنا قضاء إجازتنا هنا في مصر، أوروبا لا زال البرد يجمد
أوصالها برغم انقضاء شهور الشتاء.

_ والأجمل أننا اخترنا شواطئ (نوبيع) التي لا تزال بكرا ولا يكاد يأتيها إلا صفوة عشاق فتنة الشعب المرجانية وأسماكها الأخاذة بلوحات ألوانها الفاتنة.

_ بمناسبة (نوبيع) وشاطئها، هل تعلمين أن الشعاب المرجانية هنا تكسر تجانس سلاسل الشعاب في طول شواطئ سيناء؟ فمن المعروف أن الشعاب المرجانية لا تنمو إلا فوق مستضيف لها مثل صخرة أو أجزاء سفينة غارقة، وبالدراسة وجدت الشعاب هنا تنمو على أجزاء من قطع خشبية مستديرة وأجزاء معدنية من نحاس وبرونز بعضها قائم الزاوية، البعض لا يجد لها تفسيراً إلا أنها حطام مركبات جند فرعون التي طمرها البحر وهي تلاحق النبي موسى وقومه.

ابتسمت (أودريه) وقالت في شرود:

_ حتى في عطلاتنا تلاحقنا الآثار وقصص التاريخ.

_ بل نحن من تجري مهنتنا في دمائنا ولا نمارسها فقط طلباً للرزق.

_ بل نحن من صرنا عشاقاً لهذه البقعة من الأرض التي حبتها الطبيعة بكل ألوان الفتنة وتصانيف السحر؛ فوق الأرض وتحتها.. على شواطئ البحار وفي أعماقها.. بل حتى في نيلها وامتداد صحراواتها.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ضحك (يوجيه) وقال:

_ لكن الطبيعة حرمت أهل هذه البقعة نعمة الاستفادة منها.

بادلته الضحك وقالت:

_ وهذا من حظنا نحن وإلا لما كان لنا هنا من داعٍ.

وقطع عليهما (سكوت) ضحكاتهما وقال وهو يسحب أريكة ليجلس عليها أمامهما:

_ يومٌ ما سأضبطكما متلبسين في أوضاعٍ حارة.. أنتما تتعاملان كالإخوة ولا أصدق أنكما فرنسيان.

ضحكا وقال (يوجيه):

_ لعل المشكلة في أنا.

ابتسم (سكوت) وقال:

_ نزواتك التي رأيتها بعيني في بارات القاهرة ولندن تشهد لك بالعكس.

قالت (أودريه) (لسكوت) وهي تغمز في لؤم:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ يبدو أنك لم تفلح في صيد تلك الفتاة الإيطالية فجئت لتفرغ غيظك فينا.

ضحكوا جميعا وقال (سكوت):

_ بل جئت لأبشركم بقرب خروجنا من هذه الجنة.

اعتدلا جالسين ونظرا له في تساؤل فلوح لهما (سكوت) بورقة كانت في يده وقال:

_ وصلتني للتو.

ثم ناولها لـ(يوجيه) ليقرأها واستطرد قائلاً:

_ المنظمة توافق تماما على فكرة المفتاح المنفصل عن القفل، والشاب المجنون والذي لا يحبه (يوجيه) ولا يحب نظرياته قد مضى في نظرية طاقات الأماكن إلى خطوات أبعد، لقد توصل إلى أنه يمكن تصوير طاقات الأماكن الأثرية بالأقمار الصناعية فتعطينا ألوانا مختلفة في الصور؛ كل مكان حسب طاقته يعطي لونا، ولقد جربوها على الأهرامات وما حولها، وبالفعل أعطى الهرم الأكبر والسرايب التي وصلنا إليها لونا مختلفا عن حولهم.

سكت للحظات رشف خلالها رشفات من كوب عصير ثم أكمل:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ثم قارنوا صورته بصور المناطق الأثرية الأخرى فوجدوها بالفعل تعطي ألوانا مختلفة، ومنها ما يعطي نفس ألوان الهرم وحجراته.

قال (يوجيه) بعد أن مرّ بعينه على سطور الورقة في عجالة:

_ أفهم من ذلك أنهم سيوجهونا إلى أماكن التنقيب بناء على تحليل ألوان صور الأقمار الصناعية تلك؟

_ مبدئياً سترجح الصور أماكن التنقيب التي سيكون علينا أن نبدأ بها، وهناك سنزرع نحن أجهزة تقوية وتركيز لإشارات القمر الصناعي فتصير الصور أوضح ويكون البحث أسهل.

زَمَّ (يوجيه) شفّتيه وسأل:

_ ولن نستغني بالطبع عن تصوير طبقات التربة وفراغاتها.

_ بالطبع لن نستغني، ولكني سأحتاج لإحدى شفرات حجرات الهرم كي تحلق لحيتك بها إن نجحت الفكرة.

ضحكوا ثلاثتهم ثم قال (يوجيه):

_ بل أنا على استعداد وقتها لحلاقة شعر رأسي هذا.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قالها وهو يطوح شعره الناعم في الهواء بهزة سريعة لرأسه، فصاح
كلّ من (سكوت) و(أودريه) إعجاباً:

_ أوووووه

(١١)

التقى (صلاح) مع (الملواني) في مكانهما المعتاد للقاء وأردفه خلفه على دراجته النارية ثم قفل عائداً إلى الأشمونين.

_ ياه يا (صلاح)... لكم أوحشتني مغامراتنا هذه، فالرزق شحيح هذه الأيام ومنذ آخر طلعة لنا في تونا الجبل لم أعمل في سوى أعمال تافهة من أحجبة وعكوسات.. ملايم والله يا (صلاح).

ردّ عليه بصوت يملؤه التفاؤل:

_ ومغامرة اليوم صفقة من العيار الثقيل.

_ ضحية جديد مترف الثراء؟

_ بل عملية تنقيب حقيقية، وفي زريبة أحد وجهاء القرية.

_ في كل مرة تدعي فيها أنها عملية تنقيب حقيقية لا نجد سوى كسر الفخار... هل نسيت خبيثتك؟

_ هذه المرة تختلف، الخبيثة تعلن عن نفسها.

_ وكيف عرفت؟

_ الحاج (خلف) صاحب الزربية يرى والده في المنام وهو يناوله القفة التي يستخدمونها لجمع فضلات الزربية، وعندما ينظر (خلف) بداخلها يجدها مليئة بالسمك، الرؤيا واضحة فعطية الميت والسمك في المنام كلُّ منهما علامة على الرزق، كما أن أصحاب الدار أحيانا يخال لهم رؤية شرارات نار تنبعث من أرض الزربية.

_ عسى ألا تكون أضغاث أحلام وحديث نفسٍ بالثراء من صاحب الزربية.

ووصلا إلى البيت المراد، واصطحبهما الحاج (خلف) إلى حيث الزربية التي فوجئا بأنها لا تحوي أية بهائم ولا تدل رائحتها على وجودهم من فترة بعيدة، وكأنما فهم (خلف) ذلك من وجهيهما فقال:

_ لقد توقفنا عن تربية المواشي منذ زمن لكننا تركنا الدار بغير تغيير فيها.

جلس (صلاح) و(الملواني) و(خلف) وولداه على الحصيرتين اللتين فرشتا بشكل زاوية قائمة على أرض الزربية، وأخرج (الملواني) أدواته ووضعهما على تراب الزربية أمامه، وصنع كومة صغيرة من هذا التراب ثم أخرج دميته التي من ورق الزبدة والمليئة بالنقوش الحمراء ثم قال (لخلف):

_ هل أحضرت بخور الطقش؟

أخرج (خلف) لفافة صغيرة وناولها له وهو يقول:

_ البركة في (صلاح) هو من عثر عليها لنا.

تناولها (الملواني) بغير تعليق ثم شرع في طقوسه وتمتماته المعتادة حتى بدأت الدمية بالوقوف والتحرك ودارت عدة دورات ثم سقطت على كومة التراب بغير حراك، لحظات وسكت (الملواني) وقد بدا على وجهه الوجوم!

نظر له الجميع في تساؤل وهز (صلاح) رأسه علامة الاستفهام، فأشار (الملواني) بيده ألا يقلقوا.

انتحى (الملواني) (بصلاح) خارج الزريبة وهمس له:

_ الموضوع أكبر مما نتخيل، هناك خبيثة فعلا في أرض الزريبة بل قل إنها خبيثة استثنائية.

نظر له (صلاح) في دهشة وقال:

_ وكيف عرفت؟

_ كوننا نصب على بعض المغفلين طوال الفترة الماضية فهذا لا يعني أنني نسيت أصول مهنتي، هذه خبيثة ملكية وحارسها جنٌ سفليٌ مرصود لحمايتها بعهود متوارثة من أجداده تعهدوها للسحار

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

الفرعوني العليم الذي رصد هذه الذرية من المردة للحراسة منذ دفن الخبيثة.

زادت دهشة (صلاح) وقال:

_ ما هذا الذي تقوله؟

_ هذا ما أخبرني به القرين الذي أستعين به وأستحضره في تلك الدمية الورقية وأسميه أمامكم بالملك الأحمر، همس القرين بذلك في أذني مذعورا ثم انصرف.

هزّ (صلاح) رأسه علامة الفهم وقال:

_ ولذلك سقطت الدمية على التراب.

ثم استدرك متسائلا:

_ لكن لماذا انصرف مذعورا؟

_ أقول لك إن الرصد جن سفلي، هؤلاء يكونون في غاية الشراسة ويهابهم جدا الجن العلوي، بالضبط مثل الفرق بين ققط المنزل والققط البرية.

_ أَلست ساحرا؟ فلتتعامل مع ذلك الجن البري أقصد السفلي، أم أنك تريد ضياع هذه الفرصة منا؟ أنت تقول إنها خبيثة ملكية، يعني سنسافر خارج دائرة الفقر إلى غير رجعة.

_ أنا ساحر محدود القدر وإلا لما لجأت لعمليات النصب والتمثيل معك، والجن السفلي هذا لا ينصرف إلا على يد ساحرٍ راسخ في سحره أو بتنفيذ طلباته التي لا أقدر حتى أن أقولها للحاج (خلف).

_ أي طلبات تلك؟

_ الجن السفلي يطلب عادة طلبات تثبت الخضوع التام له ممن يريد صرفه والتي تؤكد استعداداه لفعل أي شيء من أجل نيل رضاه، كأن يطلب ذبح طفل صغير قربانا له أو يطلب مضاجعة إحدى حريم أصحاب البيت وهو متلبس في جسم الساحر، أو يطلب من صاحب البيت أن يتبول على كتابه المقدس أيا كانت ديانته.

_ إذن فهذه القصص التي نسمعها ليست مجرد خرافات!

_ بل هي حقيقة وهناك من يقبل فعل ذلك، ولكن هؤلاء وضاع الناس ممن نهش الفقر والجهل كل كرامة ودين عندهم، لكن تخيل لو طلبنا من الحاج (خلف) مثل هذه الطلبات؟

_ لن نخرج من البيت إلا على ظهورنا... أليس من حلٍ آخر؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ كما قلت لك، لا بد من ساحرٍ راسخٍ يحمل عهداً سليمانياً أو يمتلك بخورَ طقشٍ مغربي أو زنبقا أحمر حقيقيين، أو أن يكون شيخاً حقيقياً له كرامته عند ربه فيصرف الرصد بالقرآن... وأنا كما تعلم لست أيا من هؤلاء.

_ سيضيع علينا نصيبنا من هذه الصفقة الدسمة.. لنسح لشراء بخور طقش حقيقي، أيا كان ثمنه فلن يتأخر الحاج (خلف).

_ الساحر الحقيقي لا يبيع هذا البخور بل يدخل شريكاً ببخوره ويعلمه.

صمت (صلاح) في وجوم ثم قال بعد تفكير:

_ أتدري؟ لا حل إلا أن نخبر الحاج (خلف) بهذا الكلام، وسنطلب منه نفحة صدقنا معه وتوجيهه لما يجب عليه صنعه!

_ صدقني يا حاج (خلف) لن تجد من يدفع لك أكثر مما أعرضه عليك.

_ سيادتكم كيف عرفت بأمر هذا التمثال؟

_ لا شيء يخفى علينا في هذا البلد يا حاج، نحن نعرف بأمر التمثال من يوم أن أتيت بالساحر العراقي إلى مصر.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ وبالتأكيد سيادتكم تعلمون أن نسخة فريدة لتمثالٍ من الذهب لرمسيس الأول، هذه بالتأكيد تساوي أكثر بكثير من ١٤ مليون دولار.

_ بالتأكيد.. لكن هل كل من وجد شيئاً في أرضه صارت ملكاً خالصاً له؟ أين حق البلد إذن؟!

_ هناك من يعرض علي أكثر من ذلك يا (فاروق) باشا.

_ (منصور) لن يتصل بك مرة أخرى! أنت تنتظر اتصاله منذ أسبوع وأنا أمرته أن يبتعد عن هذا الأمر تماماً.

تفاجأ (خلف) بكلام (فاروق) فابتلع ريقه ثم قال في توجس:

_ لكن يصعب أن أفرط في التمثال بهذا الثمن، أنا لم أجد غيره في الخبيثة.

_ آخر كلام يا حاج، سنزيدك المليون جنية الذين تكلفتهم في دعوة الشيخ العراقي، أليس هذا بالضبط المبلغ الذي دفعته؟

نظر له (خلف) في دهشة ولم يرد فأكمل الرجل:

_ لا تكن طماعاً وأنت تعلم أن التمثال سيمر بعشرين محطة قبل محطته الأخيرة.

_ لكن ما زال المبلغ...

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قاطعہ (فاروق) وقال بحزم وهو ينظر إليه من فوق إطار نظارته:

_ تأخذ ما أعرضه عليك؟ أم نأخذ التمثال بطريقتنا؟

أطرق (خلف) يفكر ثم تجرع ارتبأكه بكوبٍ من الماء كان أمامه ثم
قال بعد دقيقة:

_ أريد نقودا سائلة.

_ هل تخاف أن يسألك أحدٌ من أين لك بهذا الرصيد في البنك؟ ولكن
كما تريد؛ بعد ثلاثة أيام سيأتيك المبلغ في سيارة مصفحة، تعد نقودك
وتسلم عهدتك!

(١٢)

عاد (حامد) من عمله يجر خطواته ووجهه يحمل أوزارا من الهموم،
نظر (صلاح) في وجهه باستغراب ثم قال وهو يكمل رصّ أطباق
الغداء لهما على مائدة السفرة:

_ مالي أراك تحمل وجه رجلٍ عجوز؟

رمى (حامد) نفسه على أقرب كرسي من قدميه وقال:

_ هل تصدق؟ لوحظ اختفاء قطع أثرية من سجل مخزن الآثار
بالأشمونين، وتم وضع قطع أخرى مهشمة بديلة عنها، وعند اكتشاف
ذلك تم تشكيل لجنة للجرد لكن الكثيرين يرفضون الاشتراك فيها
لعلمهم بوجود قطع أخرى غير أصلية، ولا أحد يريد التورط فيما لا
تؤمن عواقبه.

_ قلت لك من قبل فلم تصدقني.

_ إنني أكاد أختنق وأحس بالعجز عن صنع أي شيء.

قال وهو يشير بكف يده يدعوه بها لبدء تناول الطعام:

_ عندي لك خبرٌ سينسيك الدنيا وما فيها.

_ ماذا؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ البعثة الألمانية التي تنقب في أطراف قرينتنا، يريدون وضع جهاز استشعار في قبو بيتنا.

توقف (حامد) قبل أن يجلس إلى مائدة الطعام وسأله:

_ بمعنى؟

_ بعثات الآثار تستخدم أحدث ما وصل إليه العلم، جهاز الاستشعار هذا بقدر فهمي سيقوم بجس أرض بيتنا والتربة التي تحته، هم يعتقدون بقوة أنه توجد فراغات وممرات تحت بيتنا ويظنون أنهم قد يجدون بغيتهم تحته.

_ بالفعل، إذ توجد تلك المقبرة الخاوية التي وجدتها أنت من قبل، فلماذا لم تخبرهم بذلك؟

أجابه وهو يشير له بيده طالبا منه الجلوس:

_ لأنهم سيدفعون لنا مبلغا محترما مقابل تثبيت الجهاز، فهل تريد أن أقول لهم شكرا؟

_ تريد أن تنصب عليهم إذن؟

_ أين النصب في ذلك؟ هل تعلم أنهم لو قرروا الحفر أسفل بيتنا فسيدفعون لنا أضعاف مبلغ تثبيت الجهاز؟

جلس (حامد) وقال:

_ بالطبع لأنهم بالتأكيد سيحفرون بدون إذن إدارة الآثار.

_ أنت لا تريد أن تفيق من مثالياتك، انظر إلى متحفك الذي تعمل فيه يا (حامد) حتى تفهم كيف تسير الدنيا، ثم أنت تعلم أنهم لن يجدوا شيئاً ذا قيمة، ما الضرر في أن يدفعوا ضريبة طمعهم في السطو على آثارنا؟

وقف (حامد) ثانية وهو يقول:

_ (صلاح) أنا لن أسمح...

قاطعه (صلاح) وهو يمسك بيده ويشدها للأسفل كي يجلس إلى الطعام:

_ فرصة لك كي تتعلم أصول التنقيب والحفر على أيدي الخوارج.

سكت (حامد) وجلس بتلقائية وهو يفكر في كلام (صلاح) الذي التقط إشارة سكوته فقرر الضرب على المعدن وهو ساخن لين، وأخذ يزين له الفكرة من كل الزوايا المالية والعلمية بل والدينية، لكن (حامد) كان قد بيّث شيئاً آخر؛ فما المانع فعلاً من مجاراتهم للتعلم منهم وجني بعض المال الشحيح في يده بسبب ضعف الراتب وهزاله،

وهم غالبا لن يجدوا شيئا، فإن عثروا على شيء فهي فرصة له للانتقام من كل البعثات التي سبق لها السطو على آثار بلاده!

وجاء (شتيفان) في اليوم التالي، وأدهش ابني العم أنه يجيد اللغة العربية بل وبعض المفردات الصعيدية برغم صغر سنه الذي لا يوحي أبدا بأنه قد عاش في بلاد الصعيد قرابة الخمسة أعوام ينقب في أراضيها.

وبعد أن أصرا عليه بشرب الشاي أولا جلسوا لتناوله صامتين في صالة البيت الخارجية، ثم اقتاداه إلى الصالة الداخلية ومنها نزلوا إلى قبو الدار، وفتح (شتيفان) حقيبته السوداء وأخرج بعض الأجزاء والقطع الإلكترونية وأخذ في تجميعها حتى أصبحت بحجم كف اليد، ثم قام بتثبيتها في أرضية القبو وقال مبتسما:

_ يجب ألا تقتربا من الجهاز وإشعاعه حتى لا تصابا ببعض الضرر.

قالها وهو يهرش ضاحكا بين فخذه فضحكا معه وقال (صلاح):

_ هذا سيكلفكم بعض التعويضات أيضا.

رد عليه (شتيفان):

_ أعلم أن مثل هذه الخسائر لا تعوض هنا عند أهل الصعيد.

ضحكوا جميعا من خفة ظل (شتيفان) ثم قال (حامد):

_ وكيف يعمل هذا الجهاز.

_ يعمل على بث موجات استكشاف صوتية في تربة بيتكم فتعمل الموجات على جسّ باطن الأرض تحتكم، ثم يتم تحليل كل الصور والبيانات ومعرفة طبيعة التربة تحتكم وما فيها من فراغات وطبقات وأنواع صخور الخ الخ.

وبالطبع تجنب (شتيفان) أن يشرح لهما حقيقة الخرطوش الملكي الأحمر وإشعاعه الذي يترصده الجهاز حتى لا يفصح عن سر جهازه وحتى لا يصدعاه بالأسئلة عما يسمونه بالزئبق الأحمر.

هزا رأسيهما فهما لهذا الشرح الذي تعمد (شتيفان) أن يكون مفهوما ومقتضبا، ثم قال (شتيفان):

_ أحبذ ألا يعرف أحدٌ بأمر هذا الجهاز، فبرغم أنه جهاز منتشر في كثير من مناطق البحث في دول العالم الآن إلا أن بعض سلطات دول العالم الثالث لديها رهابات من أي تكنولوجيا حديثة.

هزا رأسيهما من جديد قبل أن يستأذن (شتيفان) واعدإياهما باتصال قريب.

_ يا وجه السعد!

هكذا فاجأ (صلاح) (حامد) وهو يدخل عائدا من عمله في اليوم التالي
ثم أكمل:

_ كما يقول المثل؛ الطفيلي عندما يسعد يرزق بعشائين في ليلة
واحدة.

_ ماذا تقصد؟

_ البعثة الفرنسية التي تنقب هي الأخرى عن الآثار تريد تركيب
جهازٍ مماثل لذلك الألماني ولكن فوق سطح البيت.

_ اللعبة ستتسع منا يا (صلاح)، ماذا لو قررت البعثتان الحفر عندنا؟

_ من يدفع أكثر فليتفضل بالحفر على الرحب والسعة.

_ رائحتنا ستملاً الأشمونين كلها، وماذا لو درت البعثتان بأننا نلعب
على الحبلين.

_ من لديه شيء ضدنا فليفعله، ولا تقلق من الروائح فنصف بيوت
الصعيد تفوح برائحة ركام الحفر ونبش القبور.

وجاءت (أودريه) هذه المرة وهمس (صلاح) لابن عمه؛ لقد بدأت
أميل للبعثة الفرنسية، ولم يرفع عينيه من عليها وهي تشرع في

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

تركيب الجهاز فوق طبق استقبال القنوات الفضائية المثبت فوق سطوح دارهم، حتى لكزه ابن عمه بمرفقه فابتسمت (أودريه) وقالت بكلامٍ يجمع بين الإنجليزية والعربية:

_ لقد انتهيت، لكن للأسف ستستغنيان عن مشاهدة الفضائيات هذه الليلة.

رد (صلاح) بأنعم نبرة صوتٍ عنده وعينه تكاد تنغلقان وهو يسبها:
_ ألف ليلة وليلة إذا شئت.

ضحكت (أودريه) وقالت:

_ بل هي ليلة أو ليلتين بالأكثر، وأرجو ألا تمسا الجهاز حتى نأتيكما مساء الغد.

رد (صلاح) وهو يواصل النظر في عينيها:

_ أليس الغد بقريب!

فوجئ (حامد) و(صلاح) في مساء اليوم التالي بزيارة مشتركة من أعضاء البعثتين، ورحب (حامد) بالضيوف الأربعة براندت وشتيفان

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ويوجهه وأودريه في تلعثم، ثم اقتادهم إلى غرفة المندررة وهرع إلى (صلاح) ليخبره وهو يقول:

_ ماذا سنصنع الآن؟

_ دعني أنا أتحدث معهم، وإياك أن يبدو عليك الارتباك.

دخل (صلاح) عليهم مرحبا وهو يرفع صوته بالسلامات بما أسعفته لغته الإنجليزية ويملاً وجهه بالابتسام، ثم قال:

_ هل تعرفون بعضكم بعضا؟ لماذا لم تأتوا سويا من البداية؟

قال له (يوجهه) بنبرة غضب هادئة:

_ لماذا لم تخبرنا سيد (صلاح) بأن البعثة الألمانية تركب جهازا في قبو بيتكم؟

_ ولماذا أخبركم؟ هل تعملون ضد بعضكم البعض؟ كما أن أحدا منكم لم يسألني إن كنت أتعاون مع البعثة الأخرى أم لا.

نظر الضيوف لبعضهم البعض، ثم قال (براندت):

_ واضح أنك تحب المكسب يا (صلاح).

_ جميعنا نحب المكسب وإلا لما كنا مجتمعين هنا، وجلي أيضا أن أجهزكم قد أجمعت على وجود ما يستحق الاهتمام عندنا.

رد (براندت):

_ أنت ذكي يا (صلاح) وطماع في ذات الوقت، لكن يبدو أن طمعك قد نجح في توحيد جهود البعثتين.

تكلم (حامد) للمرة الأولى:

_ أفهم من ذلك أنكم تبحثون عن شيء واحد؟

تكلم (شتيفان):

_ نعرف أنك مرمم آثار في متحف ملوي يا (حامد)، ولهذا نحتاج لوضع بعض النقاط فوق بعض الحروف.

ودار الحوار بينهم لساعتين تقريبا، وانتهى بأن البعثتين ستقومان بالتنقيب سويا كما اتفقا مع بعضهما البعض، وسيتم الحفر تحت إشراف (يوجيه) و(براندت)، وأيا ما يكون الخارج من هذه الأرض فهو سر بين الجميع، وسيحصل ابنا العم على نصيبهما نقدا يحدد حسب ما ستلغظه الأرض من خباياها والتي ستكون من نصيب وتصرف البعثتين يقتسمانها كيفما يتفقان، وبدا واضحا أن الأجانب لن يعترضوا على أي مبلغ يمليه طمع (صلاح) عليهم، وهذا ما أكد (حامد) أن ما يبحث عنه هؤلاء يفوق بكثير تلك المقبرة التي يظن (صلاح) أنه يخدعهم بها..

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ تبقى مشكلة من يقوم بأعمال الحفر، هل لديكما من تثقان بمهارته
وكتمانه؟

هكذا قال (يوجيه)، فرد عليه (صلاح) من فوره:

_ نعم لدينا، الأخوان (فانوس) و(بيشوي)، جيراننا وأصدقاء طفولة
وموضع ثقة كبيرة.

_ جيرانكم فحسب؟ أم لهما أيضا من الخبرة في أعمال الحفر؟

_ والدهما المقدس (دميان) كان أسطى تنقيب آثار أفنى نصف عمره
مع بعثات الخوارج، وهما ورثا منه المهنة لكنهما هذه الأيام يعملان
بلدي.

_ بلدي؟

_ أقصد الحفر أسفل البيوت.

_ ومتأكد أنهما موضع ثقة لكما؟

فطن (صلاح) لما يقصد فقال:

_ كأنهما أبناء عمي، لكن هل سيكفيان وحدهما لأعمال الحفر؟

رد (براندت):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ السرية عندنا أهم من الوقت، ولدينا أحدث أجهزة تنقيب يمكنك تخيلها، هذا بخلاف أن جميع من هاهنا لديهم خبرات في أعمال التنقيب ولن يتأخر أحدٌ عن مد يد العون إن احتاج ابنا المقدس.

وأمن (يوجيه) على كلامه وقال:

_ ويجب أن يعرفا أنهما لن يشهدا فتح الخبيثة أو المقبرة.

رد (صلاح):

_ المهم أن تحسنوا شراء رضاهما.

ووافق الأجنب على أن يشارك (حامد) في كل خطوات التنقيب بدافع التعلم والفضول، لكنه زاد قائلاً:

_ لدي طلب آخر.

_ ما هو؟

_ لي صديقة أمريكية تعد رسالة دكتوراة في جامعة القاهرة عن الآثار وأريد أن تشاركنا أعمالنا.

رد عليه (صلاح) بدهشة:

_ أي صديقة؟ لم تخبرني عنها من قبل، وهل هذا وقت العواطف أو مجاملات الأصدقاء؟

رد (حامد):

_ وما يضيرك أن زاد الأجانب واحدة في باطن أرضنا؟

وأشار بيده للضيوف وهو يقول:

_ أنت لم تستشرني من البداية عندما إتفقت معهم على تركيب
أجهزتهم.

فرد عليه (يوجيه):

_ المشكلة ليست عند ابن عمك، المشكلة لدينا نحن، نحن بالكاد
اتفقنا مع بعضنا واستعملنا أكبر قدر من البراجماتية في شخصياتنا،
فماذا يدفعنا لقبول وجود هذه الأمريكية صديقتك؟

_ لأنني أريد ذلك، ولأنني أثق في كتمانها للسر لأنها فرصة لا تعوض
بالنسبة لها.

_ وماذا ستحصل أنت منها في مقابل ذلك؟

_ اعتبره تعاوناً علمياً فيما بيني وبينها.

وأطرق (صلاح) مدهوشاً يفكر، إن ابن عمه يعلم أنهم لن يجدوا
سوى تلك المقبرة الخاوية التي سبق له خسارة ماله في التنقيب عنها،

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

فما ظن (حامد) بأن صديقته الأمريكية ستستفيده من إعادة الحفر عنها؟ ثم استدرك وقال:

_ وأين ستقيم صديقتك تلك يا (حامد)؟

_ كما تقيم (أودريه) في استراحة بعثتها.

وقبل أن تحتج (أودريه) أكمل (حامد):

_ هي تستطيع استئجار استراحة متنقلة تضعها بالقرب من أي من استراحات البعثتين أو تستأجر شقة في ملوي أو المانيا، هي ستتدبر أمرها فلقد قضت نصف عمرها في السفر والترحال.

_ ما اسمها صديقتك؟ ... سألت (أودريه).

_ دكتورة (ليندسي).

ردت (أودريه):

_ قابلتها مرة في مكتبة جامعة القاهرة.

ثم هزت رأسها بالموافقة وهي تقول:

_ هي بالفعل تدرس هنا الدكتوراة فحسب، لا بأس بالنسبة لي وإن كنت لا أرى أية فائدة من وجودها.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وبعد انصراف الأجانب شد (صلاح) (حامد) من ذراعه وهو يقول:

_ أريد أن أفهم، أنا وأنت نعرف أنهم لن يعثروا إلا على تلك المقبرة الخاوية، فماذا تريد من وجود صديقتك تلك؟ أم أنك تموه عليهم؟

_ هل تظن أن هاتين البعثتين المتنافستين ستضطران للتعاون معا بسبب صور مقبرة خاوية؟ لا بد أن أجهزتهم قد أجمعت على وجود ما يضطرهم للمشاركة سويا ولقبول شروطنا.

_ وما فائدة وجود صاحبتك هذه لنا نحن يا قيس؟

_ لا أنا قيس ولا هي ليلى، أنا أريدها حلقة وصل بيننا وبينهم فالغربيون يميلون لبعضهم البعض.

_ ماذا تقول يا (حامد)؟! أنت توافق على التنقيب أسفل بيتكم؟!!

وملدة نصف ساعة يشرح (حامد) لـ (ليندسي) تفاصيل الأمر وأسباب موافقته على التنقيب، لكنه بالطبع لم يذكر لها أن ابن عمه سبق له الحفر والوصول للا شيء.

_ وإذا عثرت البعثة على آثار؟ كيف الحال وقتها؟

_ القانون يأخذ مجراه؛ الثروة حق لبلادها والمجد للمكتشفين والتاريخ ملك لكل العالم.

_ واتفاقكم معهم؟

_ ما بني على باطل فلا قيمة له.

سكتت (ليندي) لثوانٍ قبل أن تقول:

_ ألم تعرف منهم ما الذي يبحثون عنه بالضبط؟

_ لم يخبروني بشيء، ولكن واضح أنه أثرٌ قيم وإلا لما اجتمعنا على البحث عنه وقبلا المشاركة فيه.

_ لست أدري ماذا أقول لك، إنها فرصة لا تعوض بالنسبة لكلينا، لكنني أتوجس من هذه المغامرة المعقدة.

سكتا سويا ثم سألتها (حامد):

_ (ليندا)؛ أنا أثق بكِ، أليس كذلك؟

قالت بغضب:

_ ما هذا الذي تقوله يا (حامد)، ألم تعرفني طوال تلك الأيام؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

رد ضاحكا:

_ أقصد ثقتي في قوة أعصابك وحبك للمغامرة.

ضحكا معا قبل أن يقول لها:

_ متى ستأتين حتى أكون في انتظارك على محطة القطار؟

(١٢)

اختارت (ليندسي) أن تستأجر شقة صغيرة في ملوي للإقامة فيها، لم تحبذ فكرة الإقامة في القرية طوال الوقت خصوصا أنها لم تشعر بالأمان في المبيت وحيدة في استراحة متنقلة في العراء، ولأن المسافة صغيرة بين القرية والمدينة، ولأن مكان عمل (حامد) في ملوي.. فقد شعرت بصواب قرارها من كل النواحي.

وجاء أفراد البعثتين الستة، وتعرفت (أودريه) على (ليندسي) والتي تذكرتها سريعا بدورها، وبعد دور الشاي في المنذرة الذي أصر عليه (صلاح) توجهوا جميعا صوب قبو البيت الذي قام (صلاح) من قبل بإخلائه من كل ما كان مخزونا فيه، وأزال (شتيفان) جهازه الذي كان لا يزال مثبتا في أرضيته، وجاء (حامد) بطاولة بلاستيكية فرد فوقها (براندت) و(يوجيه) بعض أوراقهم وخرائطهم وبدأ في وضع خطة الحفر، وعلى عكس ما توقع (صلاح) فلم تبد أي بادرة منافسة أو رغبة في الرياسة بين رئيسي البعثتين بل بدا عليهما التفاهم.

وبدأ (يوجيه) و(براندت) في وضع بعض العلامات على أرضية القبو، ولما انتهى منها قالا (لصلاح):

_ أين صديقك الحفاران؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وصعد (صلاح) للطابق الأرضي وبعد قرابة الربع ساعة نزل بصحبة (بيشوي) و(فانوس) اللذين ألقيا التحية على الحاضرين ووجهاهما ينطقان بالبشر والرضا، وأحس (فانوس) أن (حامد) متغير من ناحيتهما ولم يقابلهما بالترحاب المنتظر بعد طول غياب، وفطن تفكيره بسرعة لسبب تغيره قال:

_ والمسيح الحي يا (حامد) كنا نظن أنك تعرف وأن (صلاح) قد استأذذك.

وتداركه (صلاح) قبل أن يفضح الدنيا فصاح فيه:

_ هل هذا أوانه؟

ولما التقت عيناهما نظر له (صلاح) معاتبا ثم أدار حدقة عينه تجاه الخواجات، فأطرق (فانوس) رأسه لأسفل، ثم قال (صلاح) لهما:

_ ستتبعان أوامر المسيو (يوجيه) والهـر (براندت)، وإذا احتجتما لسؤال فالهـر (شتيفان) يفهم العربية جيدا.

وضغط (صلاح) على حروف جمـلته الأخيرة ففطن (فانوس) لما يقصده فهز رأسه بفهم، ثم قالت (أودريه) بالعربية:

_ أنا أيضا أجيد العربية.

فابتسم لها (صلاح) في وـله وقال في تملق:

_ فتاة في ذكائك بالتأكيد تجيد سبع لغات.

ابتسمت نصف ابتسامة وقالت:

_ ثلاث لغات فقط بخلاف لغتي الأم.

ثم ضحكت وقالت:

_ بالمصادفة هي لغات جميع من بالقبو الآن!

وضحك الجميع ثم صفق (براندت) تصفيقة واحدة عالية وقال في حماس:

_ هيا بنا نبدأ؟

بدأ الأخوان في الحفر، ووزع الأجنب أنفسهم بين الطابق الأرضي والقبو إذ لا معنى لتواجدهم جميعا في موقع الحفر الضيق في ذات الوقت، وتدرجيا بدأ الجميع في التعود على البيت، ورويدا رويدا بدأوا في التصرف بلا حرج كأنه بيتهم، واختفى (شتيفان) و(أودريه) ثم عادا بعد نصف ساعة في سيارة (شتيفان) الجيب وقد مלאها بالأطعمة والمشروبات والكتب وبعض الأجهزة، ثم شرعا في تحويل الأغراض إلى داخل البيت، وبمساعدة (ليندسي) أخذوا في رصها ما بين المطبخ والصالة الخارجية وغرفة السفارة كأنهم في معسكر ترفيهي.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أتدري يا (حامد)؟ أكثر ما يميز هؤلاء الخواجات أنهم يعرفون معنى الاستمتاع بالحياة حتى في أشد لحظات استغراقهم في العمل الجاد.

_ امال والحريات يا ابن عمي وليس لأنهم شقر البشرية، امال يجعل البال مطمئنا والحريات تشعل جذوتي الروح والإبداع... سأذهب لأرى إلى أين وصل بيشوي وفانوس.

(١٤)

كان الحفر يتم نهارا وجزءا من أول الليل لكيلا يفضح سكوت الليل أصوات آلات الحفر، ويرفع (صلاح) صوت جهاز التسجيل في غرفة السفارة المجاورة للسلم بالأغاني الشبابية الحديثة كي يحسن التغطية على أصوات آلات الحفر، ثم ظهرت لتلك الأغاني فائدة أخرى، إذ أشبعت غريزة الرقص لدى الأجانب عندما تجاوبوا مع بعض ألحانها الطربية، ثم سرعان ما اعتادوها وسكنت حاجة الرقص لديهم بعد أن أشبعوها قليلا.

ومدّ الأجانب الأخوين الحفارين ببعض المعدات التي سهلت عليهم عملية الحفر كثيرا، ووزعوا أنفسهم بين متابع لأعمال التنقيب في القبو وبين متواجد في استراحتي البعثتين على أطراف القرية كي لا يلفتوا الانتباه باختفائهم جميعا دفعة واحدة. الحقيقة أن الأمر لم يكن يستدعي كثيرا من التمويه إذ التنقيب أمر شائع في بيوت الكثيرين وإن كان يتم في مستطاع السر والتمويه، وتواجد الأجانب في الأشمونين أمر معتاد ما بين سواح وبين بعثات آثار.

وكان يحلو (لصلاح) أن يتواجد في موقع الحفر في الوقت الذي تتواجد فيه (أودريه) التي بدأت لا تضيق بوجوده بل نجح بخفة ظلّه في إثارة ضحكاتهما وكسب ودها..

_ هل أسألك سؤالاً ولا تعتبرينه سؤالاً غيبياً؟

ضحكت ثم قالت

_ (صلاح)؛ لا يوجد سؤال غبي، توجد فقط إجابات غبية.

_ كيف تتعاملون مع الجان الحارس للمقابر وللكنوز؟

ضحكت (أودريه) هملء فمها حتى قال (بيشوي) معلقاً

_ الله يسهل له يا عم!

فردت عليه (أودريه) بعريبتها الطريفة:

_ الله يسهل ليكي إنتي

فضحكوا جميعاً ثم التفتت (أودريه) (لصلاح) وقالت:

_ في بداية عملي في التنقيب عن الآثار كنت أهرأ من قصص السحرة والشيخوخ الذين يستعين بهم الناس هنا في إيجاد الخبايا والمقابر وأعتبره دجلاً ونصباً، وكنت أتساءل فما بال عشرات المقابر الملكية التي عثرت عليها البعثات الأجنبية بغير شيخ ولا بخور ولا زئبق أحمر أو أخضر، ثم مع الوقت بدأت أستغرب الحالات التي يُوقَّق فيها هؤلاء للعثور على آثار مهمة، بل صدمت حين عرفت أن بعض البعثات تتفق مع بعض هؤلاء على التنقيب في بعض الأماكن بعد أن

تعجز البعثة عن التنقيب فيها، ثم تشتري منهم البعثة المكان فتستولي على ما تستولي عليه وتترك بقية الآثار الأقل الأهمية في مكانها، ثم تعلن لهيئة الآثار عندكم عن أن المكان من اكتشافها فيكون ذلك شهادة كفاءة لهم للحصول على تصاريح جديدة.

فتغيرت نظرتي الراضة لهم وبدأت أحلل الأمر بعقلانية أكثر، وما وصلت إليه أن هؤلاء ربما لديهم صلات روحانية من نوع ما تنبئهم بأماكن الكنوز، بالضبط مثل بعض الطيور أو الحيوانات التي لها قدرات استشعارية.

أما نحن فنستعمل العلم؛ تصوير طبقات التربة القريبة وملاحظة شكل فراغاتها التي إذا كانت منتظمة في أشكال هندسية معينة فهي غالبا مقابر، كذلك قياس وجود تكتلات معدنية في هذه الطبقات فهذه غالبا مشغولات وتمائيل معدنية، أو قياس اختلاف مفاجئ في نوعية الصخور الطبقات فهذه ربما تكون تماثيل حجرية... وهكذا.

_ وماذا أظهرت لكم أجهزتك في باطن بيتنا؟

ابتسمت في خبث وقالت:

_ الأمور لا تزال مجرد تخمينات... ستعرف وقت أن نصل إليها.

ضحك (صلاح) لسرعة فطنتها ثم قال:

_ وما هو تفسيرك للرصد الحارس؟

_ أنا لا أصدق بهذه الخرافات، أعتقد أنها بهارات هؤلاء المشايخ من أجل إضفاء مزيد من الغموض والرعب والأهمية لأعمالهم حتى يطالبوا بثالث الغنيمة... أليس هذا ما يحدث؟

_ أنتِ بالفعل متابعة لما يحدث، لكن ما رأيك أنه حدث في بعض الحالات أن خالف العمال كلام الشيخ فحدثت لهم مصائب؟

_ أنت رأيت هذا بنفسك؟ أم أنك تنقله عن سمعه؟

_ انقله عن أثق في كلامه.

_ وهو بدوره ينقله عن من يقول إنه يثق في حديثه، وتضيع الحقيقة في سلسلة النقل تلك... لا تثق يا (صلاح) إلا فيما شاهدته بنفسك، خصوصا أن عالم التنقيب مليء بالمؤمنين بالخرافات.

وبدأ الحفر يصل إلى عمق عدة أمتار، وتعمق النفق ثم بدأ يخرج عن المسار الرأسي إلى المسار الأفقي، وساعد وجود دهاليز بيوت

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قديمة مطمورة على تسهيل المهمة، وأخذ (بيشوي) و(فانوس) في تدعيم النفق وتقوية حوافه بخشب البناء كي لا تنهار تربته، ولاحظ (صلاح) أن فريقَي البعثتين قد وضعا مسارا للحفر مختلفا عن المسار الذي نقب عنه هو من قبل مع (بيشوي) و(فانوس)، ولما أسر (لحامد) بذلك قال له:

_ لعلمم يتفادون الفخاخ التي كان يضعها الفراعنة في طريق لصوص المقابر، السحرة يستعينون بالجان لتفادي هذه الفخاخ بينما هم يستعينون بالعلم.

_ أقول لك لقد نقتب هنا من قبل، لو كانت هناك فخاخ فقد فتحت أو أبطلت في التنقيب الأول فلن تعود هذه الفخاخ للعمل بعد أن ردمنا الأرض.

مطّ (حامد) شفّتيه وقال:

_ قلت لك من قبل بأنني لا أعتقد أن مقبرتك الخاوية هي بغيتهم، عموما دعنا نراقب لنعرف في وقتها.

وعندما همس (بيشوي) بسؤاله عن ذلك المسار المختلف في أذن (صلاح) هز كتفيه علامة أنه لا يعرف، ثم حرك كفيه إشارة أن دعنا نرى فلن نخسر شيئا.

وبدأ الجميع بمرور الأيام في الاعتياد على بعضهم البعض، وكُسرت حواجز البدايات الأولى وأخذوا تباعا في خلع الثياب الرسمية وارتداء ثياب الطبع غير المتكلف مكانها، وراحت أقنعة التوجس الأولى تذوب عن وجوه الاعتياد والارتياح، خاصة أن أحدا من زمرة من البيت لم يكن شارد الطبع أو غامض التصرفات، وبدأت الفكاهات والمنادمات، وأخذ أعضاء البعثتين في التخفف من واجبات متابعة أماكن تنقيبهم الصورية على أطراف الأشمونين، لكنهم أبقوا فترات تواجدهم فيها عند الحد الأدنى اللازم لعدم إثارة أية شكوك.

وأظهر (حامد) و(صلاح) من طبع الضيافة العربية الأصيل ما جعل الآخرين يعتادون المكان بزيادة، وصارت الملابس الرياضية هي الزي المعتاد في البيت، وبدون إلحاح طويل قَبِلَ الأجنب عرض ابني العم باستعمال كل مرافق البيت، فتم تخصيص حجرة للفتاتين تأوي إليها منهما من تريد القيلولة أو الاعتناء ببعض شئونها الخاصة، وعَمِدَ الطابع الصعيدي عند ابني العم إلى جعل تلك الغرفة في الطابق الأرضي بعيدا عن غرف نوم الرجال في الطابق العلوي والتي تم تخصيص إحداها للرجال من الضيوف بجوار غرفتي (حامد) و(صلاح).

وكأنهما التقط الأجنب الإشارة من صاحبي الدار فصاروا أكثر تبسطا واعتيادا، وصار من غير الغريب أن ترى (شتيفان) و(يوجيه) يتعاونان

في تغيير إنبوبة غاز المطبخ لتتطوع (أودريه) و(ليندسي) في القيام بدور سيدات البيت وإعداد وجبة ساخنة يتشارك فيها الجميع. في حين يصر (يواكيم) في اليوم التالي على منافستهن وإبراز ما لديه من فنون الطهي ليقوم بإعداد طعامٍ مصري دهشت المرأتان كيف تعلمه، في حين شهد له الجانب المصري بالبراعة فيه.

وعلى دوران أكواب الشاي وأقداح القهوة وأصناف الحلوى التي لا ينقطع دورانها كانت تدور كل المناقشات في صالة البيت الرئيسية أو على مائدة السفرة، واستغلت (ليندسي) ما لديها من مواهب في دفع دفة الحوار إلى مناطق الخلاف والاختلاف، إنها فرصتها الذهبية، فالفرد في المواقف الإنسانية العادية يكون أقل تحفظا في إظهار معتقداته التي يؤمن بها ويكون أكثر استعدادا لمناقشتها بغير التحفظ المعتاد في الجو الرسمي أو تحت الكاميرات والأضواء، ويكون قادرا - إذا كان صاحب قلم - على التصريح بما قد لا يجروء قلمه على أن يخطه.

ولو حضر إحدى هذه المناقشات من هو من أنصار تقسيم الناس بين لونين اثنين فقط، فلسوف يصاب بالدوار بعد دقائق، فلا يكاد يجتمع اثنان على رأي واحد إلا ويختلفان معا في رأي آخر، فلا مع ولا ضد وإنما كأنهم لوحة من الفسيفساء ما زادها تضارب ألوانها إلا جاذبية.

وصار يحلو (ليواكيم) ارتداء جلباب صعيدي اشتراه بواسطة (فانوس)، ويجلس متربعا على الأريكة التي في صدر الصالة ويدخل في مناقشات طويلة مع (أودريه) التي كانت تحلو لها جلسة القرفصاء بجوار الباب الرئيسي وتتكى بظهرها على الحائط.

وارتبك (حامد) حين أدرك أن (يواكيم) يهودي، ثم ارتبك أكثر حين وجد نفسه يأخذ صفه ويؤيده بكل قوة في مناقشاته الوجودية مع (أودريه)، فحين تأخذ (أودريه) في سرد الأدلة - التي تقول إنها علمية - على أن الأديان الإبراهيمية إنما هي تطور طبيعي لمعتقدات البشرية في صورتها التعددية وتؤكد أن كل ما حدث إنما هو توحيد الآلهة المتعددة في إله واحد ثم رفع مكانه إلى سماء العلية وإرجاع زمانه إلى الأزلية، وحين تنتهي من سرد أدلتها يتلهف (حامد) إلى سماع ردود (يواكيم) الذي يأخذ في تفنيد كل ما سردته من أدلة، بل ينفي أنها أدلة أصلا وإنما هي مجرد تفسيرات فيعيد قراءتها بتفسير آخر ينفي تفسيرها الأول.

ثم ما يلبث الحوار أن يخرج بهم من الآثار والميثولوجيا إلى التطور والدارونية، فكأن محور الحديث لم يتغير وكأن الموضوعين واحد وكأن نقطة الخلاف هي ذاتها.

لكن لما عرّج بهما الحوار إلى تشكيك (أودريه) في الأسفار المقدسة التي يؤمن بها (يواكيم) عاد (حامد) إلى ارتبائه من جديد، فلم يدر

إلى جانب من يقف هذه المرة، وعندها أدرك أن أمامه شوطاً طويلاً حتى يدخل في مناقشة مماثلة يقدم فيها أطروحته هو المتكاملة. وحين احتدم النقاش الديني الأخير بين (أودريه) و(يواكيم) حتى علا صوتاهما، وأمسك (يواكيم) بإبريق الشاي الساخن توقع حامد أنه سيقتذف بالإبريق في وجه غريمته، لكنه فوجئ به يصب لها كوباً منه. أما (صلاح) فلم يحتج لكثير فطنة حتى يدرك أن ما يللمسه من استلطاف (أودريه) له إنما هو لخفة ظله فحسب، لكن عينيها إنما تلمعان حينما تلحظان (شتيفان).

واستغرب أن وجد نفسه يغار عليها من حواراتهما الجانبية الهامسة التي بدأت تطفو على سطح علاقتهما، بل صار يترصدهما ألا يختليا ببعضهما في أي ركنٍ من المنزل الواسع، ويحدث نفسه في غيظ:

لن أترك لكما فرصتها يا معدومي الشرف!

لكنه فوجئ ذات ظهيرة بـ (يواكيم) يهمس في أذنه:

_ لن يحدث بينهما شيء مما يقلق حميتك الصعيدية.

إلتفت له باستغراب وقال:

_ من هما وماذا تقصد؟

_ أقصد ما فهمته..

ثم قال وابتسامته الماكرة لم تغادر شفتيه:

_ هل أعد لك معي كوبا من القهوة؟

أما (شتيفان) و(أودريه) فأصبحا في وادٍ آخر، يتحديان أيام الملل بما لا يُملّ منه، أدركا أن قانون مصادفات الطبيعة الذي يؤمنان به معا هو ما عقد كيميائهما معا حتى فيما يحبانه من هوايات، فكانا يقتلان ساعات الانتظار والفراغ في تبادل كتبهما المفضلة أو في تحديات مباريات الشطرنج، يسترقان لحظات الجنون في استراحة أيٍ منهما بعيدا عن أعين الجميع، ويتفننان في الاختفاء خلسة ثم الظهور فجأة مع أن الأمر لا يستحق كل ذلك العناء إلا رغبةً منهما في مغامرة يرفعان بها درجة الاستثارة، كأنهما يستعيدان أيام بدايات الصبا الأولى حين كانت خطة التحايل على مراقبة الأهل أشد نشوة من هنيهات المراهقة المسروقة.

_ عماذا تبحثون بالضبط؟

سألته (أودريه) فرد عليها (شتيفان) ضاحكا:

_ عن الآثار مثلكم.

لكزته بقبضتها في صدره وقالت:

_ أنا غاضبة منك.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ثم أشاحت بوجهها في غضب غير حقيقي ودلال مصطنع، فمال عليها وقال:

_ ما رأيك في أن نلعب لعبة؟

هزت كتفها علامة ألا رضا فأكمل قائلاً:

_ تقولين لي معلومة فأقول لك معلومة، ما رأيك؟

سكتت لثوانٍ ثم قالت:

_ إبدأ أنت.

_ أسألي

_ جهازكم الذي كان في قبو البيت ليس جهاز جس تربة ولا قياس فراغات تحت الأرض.

_ هو جهاز قياس إشعاعات دقيقة.

ردت بدهشة:

_ هل تبحثون عن يورانيوم أو ما شابه؟

ضحك ثم قال:

_ لا طبعا، ولكن - لا أدري إن كنتِ تعلمين أم لا - فكل مادة في الدنيا لها درجة من درجات الإشعاع تختلف عن المواد الأخرى، وفي بعض المومياوات التي تعود لفرعونٍ ما أو لأحد أفراد أسرته كان يدس في المومياء خرطوشة صغيرة تحوي سائلا أحمر، ذلك السائل الذي يظنه بعضهم أنه الزئبق الأحمر، المهم أن جهازنا ذلك يلتقط النشاط الإشعاعي الصادر من تلك الخرطوشة فإذا سجلها الجهاز فهي علامة أن مقبرة ما ترقد في انتظارنا.

_ ومقبرة من التي تبحثون عنها؟

_ بل دورك أنتِ في الإجابة عن نفس السؤال.

لكزته من جديد ولكن في دلال حقيقي هذه المرة وقالت:

_ هل سمعتَ عن طاقة المكان؟ واختلافها حسب الشكل الهندسي له؟

_ تقصدين مثلا مكانا مثل الهرم وأنكِ لو وضعتِ فيه طعاما لمدة فسيجف دون أن يفسد؟

_ أو لو وضعت فيه شفرة ثلثة فستترد حادة بعد فترة.

_ نعم أعرف، ماذا بعد؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هذه الطاقة أمكن قياس طيفها بواسطة كاميرا معقدة لا أفقه كيف تعمل، لكن ما أعلمه أنها تصور مختلف أطياف الأمكنة.

سألها في دهشة:

_ هل تبحثون عن هرمٍ مدفون تحت الأرض مثلاً؟

_ أو عن مقبرة، فللمقابر طاقة طيفٍ مثلما للأهرام.

ضحك ثم قال:

_ وماذا لو وجدنا نفس المقبرة، كيف سنقتسمها؟

_ أقول لك عن نفسي؟ فأكثر ما تهمني هي المومياة نفسها.

استمر في ضحكه وقال:

_ هل تريدان الاستحواذ مثلاً على الزئبق الأحمر؟

بادلته الضحك ثم قالت:

_ بل لدراسة أصل المومياة، دراسة تحليل DNA لها ومقارنته بتحليل (لوسي) أقدم كائن بشري والتي اكتشفت في أثيوبيا، هناك فجوات في دراسات التطور والنشوء والارتقاء تحتاج لمثل هذا التحليل والمقارنة.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هل سمعتِ عن (أردى)؟ هيكل أثيوبي أيضا مكتشف حديثا جدا وأقدم من لوسي بكثير، والعلماء الذين اكتشفوه قالوا إنه يطعن نظرية التطور في مقتل.

_ وسيظل الفريقان في سجالهما ذلك طويلا، فأنا أعترف أن أبحاث التطور - مثلها مثل دراسات الآثار - تحركها القناعات الشخصية في البداية ثم يكون دور البحث العلمي في إصدار حكمه.

_ على أن يكون بحثا علميا نزيها، فحتى (يواكيم) يهتم هو الآخر بدراسة الحامض النووي للفراغة لكن من منطلقات دينية وعرقية هذه المرة.

ضحكت (أودريه) وقالت:

_ (يواكيم) هذا غريب في أفكاره التي يعتنقها برغم عبقريته الواضحة، هل يريد أن يثبت أن الفراغة جنس سام وليسوا من جنس حام؟

_ أو انتماء فصيل من الفراغة إليهم، أو كون هذا الفصيل بعض أبناء عموماتهم، على الأقل هو يبحث عن عرقين متعاصرين، لكن أنت تريدين الربط بين مومياء وهيكل عظمي بينهما ملايين السنين.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ألم تلاحظ أن لوسي وأردني اكتشفا في أرض أثيوبيا؟ أنا أو من أيضا بأن حضارة الفراعنة زحفت مع زحف الإنسان مع جريان ماء النيل من أثيوبيا إلى مصر، ولذلك أريد مقارنة تحليل أنسجة ملكة فرعونية بتحليل سلفتها لوسي.

رد عليها وعيناه تتغير نظرتهما شبقا:

_ وأنا أرى أننا ضيعنا وقتا ثمينا مع المومياء ولوسي وأردني.

ابتسمت في شبق وقالت:

_ ماذا تقصد؟

غمز بكلتا عيناه وقال:

_ ستعرفين حالا!

استسلم (صلاح) لحقيقة أن (أودريه) ليست مجاله أبدا، واستمر (يواكيم) في ممارسة هواياته، فتعلم لف العمامة الصعيدية، واستحوذ (فانوس) و(بيشوي) على القدر الأوفر من مقالبه، لكنهما تقبلاها منه وبادلها مثلها. وعكفت (ليندسي) على تدوين كل ما يدور حولها في دفاترها كأنها كاتب جلسات استماع في محاكمة هامة، و(يوجيه) لا يكف عن النظر في خرائطه وأوراقه ورسم مسودات

خرائط لا يلبث أن يمزقها، ويتواجد داخل النفق ربما أكثر من (بيشوي) و(فانوس).

أما (حامد) فتعلم التهرب من مواعيد عمله في متحف ملوي بعدما وجد أن رصيد أجازاته لن يكفيه وهو الحريص على التواجد باستمرار لمراقبة أعمال الحفر، وكأنه يتوقع أن تخرج الخبيثة فجأة في ساعة غيابه فيقتنصها الأجانب ويفرون بها طائرين، وسوغ لنفسه ذلك التخبث عن عمله بأن حراسة الآثار غير المكتشفة أهم من حراسة أختها التي تم حفظها بالمتحف.

لكنه لم يجهد عقله ليسوغ له الفترات التي يتخبث فيها عن البيت كي يكون بصحبة (ليندسي)، فهي بالتأكيد لم تكن لتفوت فرصة وجودها في الأشمونين ورياض الآثار تضج حولها من كل زاوية دون أن ترتع فيها، فاصطحبها لترتوي من الأشمونين بداية، ثم التفتا إلى أكنافها ومن حولها، فزارا آثار تونا الجبل وبني حسن وتل العمارنة وصولا حتى مدينة المنيا.

وفتنت (ليندسي) أكثر ما فتنت بمقبرة (إيزادورا) في تونا الجبل، ليس إعجابا بمعمار المقبرة بل شغفا بقصة صاحبة المقبرة، وأنصت في شغف لمرشد الآثار وهو يحكي قصة ابنة الحاكم الإغريقي لمنطقة المنيا في القرن الثاني قبل الميلاد، والتي وقعت في حب جندي مصري يدعى (حابي) الذيبادلها حبا بحب، وكانت تخرج للقائه من قصر

والدها شرق نيل مدينة ملوي وتعبر بقاربها النهر إليه أو يأتي هو تحت شرفة قصرها، فلما علم أبوها بحبهما فرق فيما بينهما وأمر حراسه بمراقبتها، حتى إذا استيأست من رحمة أبيها بحبهما غافلت حراسها ذات يوم وذهبت عبر النهر كما اعتادت للقاء حبيبها لقاء أخيراً ثم ودعته دون أن تخبره بنيتها أن يكون ذلك اللقاء آخر عهدها بالحياة، وفي منتصف الطريق ألقَتْ بنفسها في أحضان النيل.

وندم أبوها عليها واعتبر نفسه سبب انتحارها، فبنى لها مقبرتها تلك وكتب عليها مرثية جميلة لها، أما حبيبها (حابي) فكان يأتي كل ليلة لزيارة مقبرتها وإشعال شمعة لها عندها...

ودمعت عينا (ليندسي) بعد سماعها القصة من المرشد والذي كان يقصها بطريقة تصويرية فنية ينسى خلالها أنه مرشد سياحي ويرتدي ثوب القاص المسرحي، وناولها (حامد) منديله وهو يبتسم في حنان، ويقرر أن يروح عنها فيصحبها بجولة نيلية ويدعوها للغداء على سطح المركب في رحلة مشابهة لرحلة إيزادورا..

_ صحبتك رائعة يا (حامد) ومعلوماتك عن الآثار ولا أروع منها، لكن ينقصك فقط ألا تكون أحادي النظرة ولا جامد الرأي.

وينظر لها (حامد) ويهم أن يبوح بما يعتريه فينعدد لسانه وهو الخجول طوال حياته، وتلتقط (ليندسي) نظراته وتقرأ ترجمتها

الفورية فينعقد لسانها هي الأخرى ولكن ليس عن خجل بل عن تفكير وتردد، فالارتياح عندها لا يكفي وحده، واختلاف الثقافة وطريقة التربية يكفیان في نظرها لهتك أستار أي حب، وفلسفتا الشرق والغرب في رأيها يختلفان بأكثر مما يلتقيان بل هما على طرفي نقيض في أغلب الأمور، ولأنها تسبقه من العمر بسنواتٍ ست فكانت الرؤية عندها أوضح لملاحظة كل ذلك، بل فارق سنوات العمر بينهما كان عائقا في حد ذاته.

لكنها لم تمنع نفسها من الإعجاب به، بل لعله لو كان من عجينة ثقافتها لسمحت لنفسها معه ببعض المرح... لكنهم هنا في الشرق يعتقدون حاجيات الإنسان الأول، ولا أحب أن أبدو في عينيه مجرد فتاة لاهية!... هكذا حدثت نفسها.

(١٥)

_ لقد وصلنا إلى طبقة الفحم!

هكذا همس (فانوس) في أذن (صلاح) الذي اتسعت عيناه ثم رد عليه:

_ معنى ذلك أننا بصدد مقبرة أخرى غير الأولى؟

سكت (فانوس) ولم يعقب، فذهب (صلاح) إلى حيث كان يجلس (سكوت) و(براندت) وأخبرهما.

_ عظيم، فطالما وصلنا إلى طبقة حماية المقبرة من الماء إذن فنحن على بعد خطوات من هدفنا.

قالها (سكوت) وهو يرتدي قبعته ويهم بالقيام ليلحق بـ (براندت) و(صلاح) اللذين سبقاه إلى هناك، نزلوا ثلاثتهم في النفق واقتطع كل واحد منهم قطعة من الفحم وكأنه يريد أن يتأكد منها بنفسه، ثم خرجوا من النفق فوجدوا من كانوا بالبيت متحلقين برؤوسهم فوق فوهة النفق.

أخذ (براندت) و(سكوت) و(يوجيه) في الحديث سويًا لبعض الوقت ومطالعة بعض الرسومات، ثم قالوا (لبيشوي) و(فانوس) أن يستمرا في الحفر، لكنهما لم يتحركا ونظرا إلى (صلاح)، فسأله (يوجيه):

_ ماذا بهما؟

رد (صلاح):

_ طالما وصلنا إلى الفحم فهما يريدان الشيخ.

رد عليه باستغراب:

_ أي شيخ؟

_ شيخ الآثار، لقد اقتربنا من الجد ونريد الشيخ كي يتعامل مع الرصد الحارس للمقبرة.

رد عليه (سكوت) هذه المرة بخبث:

_ الشيخ الملواني؟ أم الشيخ العراقي؟

نظر له (صلاح) في وجوم ثم هز رأسه متظاهرا بعدم الفهم، فقال (سكوت) مبتسما في خبث:

_ هل تظن أننا لا نعلم بأمر المقبرة المهجورة التي نقبت عنها فلم تجد شيئا؟ أم تظن أننا ثلة من المغفلين؟

تعرق (صلاح) واصفر وجهه لكنه رد في تماسك:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ وما وجه العلاقة بين المقبرتين؟ أنا أعلم أنه طالما أجمعت بعثتكم على التنقيب هنا فلا بدّ أنه شيء يستحق، فما الداعي لكلامك هذا إذن.

وتظاهر بالغضب في جملته الأخيرة، فقال (سكوت) في تذاكي:

_ أردت فقط أن تعرف أننا نعرف.

رد (صلاح) عليه في سخرية:

_ أهلا وسهلا، فماذا إذن عن الشيخ المطلوب؟

تدخل (براندت) في الحوار ملطفا وقال:

_ ولماذا لم تطلبوا شيخ الآثار هذا منذ البداية؟ ألا ترون أننا قد قطعنا

الشوط الأكبر بغير أن تصادفنا تلك الأوهام؟

رد (صلاح):

_ بصراحة لقد كان (بيشوي) و(فانوس) هما من نقبا معي في أرض

البيت من قبل، ولقد أبطلنا عكوسات الحفر في تلك المرة، لكن حين

يتعلق الأمر بمقبرة لم تفتح من قبل فلا بد من التعامل مع رصدها.

تدخل (فانوس) في الحوار وقال بكلمات بين العربية والإنجليزية:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هذه مقبرة لم تمس يا خواجه، ولا بد أن حارسها جن سفلي من
مردة الحزام الناري الذي يلف باطن أرض مصر الوسطى كلها.

وبدا الجد والفرع واضحين على وجوه المصريين الثلاثة، فنفخ
(براندت) ثم قال (لصلاح):

_ اسألهما؛ ألم يكن والدهما يعمل مع بعثات آثار أجنبية؟ هل ذكر
لهما قط أن هذه البعثات قد تعاملت مع شيوخ وسحرة ومردة جن؟
رد عليه (بيشوي) بعد أن ترجم له (صلاح) ما يقول:

_ كان يقول لنا بأن بعض البعثات تستخدمهم سرا، والذين لم يكونوا
يلجأون لهم كان يصاب أفرادها بلعنة الفراعنة.

صاح فيهم (شتيفان) الذي حضر هو و(أودريه):

_ ألم تفهموا بعد؟ لا وجود للجنة الفراعنة تلك، إنما هي من تصاوير
عقلكم التواكلي عندما تصابون بالعجز عن حماية أرضكم وكنوزكم،
فيطيب لكم تصور أن قوة سماوية أو لعنة شيطانية ستهب للدفاع
عنكم أو للقصاص لعجزكم.

لكزه (براندت) بكوعه ليسكت، وحاول (يوجيه) أن يتكلم بالعقل
فقال:

_ يا (صلاح).. يا (حامد).. أنتم شباب متعلم وتعلمون أن قصص الرصد ومس الجن هذا من الخرافات، ونحن أمامكم قد حفرنا أغلب النفق بدون أن يصادفنا حتى شبح قطة، فثقوا فيما نحمل من وسائل علمية للحفر والتنقيب ودعكما من الهراءات.

رد عليه (حامد):

_ للأسف أن ما تسميه هراءات قد شاهده كل واحدٍ منا نحن الأربعة من قبل.

ونفخ (يوجيه) هو أيضا في غيظ، وفجأة صاح (يواكيم) في رعب:

_ ما هذا الذي يتحرك خارجا من فوهة النفق.

وأصاب الفزع والهستيريا جميع من بالقبو عندما رأوا شبحا أسود يخرج من الفوهة، فأخذ (شتيفان) و(بيشوي) و(فانوس) يتقافزون في الهواء كالمجانين، في حين جلس (سكوت) و(براندت) القرفصاء وهم في رعب، وكادت (أودريه) أن تسقط مغشيا عليها، في حين عقدت المفاجأة لسان الباقيين.

وبعد دقيقة من الصراخ والجنون هدأ الجميع فجأة وهم يرون (يواكيم) يسقط من الضحك وأن الشبح الأسود الذي رأوه يخرج من فوهة النفق لم يكن إلا (ليندسي) التي نزلت لتعاين طبقة الفحم

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

تلك، ولأنها لا تكتفي بالاستكشاف بعينها فقد انهال عليها بعض
الفحم فعادت وقد غطاها رماده فبدت كقطٍ أسودٍ عملاق.

ونال (يواكيم) ألوانا من السباب باللغات الأربع المجتمعة في القبو،
وكادت (أودريه) أن تصفعه بعد أن أفاقت لولا أن تداركها (شتيفان)
وأمسك بيدها فانهارت باكية على صدره، وبعد أن هدأت وصلات
السباب قال (يواكيم):

_ الآن بعد أن أجمعتم على شتمي ستنقسمون قسمين، قسم سيؤكد
أن ما حدث يؤكد أننا نؤمن بالأشباح في قرارة نفوسنا حتى وإن
أنكرتها ألسنتنا، في حين سيصر الفريق الآخر أن الأرواح ما هي إلا وهم
وميراث من مخاوف الإنسان البدائي توارثنا جيناتها بدليل أننا خفنا
من لا شيء.

رد عليه (يوجيه) باستهزاء وغيظ:

_ نظرية رائعة، لم لا ترشح نفسك لجائزة نوبل؟

_ سأكون أكثر نفعا لكم من جائزة نوبل وسأتولى التحقق بنفسي من
وجود رصدٍ حارسٍ فعلا لتلك المقبرة والتعامل معه إذا لزم الأمر.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

نظر له (براندت) و(شتيفان) في استغراب، في حين انقسمت نظرات
الباقيين له ما بين مستنكرٍ ومستفهم، فالتفت (يواكيم) إلى (بيشوي)
و(فانوس) وقال:

_ أنا أعلم حساب تلك اللحظة منذ أن عثرتما أثناء حفركما على
السعفة المحترقة.

نظرت (ليندسي) إلى (حامد) في استفهام فقال لها:

_ كان الفراغة يحيطون مقابرهم أحيانا بسعف النخيل والتي تحترق
مادتها مع تعاقب السنين.

في حين قال (بيشوي) (ليواكيم) في توجس بعد أن ترجم له (حامد)
ما يقول:

_ ماذا تقصد؟

رد عليه في ثقة وغموض:

_ أنا أحمل عهود مزامير داود.

نظر له (بيشوي) و(فانوس) في شك، فأخذ (يواكيم) يتلو:

_ (أنا صغيرا كنت في إخوتي، وحدثا في بيت أبي، كنت راعيا غنم أبي،
يديا صنعنا الارغن، وأصابعي ألفت المزمار، من هو الذي يخبر

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

سيدي، هو الرب الذي يستجيب للذين يصرخون إليه ، هو أرسل ملاكه، ورفعني من غنم أبي ومسحني بدهن مسحته)

نظر (فانوس) و(بيشوي) إلى بعضهما البعض، ثم تبادلوا النظرات مع (حامد) و(صلاح)، فقال (يواكيم):

_ إلآمَ تنظرون، في كل الأديان والثقافات المتوارثة هناك من يتعامل مع السحر وصرف الرصد، وتعلمون أننا أصحاب الرصيد الأوفر في ذلك.

سكت جميع من بالقبو وإن اختلفت أفكار كل واحد منهم، لكن (يواكيم) أكمل موجهها كلامه (لفانوس) و(بيشوي):

_ غدا تأتيان بكمية تكفيكما من الزيت المقدس لتدهنا به أثناء عملكما.

هل هي مزحة أخرى من (يواكيم)، هل هو فعلا يتقن صرف الرصد ويحمل عهود مزامير داود من ضمن أسرار شخصيته التي لا تنتهي، أم هو فقط يجاري المصريين في مخاوفهم... لا يهم.
فالكل استسلم للفكرة وسار وراءها.

وجاء الغد، وأحضر (بيشوي) و(فانوس) زيتهما المقدس، وجاء (يواكيم) يرتدي زيا عاديا لكنه كان يرتدي قبعة الكيباه اليهودية السوداء المشهورة، ووقع (صلاح) و(حامد) في مأزق انتمائي وحيرة وجودية إزاء قبعة (يواكيم) تلك، لكن الصمت والترقب كان لهما الغلبة في التسليم بالأمر الواقع.

ونزل (صلاح) مع (يواكيم) و(بيشوي) و(فانوس) في النفق إلى حيث ظهرت طبقة الفحم، وأخذ (صلاح) يسدد نظراته في عيني (يواكيم) كأنه يحاول النفاذ داخل عقله أو كأنه يختبر صدقه، لكن (يواكيم) ظهر بوجه آخر غير الذي اعتادوه منه. وبدأ (يواكيم) يرتل بالعربية أولا:

_ يارب إله خلاصي بالنهار والليل صرخت أمامك.

وسكت لثواني قبل أن يقول:

_ أحقا بالحق الأخرس تتكلمون، بالمستقيمات تقضون يا بني آدم

ثم أعاد مزموه الذي تلاه بالأمس:

_ أنا صغيرا كنت في إخوتي، وحدثا في بيت أبي...

ثم بدأ يقرأ بالسريانية كلاما لم يفهمه سواه، وقال (صلاح) لنفسه

إما أنه ساحر متمرس أو أنه ممثل بارع.

وظل يواكيم يقرأ لفترة، ثم طلب من (بيشوي) أن يذهب لإحضار إبريق من الماء المغلي، ولما حضر به ألقى يواكيم فيه بعض ورقات من نبات الحلفا بار وترك رائحة المنقوع تتصاعد في المكان، ثم عاد للقراءة لفترة ثم سكت تماما وقال للأخوين وترجم لهما (صلاح):

_ تذهنا بالزيت على منطقتي الصدر والأكتاف وتوكلا على الرب وواصلنا الحفر.

ثم سعد (يواكيم) و(صلاح) فتلقفتهم عيون الباقيين متسائلة، فلم ينظر (يواكيم) لأحد بل سعد إلى الطابق الأرضي، في حين سحب (حامد) (صلاح) من ذراعه وقال له:

_ هي إحدى مقالبه ولكن لبيت الطمأنينة في قلبي (بيشوي) و(فانوس)، أليس كذلك؟

هز (صلاح) رأسه وقال:

_ لا أستطيع أن أجزم، لكن كثيرا مما فعله رأيت الساحر العراقي يفعل في زريبة الحاج (خلف).

ومر الوقت في ترقب، وتخلى الجميع عما اعتادوه من هوايات وألعاب لقضاء وقتهم، بل تخلى الأجانب عن حذرهم في ترك مواقع بعثاتهم وتجمعوا كلهم في انتظار الوصول إلى بوابة المقبرة.

وتواجد (يوجيه) في لحظات الحفر هذه لملاحظة الفخاخ وإبطالها إن وجدت، وبالفعل تنبه لوجود حجر شبه مربع في أرض النفق بعد أن حفروا طبقة الفحم وطبقة من البودرة الحمراء كانت تليها مباشرة، تفحص (يوجيه) الحجر بأصابعه ونظر للأخوين فوجد (بيشوي) يهز رأسه بفهم، وجاء بأزميل حديدي وأخذ يفرغ من حول الحجر ثم جاء (فانوس) وطرق فوق الحجر بمطرقة حديدية طرقة ثقيلة فهوى الحجر لأسفل مفصحا عن بئر ضيق كان يخبئه أسفل منه، ثم تعاون ثلاثهم في سد فوهة ذلك البئر بألواح قوية من الخشب وتثبيتها جيدا.

وأخيرا بعد انتظار لم يدر أحد من الجالسين حول فوهة النفق كم من الوقت مر في ترقبه، برز (يوجيه) برأسه مبتسما وهو يقول:

_ البوابة!

هبوا جميعا وقوفا، وساعدوا (يوجيه) والأخوين على الخروج من النفق برغم أنهم كانوا بغير حاجة للمساعدة، ومنهم من بادر بنفض غبار الفحم والتراب عن ملابس الخارجين من النفق في حركة لا إرادية تعبيرا عن الفرح والامتنان.

ثم تجمع أعضاء البعثتين للتناقش واتفقوا أن ينزل (يواكيم) و(سكوت) لفتح البوابة، وأصر (حامد) على النزول معهما وكأنه يحرس المقبرة حتى في لحظات فتحها.

وتناول ثلاثتهم قطعاً من القماش مبللة بالماء ثم تلمشوا بها حول أنوفهم وأفواههم ثم نزلوا، وبعد نزولهم من السلم الرأسي أدلى (شتيفان) لهم بحبل موصول بفلتر هواء كبير الحجم تلقفه منه (حامد) ثم فك الحبل عنه، وساروا ثلاثتهم في الجزء الأفقي من النفق، ولما وصلوا لبوابة المقبرة تحسسوها لاختبارها بينما وضع (حامد) الفلتر قبالة البوابة، وتوقف (يواكيم) أمامها وأغمض عينيه وبدأ وكأنه يتمتم، ثم بعد فترة نظر لـ (سكوت) وهز رأسه، فقال (سكوت):

_ ركلة واحدة قوية ثم نركض.

وبالفعل عدّ ثلاثاً ثم رفسا البوابة معا فسقطت هاوية ووليّا فارين بكل سرعة حتى كادا أن يدهسا (حامد) في طريقيهما الذي سقط أرضاً لكنه قام مسرعاً في أثرهما يركض بركضهما.

بعد خروجهم قام (شتيفان) بتوصيل سلك الفلتر بالكهرباء، ثم قاموا جميعاً إلى الطابق الأرضي.

_ كم ستستغرق عملية التهوية؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هكذا سألت (ليندسي) بعد أن استقروا جلوسا في الصالة الرئيسية،
فرد عليها (سكوت):

_ الفلتر تكفيه ساعة، لكننا سننتظر ساعات أخرى للأمان.

وعلى غير عادتهم ظلوا جميعا صامتين في ساعات الانتظار تلك، حتى
أدوار الشاي والقهوة التي تطوع (شتيفان) و(أودريه) لصنعها
تناولوها وهم صامتون.

وبعد ساعة مال (براندت) على أذن (يوجيه) فقاما وطلبا من (صلاح)
و(بيشوي) و(فانوس) أن يتبعوهما لحوش المنزل الخارجي، ولما
تجمعوا بالخارج طلبا من (صلاح) أن يشكر الشقيقين على
مجهوداتهما ويخبرهما أن مهامهما قد انتهت عند هذه النقطة. ثم
ناولهما (يوجيه) مظروفا دسما فتح (فانوس) طرفه ونظر هو وأخوه
بداخله فظهر التهلل والبشر على وجهيهما لرؤية رزم العملة
الأمريكية الخضراء. ثم قال لهما (براندت):

_ وبالطبع تعلمون أننا لم نقم بعمل أي شيء ولم نر حتى بعضنا
بعضا.

_ بالطبع يا خواجه، لقد مسحناكم من الذاكرة.

هكذا جاوبه (فانوس) ضاحكا ثم انصرفا يكادان يطيران من الفرع.

(١٦)

تعمد (حامد) أن يكون أولهم نزولا في النفق وأول الجميع دخولا إلى المقبرة، كأنه لا إراديا يثبت مصرية المقبرة وأن أهل البيت أولهم دخولا له. لكن دخول (حامد) لم يفصله عن دخول آخر الأفراد التسعة إلا ثوانٍ معدودة.

والدهشة كانت عنوان الجميع.

البوابة تفضي إلى خمس سلام نزولا داخل حجرة المقبرة وهذا كل شيء!

بوابة ودرج وحوائط وأرضية من الحجر ولا شيء سوى الحجر الأصم!

وبدأت ملامح الدهشة تتحول، فتجمعت مكانها سحائب خيبة الأمل فوق وجوه أفراد البعثتين الستة، في حين لم يستطع (حامد) أن يكتفم مشاعر الفرحة وعبثا حاول قتل ابتسامه طفرت فوق شفتيه؛ لقد خاب مسعاكم يا سارقي الحضارات!

وفي حين احتفظت (ليندسي) بمشاعر الدهشة لأول مغامرة لها في اقتحام المجهول، فإن دهشة (صلاح) كانت تأتي من مدارات أخرى للتعجب؛ كم مقبرة خاوية إذن تقبع تحت أرض هذا البيت؟

هكذا فكر... فإذا كانت المقبرة الأولى قد سبق اقتحامها ونهبها فإن هذه مقبرة بكر لم يمسهها بشر، أم أنها سبق هتك سرها؟ أم أنها ليست مقبرة أصلا؟ أم ماذا؟

دقائق طويلة فصلت قبل أن يفيق خبراء البعثين من ذهولهم وصدمتهم، فمضوا يتفحصون جدران المقبرة بعيونهم وأيديهم، وأخرج بعضهم عدسة مكبرة من جيبه لفحص أرضيتها وحوائطها التي خلت من أية نقوش أو رسومات، كأنها مجرد حجرة صماء نحتت في قلب الحجر، لكنهم أجمعوا أنها لم تفتح من قبل وبالتالي فمن المرجح أنها تخبئ وراءها شيئا وإلا فلم نحتها صانعوها؟

وبعد فترة ذهب (شتيفان) و(أودريه) وعادا يحمل كل منهما عدة أجهزة في حقيبة على ظهره، وتمايز الجمع إلى فئاتٍ ثلاث، تحلق أفراد كل بعثة حول أنفسهم يفحصون جانبا من المقبرة ويتهامسون فيما بينهم، بينما وقف (حامد) و(صلاح) و(ليندسي) في وسط الحجرة يراقبون ما يحدث.

أخذت (أودريه) تقرأ شاشات أجهزتها وتتهامس مع زميلها.

المقبرة شبه مربعة المساحة، خمسة أمتار تقريبا طول كل ضلع

النسبة المشهورة لمحيط غرف الهرم إلى ارتفاعها لا تنطبق ها هنا

لا شيء خلف هذه الجدران

وعلى الجانب الآخر كان أفراد البعثة الألمانية يتهايمسون بنتائج
أجهزتهم.

الجهاز لا زال يسجل نشاط الطيف الإشعاعي لمادة الخرطوش الأحمر
ثم حمل كلُّ من (شتيفان) و(أودريه) جهاز موجات صوتية وفحصا
كل شبر في حوائط وأرضية المقبرة فلم تلتقط أجهزتهم سوى صدى
الصمت.

_ لا فراغات حولنا أو تحتنا!

هكذا صاحت (أودريه) في تعجب.

_ مستحيل!

صاح (يوجيه) ثم أكمل:

_ فماذا كانت تلتقط أجهزتنا وأجهزتهم؟

قالها وهو يشير لأعضاء البعثة الألمانية ثم أكمل:

_ أم أنهم سيدوا هذه الحجرة للتسلية؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

سكتوا جميعا في صمت وذهول حتى لمعت عينا (براندت) وقام فجأة
فتناول الجهاز من يد (شتيفان) وذهب به نحو درجات السلم
الحجرية وأخذ يتفحصها، والتقطت (أودريه) الفكرة فذهبت
بجهازها تتفحص السلام هي أيضا، لحظات وصاحت؛ هاهنا!

هرع (براندت) إلى جوارها بجهازه فأجمع الجهازان على وجود فراغٍ
ضيقٍ تحت درج المقبرة.

_ تجويف قطره قرابة المتر؟

سألها (براندت) كأنه يتأكد من صحة قياساته، فهزت رأسها موافقة
وقالت:

_ ويخبئ وراءه فراغا يشبه الحجرة.

جلسوا جميعا على أرضية المقبرة الحجرية يفكرون؛

نحتاج لتكسير هذا الدرج..

لا داعي لتكسيه كله، يكفي الجزء الذي فوق الفراغ..

ماذا عن غاز السيانيد السام المتوقع وجوده في تلك الحجرة؟ غالبا ما
سيكون الفراغ معبئا به ولا توجد بوابة هنا تحول بيننا وبينه..

ثم وصلوا في نهاية التفكير الجماعي إلى تكسير أجزاء من سلام الدرج فوق دائرة الفراغ، حتى إذا ما ضعف سمكها فوق ذلك الفراغ تتولى المتفجرات نصف الجزء الباقي.

وبالفعل تبادل الرجال تكسير تلك الأجزاء من الدرج بمطارق وأزاميل كأنهم نحاتون يعملون على حفر تمثال ويخشون تحطم كتلة الحجر بين أيديهم. حتى حانت اللحظة التي سجلت فيها الأجهزة أن ملليمترات من سمك الحجر تفصلهم عن ذلك الفراغ، فقام (يوجيه) وأحضر حقيبة متفجراته ووضعها في أقصى الحجرة بعيدا عن الدرج، ثم تناول منها بضعة مكعبات اختارها من المتفجرات محدودة التأثير، وزرعها فوق الحجر المنحوت بشكل دائري فوق الفراغ، وضبط مؤقت تفجيرها ثم فروا جميعا خارج المقبرة بل خارج النفق كله تحسبا لانهايار أي جزء منه.

سمعوا جميعهم صوت تفجير مكتوم فقام (شتيفان) وأعاد تشغيل فلتر الهواء الذي كان لا يزال خارج البوابة الأولى للمقبرة.

لم يتحمل (حامد) طول الانتظار فقرر المجازفة والنزول بعد ساعتين فقط، لم يجد ممانعة سوى من (ليندسي) التي لم تفلح في كتم لهفتها عليه وهي تحاول إثناؤه عن التعجل بالنزول... إن الفلتر بعيد عن الفتحة الجديدة ولا يدرون كم يحتاج من ساعات لتنقية الحجرة المرتقبة، بل لا يدرون أصلا مقدار ما أفلحت به المتفجرات في فتح تلك الفجوة.

ونظرت لها (أودريه) نظرات فهم الأنثى للأنثى ولم تعلق.

وأشار له (يوجيه) بالتريث قليلا ثم قام وفتح إحدى حقائبه وأخرج منها قناع تنفس ينتهي بفلتر صغير وقال له:

_ ارتده قبل دخولك المقبرة مباشرة، فإذا وجدت أن التفجير قد أظهر الفراغ الذي تحت الدرج فخذ الفلتر من خارج البوابة وضعه بجوار الفراغ مباشرة.

_ ولماذا لم نضع الفلتر عند الدرج قبل أن نخرج؟

هكذا سألته (ليندسي) بعصية قبل أن يجيبها (يوجيه) بهدوء:

_ سيتطاير الفلتر أشلاء بسبب المتفجرات.

سكتت (ليندسي) وقد أحست بالغباء، وعاد (حامد) بعد ربع ساعة وهو يهز رأسه ويشير بإبهامه علامة التمام. وكادت (ليندسي) أن

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

تهرع إليه لتحضنه لكنها تماكنت نفسها واكتفت بأن تترك دمعتين تنزلان من عينيها بغير مقاومة.

_ هل صنع التفجير فتحة كافية لنزولنا؟

سأله (سكوت) فأجاب (حامد):

_ فجوة بقطر الفراغ الذي سجلته أجهزتك، قرابة المتر فعلا.

ساعتان من الصمت قبل أن يقفز (شتيفان) واقفا فجأة وهو يقول:

_ هيا بنا، فأنا بدأت أشك في أن هؤلاء الفراعنة قد صنعوا متاهة من الحجرات الخالية حتى نفقد عقولنا... أنا سأزل.

وكان (حامد) أول الملبين لندائه، ولم يكادا يصلان إلى فوهة النفق في القبو حتى كان الباقون في إثرهم تباعا.

ووصلوا بوابة المقبرة، وقبل أن يهّم (حامد) بنزول درج المقبرة والذي اختفى شطره بفعل التفجير تاركا مكانه للفجوة الجديدة، أشار له (يواكيم) أن يتريث، ثم أخرج من جيبه جهازا لقياس نسبة الأكسجين في الهواء وقام بتشغيله، ثم جثى على ركبتيه ومد يده بالجهاز داخل التجويف، ثوانٍ وأعلن له الجهاز أن هواء الحجرة المكتشفة في حدوده الآمنة، فدخلوا تباعا داخل المقبرة وتحلقوا حول التجويف.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

أضاء (سكوت) بطارية قوية وسدد ضوءها داخل الفجوة ثم وقف وقال:

_ سنحتاج إلى سلم حبل للنزول، الغرفة الجديدة لا يقل عمقها عن خمسة أمتار.

_ هل رأيت شيئاً بالداخل؟

_ حجرة أخرى واسعة لكن تفاصيلها غير واضحة.

في دقائق كانت كل المعدات المطلوبة على أرضية المقبرة بجوار تلك الفجوة؛ سلم حبل ومصابيح إضاءة وحقائب أجهزة القياس المختلفة ووصلات كهرباء طويلة تم وصلها ببعضها البعض كي يمكن مدها إلى داخل الحجرة السفلية الجديدة وتعطي أكثر من مصدر لتغذية الكهرباء، واختاروا مصابيح إضاءة بيضاء من نوع النيون التي لا تبث حرارة قد تؤثر على محتويات المقبرة أو تحيلها فرنا حولهم!

وكالعادة أصر (حامد) أن يكون أول النازلين، في حين وقع الاختيار على (صلاح) و(براندت) في البقاء بأعلى وعدم النزول تحسباً لأية طوارئ فيقدمات يد المساعدة لمن نزلوا.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

نزلوا تباعا وتوزعوا في أرجاء الحجرة الجديدة يمدون وصلات الكهرباء ويوزعون المصابيح ويستكشفون الغرفة. ومع أول إضاءة لأول مصباح بدأت خيبة الأمل تتجمع فوق الوجوه من جديد!

حجرة أوسع من تلك التي تقود إليها، مستطيلة الأبعاد وليس فيها شيء هي الأخرى سوى كومة من الأحجار في أحد أركانها.

لم يضيعوا وقتا في الاستسلام لمشاعر الإحباط ومضوا يتحسسون جدران الحجرة وأرضيتها، ولم يضيع (شتيفان) ولا (أودريه) وقتا وإنما شرعوا في تشغيل أجهزتهم ومضوا يفحصون أرجاء الغرفة بها، دقائق وصاحت (ليندسي):

_ تعالوا أنظروا لهذه الأحجار.

ذهبوا حيث وجدوها قد بسطت كومة الأحجار أمامها.. الأحجار تحمل نقوشا هيراطيقية متفرقة.

أخذوا يقرأون ما تفرق منها، حتى قال (يواكيم):

_ الأحجار كأنها تشكل أجزاء لوحة واحدة وجرى تقسيمها.

وأخذوا يرتبون الأحجار ويديرونها يمينا ويسارا حتى تجمعت فعلا بجوار بعضها معطية لوحة متناسقة ونقوشها مرتبة.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ولأن كل من بالغرفة دارسٌ للمصريات فأخذوا يقرأون ما تحمله اللوحة وقالوا في صوت جماعي:

_ المفتاح نائم حيث هبط الزائر

علق (شتيفان) وقال في شرود:

_ أنا أعتذر عن كلامي عن أوهام لعنة الفراعنة! اللعنة حقيقية وهي مسلطة علينا الآن حتى نصاب بالخبل!

لم تتمالك (ليندسي) نفسها من الضحك ثم قالت:

_ يبدو أن الفراعنة كانوا مغرمين بأفلام هوليوود، ولأنه لم تكن هناك هوليوود وقتها فلا بد أنها كانت أفلام حضارة أطلنتس الغارقة.

رد عليها (حامد) في غضب:

_ لا تريدون أبدا الاعتراف بأن عرقا غير عرقكم كانوا سادة الحضارة والتطور، وإذ لم تجدوا أقدم منا اخترعتم خرافة أطلنتس تلك.

ردت عليه (ليندسي) معذرة وأنها فقط كانت تمزح في حين صاح فيهما (شتيفان):

_ هل هذا وقته أو مجاله؟

ولاحظ (يواكيم) شيئا فقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ النقش على الأحجار بالكتابة الهيراطيقية وليس بالهيروغليفية، فهذا يعني أن كاتبها كاهنٌ غالبا وليست لأحد كتبة الدولة الرسميين.

في حين فكرت (أودريه) بصوتٍ عالٍ وقالت:

_ هناك شيء غير منطقي بالمرّة، المعتاد أن يعمد المصري القديم لتضليل من يحاول العبث في مقابره بل أن يقدم لهم هدايا من الفخاخ القاتلة، أما أن يقدم لهم ألغازا فهذا يعني أننا بصدد شيء مختلف.

أمّن (يواكيم) على كلامها، ولأول مرة تقريبا يتفقان على رأي منذ تقابلا وقال:

_ وهذا يؤيد نظريتنا أن هناك من دفن سرا هنا وأبقى خيوطا تقود إليه على أمل أن يجده من يستحقه.

تكلم (سكوت) لأول مرة منذ نزولهم وقال:

_ أو يريد تضليلنا وترسلنا ألغازه تلك إلى حيث نلقى حتفنا.

سكتوا جميعا حتى قال (شتيفان):

_ ولماذا نترك أنفسنا أسرى حيرة الألغاز تلك؟ أليست لدينا أجهزتنا؟ فلنكمل فحص الحجرة.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وبالفعل قام هو و(أودريه) وأعمال الأجهزة فحصا في جدران وسقف وأرضية الحجرة، بينما توزع الباقون بين متفحصٍ بيديه أو بعينه أو متأملا للجميع. ومن وقت لآخر يصيح فيهم (براندت) طالبا مواكبته بالجديد وكأنه ندم على الموافقة بالتطوع بالبقاء في الغرفة العلوية.

انتهى (شتيفان) من فحصه وقال:

_ جهاز قياس الإشعاع لا يزال يقيس طيف الخرطوش.

فردت عليه (أودريه):

_ وطاقة المكان تسجل هنا قيمة أعلى مما كانت عليه من قبل، بالإضافة إلى أن أبعاد هذه الغرفة تسجل النسبة ط.

تساءل (حامد) و(ليندسي):

_ أي خرطوش وأية طاقة؟

فلم يجبهما أحد ثم قال (شتيفان) و(أودريه) في وقت واحد:

_ ولا وجود لفراغ خلف أي جزء من الغرفة.

_ وما هي النسبة ط؟

تساءلت (ليندسي) مرة أخرى فتطوع (يواكيم) وأجابها:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هي النسبة الرياضية بين محيط الدائرة إلى قطرها، وهي هنا النسبة بين محيط الغرفة إلى ارتفاعها.

رد (حامد):

_ أليست هذه هي النسبة الموجودة في هرم خوفو وغرفته؟ هل تبحثون عن شيء يتعلق بالهرم؟

لم يرد عليه أحد وأخذ الجميع يدورون حول أنفسهم حتى قطع (يوجيه) فضاء الصمت وقال:

_ لقد أنهكنا اليوم وأرهقت عقولنا، لنأخذ قسطاً من الراحة والطعام ثم لنفكر بعدها في هدوء.

سكت وسكتوا جميعاً مترددين فأكمل هو:

_ السر النائم هنا منذ آلاف السنين لن يصحو فجأة ويفر هارباً.

قالها ثم توجه إلى جبل السلم وشرع في صعوده فتبعوه واحدا وراء الآخر.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ساد الصمت من بعد أن دعاهم (يوجيه) لقسط من الراحة والطعام، واستمر سيذا حتى شارفوا على الانتهاء من الطعام إلا من همسة من هذا أو نداء من هذه على ذلك، حتى قال (حامد) فجأة:

_ أعتقد أنه أصبح من حقنا أن نعرف عماذا تبحثون بالضبط.

لم يجبه أحد فأكمل:

_ ليست هذه مجرد خبيثة أو مقبرة عادية، حتى مقابر الملوك التي اكتشفت من قبل لم تكن بكل هذا التعقيد.

رد عليه (سكوت):

_ وما الجديد الذي سيجد عندك حين تعرف؟

رد عليه بعصبية:

_ أليس من حق ثلث من بالبيت ومنهم أصحابه أن يعرفوا ما الذي يجري بالضبط؟

رد (سكوت) باستفزاز:

_ طالما ستقبضون الثمن فما الفارق لديك؟

صرخ فيه حامد وقال وهو يقف ويخطب المائدة بقبضة يده:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أهكذا ترى الأمر؟ إذن اعتبروا كل شيء لاغيا واحتفظوا بنقودكم
وتفضلوا إلى الخارج!

وقبل أن يرد (سكوت) أمسك (يوجيه) بيده مهدئا له في حين قام
(صلاح) وجذب ابن عمه من يده وقال:

_ ماذا دهاك يا (حامد)؟ تمالك أعصابك، على الأقل هم ضيوفك.

_ ألم تسمع كيف يهيننا؟

_ إن كان قد أهانك هو، فما ذنب الباقيين؟

استرد (حامد) رشده ونفخ هواء حارقا من صدره وقال:

_ اعتذر منكم يا جماعة، ولكنني أحسست أنه يتكلم باسمكم جميعا.

رد عليه (براندت):

_ هل ستصدقني لو قلت لك إن كل فريقٍ منا لا يعلم بالضبط ما
هو هدف الفريق الآخر؟

نظر له (حامد) غير مصدق وقال:

_ لكن حديث (شتيفان) عن إشعاع الخرطوش وكلام (أودريه) عن
طاقة المكان كان يوحى بأن كلا منكما يعرف بغية الآخر.

ردت عليه (أودريه):

_ وهذا كل ما يعرفه أحدنا عن الآخر، هل تريد أكثر من ذلك؟ لقد حاولت استدراج (شتيفان) وحاول هو استدراجي فلم يفز أيُّ منا إلا بتلك المعلومة من الثاني.

نظر لها (شتيفان) بدهشة فقالت وهي تشيح بيدها:

_ كان واضحا أن كلا منا يحاول استدراج الآخر في معلوماته.

وتهلل وجه (صلاح) عندما سمع ذلك وكأن ذلك هو كل ما يعنيه، وفي حين لم يتمالك (يوجيه) نفسه من الضحك غطى (براندت) ضحكاته بكفيه، في حين قال (حامد):

_ أظن أن الأوان قد حان ليكشف الجميع أوراقه ويعرف الكل هنا أهداف هذا التنقيب.

رد عليه (سكوت) في هدوء:

_ وهل ستكشف أنت أيضا ورقك؟ هل ستخبرنا بنيتك في إبلاغ السلطات ومصحة الآثار عندك بما نفعله لكن بعد أن نجد ما نبحث عنه؟

اصفر وجه (حامد) وقال متلعثما:

_ ما هذا الذي تقوله؟

ضيق (سكوت) عيناه وقال:

_ يا فتى إن خبرتي في الحياة هي ضعفا عمرك، وما مررت به من تجارب هي أضعاف أضعاف عمري، فلا تظن أنك ستتذكري علينا جميعا.

تدخل (صلاح) وقال:

_ ماذا تقول يا سيد (سكوت)؟ لا بد أن تفكيرك قد ذهب بعيدا بسبب مشادتكما معا.

_ (صلاح)؛ إذا كنت لم تفهم ابن عمك فأنا أفهمه، ما قاله منذ قليل ليس كلام إنسان حريص على المال، ولهفته على دخول كل حجرة قبلنا تفضح غيرته على آثاركم.

قال (صلاح):

_ أنت فقط لا تعرف طباع ابن عمي، هو بطبعه مندفع وحماني الأعصاب ليس إلا.

_ عموما أتمنى أن أكون مخطئا في ظنوني، وجميل أن أتت ساعة المصارحة تلك لكي أكشف مخاوفي فنتجنب أي مشاكل مقبلة.

تدخل (براندت) في الحوار وقال:

_ وبذكر لحظة المصارحة فهي فرصة كي يعرف كل فريق منا هدف الفريق الآخر بالضبط، لقد دخل التنقيب في شكل الغاز وسيكون مفيدا لكل منا أن يعرف ما يبحث عنه الفريق الآخر.

سكتوا جميعا ولم يتكلم أحد، فقال (حامد) في دهشة:

_ هل أنتم حقا لا تعرفون نوايا بعضكم بعضا؟ فكيف اتفقتم إذ ن ليلة زرقمونا أن تنقبوا سويا؟

ردت عليه (أودريه) في ضيق وقالت:

_ هل الأمر يصعب فهمه إلى هذه الدرجة؟ اتفقنا على الهدف المشترك برغم اختلاف مصالحنا، لكن هذا يبدو عسيرا على التصور بالنسبة لعقليات الشرق العاطفية.

وابتلعت ريقها ثم قالت:

_ وأنا أرى نفس ما يراه (براندت)؛ يجب أن نكشف أوراقنا في هذه المرحلة.

رد عليها (يواكيم) في هدوء:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ الأمر صار واضحا، طاقة المكان ونسبة ط؛ واضح أنكم تبحثون عن شيء يتعلق بالهرم الأكبر؛ رسومات له، خرائطه، قبر مهندسه... مفتاح يفتح لكم متاهات غرفه وأسراره.. أو شيء من هذا القبيل!

نظر له أعضاء البعثة الفرنسية في وجوم، ثم نظر له (يوجيه) في تحدّ وقرر أن يلبس نفس قبعة تذاكيه وقال:

_ وأنتم تبحثون عن مومياء ملكية، وهذا الخرطوش الذي تتحدثون عن إشعاعه هو قطعة الزجاج التي تدس أحيانا في جثة الفرعون أو جثة أحد أفراد أسرته لتؤخر تحلل جسده.

رد عليه (يواكيم) في سخرية:

_ هذا واضح من البداية، أية مومياء إذن في رأيك.

نهض (براندت) وقال في حزم:

_ هذا يكفي، نحن لم نقطع كل ذلك الشوط لكي ننهي الأمر بمثل هذه السخافات... أعصابنا جميعا مرهقة، لنرتح قليلا ولنفكر كثيرا في اللغز الذي يواجهننا.

(١٧)

لم يذق أحدهم النوم ليلتها إلا قليلا

الجميع تخلى عن حذره..

لم يعد أفراد البعثتين يأبهون لتواجد أحدهم في مقر التنقيب في
الصحراء

ولم يراقب (صلاح) التزام هؤلاء الأجانب بتعليمات الفصل بين
الجنسين

الحقيقة أن معظمهم تمدد حيث كان يجلس، ومن شعر منهم ببرد
الليل مضى تلقائيا إلى أقرب لحاف يلتحف به. ومع أصداء مكبرات
صوت الجوامع بأذان الفجر كان البيت يعج بالنشاط كأنهم أسرة
متدينة قامت لأداء فريضة صباحها.

وبغير اتفاق مسبق تسربوا وراء بعضهم حتى نزلوا جميعا الحجرة
الجديدة، ولم يمانع (صلاح) من البقاء بمفرده في الحجرة العلوية
تحسبا لنفس الطوارئ التي تحسبوا لها بأمسهم، فتمدد على بطنه
مبقيا وجهه داخل الفتحة بين الغرفتين مطالعا ما يدور بالأسفل منه
كأنه يشاهد عرضا مسرحيا من شرفة العلوية.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

أخذوا ثمانيتهم يدورون في الحجرة، ويعيد من يعيد منهم فحص حوائطها، ويكرر من يكرر ترتيب لوحة الأحجار ويعيد قراءتها.

_ ليس أماننا إلا أن نسير وراء لغز الأحجار، فالحجرة صماء تماما.

هكذا قال (شتيفان) بعد فترة، فأجابه (يوجيه):

_ ومن قال لك أننا لم نفكر طوال الوقت في حل تلك الأحجية؟

قالت (ليندسي):

_ لماذا لا نفكر جميعا بصوتٍ عالٍ؟ العصف الذهني هو أفضل ما قد يأتينا بحلول.

وتلقائيا استجابوا لوجيه اقتراحها..

(المفتاح نائم حيث هبط الزائر)

أخذوا يكررونها إما همسا وإما بصوتٍ عالٍ، حتى قال أحدهم:

_ من هو الزائر؟ إنه نحن.

ثم تداخل من بعده كلام بقيتهم:

_ وما الجديد؟

_ وجملة حيث هبطنا؟ إنها هذه الحجرة، فأين ينام المفتاح؟

_ ولماذا هذه الحجرة؟ لماذا لا تكون الحجرة العلوية؟

_ لأن الأحجية تقول حيث هبطنا ولم نقل من حيث هبطنا.

_ لا تقس لغة الأحجية المكتوبة على لسانك أنت الحالي، الأسماء الموصولة وحروف الجر وغيرهم من الأدوات اللغوية تختلف من لغة لأخرى.

_ ولقد قتلنا الحجرتين بحثا فلم نجد شيئا فيهما.

_ ذلك لأننا لم نبحث عن مفتاح، بل كنا نبحث عن منافذ وفراغات.

_ ما هو المقصود بكلمة مفتاح أصلا؟ هل تتوقعون العثور على مفتاح باب حديدي مثلا؟

سكت الجميع أمام هذا السؤال الأخير، ثم عاد العصف الذهن ليدور من جديد.

_ المفتاح يمكن أن يكون نقشا حجريا أو بابا سحريا في أي حائط أو في الأرضية.

_ لا يوجد نقش واحد في الغرفتين.

_ والحوائط صماء لا تخفي شيئا وراءها.

_ أو ربما يكون مدفونا في الأرض التي حفرنا فيها النفق.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ وكان يمكن أن نصادفه لو كنا نحفر في مسار مختلف.

_ ولكن هذه هي المقبرة وتلك هي بوابتها، هل كانوا سيدفنون
المفتاح بعيدا عنها لهذه الدرجة؟

_ ألا يزيد ذلك من صعوبة العثور على السر الذي يخبئونه؟ إذن فهذا
أمر وارد جدا.

_ معنى ذلك أن نجرف أرض البيت كلها!

_ ما هذا الإحباط!

_ لو كانوا يريدون تعقيد الأمور لما تركوا لنا رسالة الأحجار تلك.

_ هل تعرفون ما هو المكان الوحيد الذي غفلنا عنه؟

_ ما هو؟

_ بقايا الدرج الذي نسفنا نصفه كي نفتح التجويف بين الحجرتين!

وسكتوا جميعا عند هذه الملاحظة، وبغير اتفاق قام (شتيفان)
(أودريه) واللذان أصبحا لا يتعاملان إلا رسميا بعد التغيير المفاجئ
الذي أبدته (أودريه) نحوه، وحمل كل واحد منهما جهازه لفحص
التربة وتسلقا السلم إلى الحجرة العلوية وأخذا يفحصان ما تبقى من
الدرج، وبعد قليل قالوا لبعضهما البعض وكأنهما نسيا ما حصل بينهما:

_ الدرج ليس من نوع واحد من الصخور!

نزلا بتلك المعلومة للمجموعة، وبغير نقاش طويل اتفقوا على وجوب نحت ما تبقى من سلام الدرج ولكن بحذر النحات مرة أخرى، بل ربما أكثر، حتى لا يطمسوا ذلك الحجر المختلف والذي يرقد في قلب درج السلم.

عاد الرجال لينحتوا الدرج من جديد، وبحذر أشد هذه المرة كي لا ينكسر منهم ذلك المفتاح الذي لا يعرفون شيئاً عنه سوى أنه قطعة شبه مكعبة من الحجر.

وبعد ساعات من التناوب بينهم بدأت الصورة تتضح، وصاح (صلاح):

_ هذه خزنة فرعونية، بكل تأكيد خزنة.

وكان محققاً في كلامه، فشكل الخزن الفرعونية والتي تُصنع من الحجر شكلاً مألوف لمن يعمل في التنقيب عن الآثار، وقصص الخزائن التي يتم العثور عليها مدفونة في الطين أو حتى مخبأة في قلب عامود أو بناء حجري من أكثر القصص المتداولة في الصعيد.

وبدأ الحلم يراودهم أنهم سيستخرجون الخزانة ويفتحونها ليجدوها مليئة بلفائف البرديات كما هو المعتاد في الخزائن، وتقول لهم إحداها احفروا هاهنا فثم كنزكم!

وكانت اللمسات الأخيرة في تنظيف الخزانة مما يعلق بها من بقايا الحجر من نصيب (شتيفان) و(يوجيه) اللذين أظهرها خبرة كبيرة في هذا العمل... خزانة ليست بالضخمة فلا يزيد طول أطول أضلاعها عن ثلاثة أرباع المتر، ومع ذلك تبدو أثقل مما ينبغي لخزانة في مثل حجمها، حتى تعاون أربعة منهم على تحريكها من قاعدتها التي تركز عليها، وبصعوبة رفعوها من مكنها وهم يصيحون صيحات التشجيع لأنفسهم، وما إن تم ذلك حتى سمع الجميع صوت ارتطام مدوٍ بأرض الغرفة السفلية.

حُبست أنفاسهم دهشةً لثوانٍ توقف خلالها بهم الزمن، ثم تعاون رافعوا الخزانة على وضعها جانبا، في حين نزل (سكوت) و(أودريه) لتفقد ما حدث، ولم يدر (حامد) كيف يشطر نفسه شطرين؛ شطر يحرس الخزانة وآخر يستطلع ذلك الدوي، ثم قرر أن ينزل لما وجد (يواكيم) و(يوجيه) عاكفين على تفحص أرجاء الخزانة قبل فتحها.

نزل ليجد (سكوت) و(أودريه) يقفان مذهولين أمام تجويف مستطيل غائر في أعلى الحائط الشرقي والموجود أسفل سلام المقبرة التي نحتوها وقد انهار حجرٌ كان يخبئ ذلك التجويف، وأبعاده قرابة

المترين طولاً في حوالي المتر عرضاً، كأنه مشكاة عملاقة ولا تغور كثيراً في الحائط. وبعد أن شبع ثلاثتهم من تأمل المشكاة والحجر الذي تهشم ساقطاً عنها حتى تبادلوا أماكنهم صعوداً وهبوطاً مع الذين كانوا يفحصون حنايا الخزانة في الغرفة العلوية.

دقائق وصاح (برانديت) ليسمعه من بالغرفتين:

_ لنفتح الخزانة أولاً ثم لننظر ذلك التجويف، فهو يحتاج لإحضار سلم للتسلق إليه.

وبالفعل كان كلامه منطقياً للجميع، وتحلق الجميع في الحجرة العلوية حول الخزانة الكل يفحصها بطريقته؛ الخزانة مصممة تماماً، حجر أصمٌ لكنه يحمل نقشا يمكن قراءته بسهولة:

(المفتاح مخبوء في عقل قارئه والمخطئ إلى محكمة أوزوريس)

_ لغزٌ آخر وبالكتابة الهيراطيقية أيضاً.

قال (يواكيم) ذلك، فمال (صلاح) على أذن (حامد) وسأله هامساً:

_ ما هذه الهيراطيقية؟ هل هي الهيروغليفية في لغة دارسي الآثار؟

_ الهيروغليفية والهيراطيقية طريقتان لكتابة نفس اللغة المصرية القديمة، لكن الأولى أقدم وأصعب وأكثر رسمية فكانت تستخدم في

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

نقوش المقابر والمعابد، بينما الهيراطيقية أحدث وأسهل وأكثر عملية في الاستخدام.

وهز (صلاح) رأسه علامة الفهم في حين كان الباكون في وادٍ آخر يقبلون أرجاء الخزانة، وعبثا حاولوا العثور على أي مفتاح سري للخزانة أو أي جزء يمكن تحريكه فيها.. كتلة صماء بحق، حتى وقف (يواكيم) وصاح:

_ لقد فهمت!

تطلعوا إليه فأكمل:

_ الخزانة ليست تحمل النقش الذي قرأناه فحسب، إنها كتلة من الحجر كانت توازن بثقلها ذلك الجزء الذي انهار من حائط الغرفة السفلية.

وقفت (ليندسي) وقالت بحماس كأنها اكتشفت طريقة بناء الأهرامات:

_ إذن فقد كانت الخزانة تقعد بثقلها على ما يشبه عامود توازن موصول بين قاعدتها وحجر الجدار ومخبوء بشكل ما داخل الجدار، فلما رفعنا الخزانة سقط حجر الجدار.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وهرع من هرع ليعاين حيث كانت ترقد الخزانة فوجدوا فعلا نتوءا صخريا مستديرا في حجم قبضة اليد قد برز لأعلى، كأنه مقبض كانت الخزنة تجلس فوقه، وعبثا حاولوا إدارته يمينا أو يسارا أو ضغطه لأسفل أو سحبه لأعلى.

وأخذ (شتيفان) في فحص قاعدة الخزانة حول ذلك النتوء، ثم فحص حافظها الداخلية فوجد عدة نقوش منحوتة فيها؛ مسلة وصورة لأوزوريس وأخرى لرع ورسم لثعبان مع ضفدع وصورة شمس أخناتون فقال:

_ هل تفهمون أي شيء من هذه الرسومات؟

لم يجبه أحد في حين قال (يوجيه):

_ إذا لم يكن الأمر مجرد مزحة فرعونية ثقيلة فإن الأحجية التي على الخزنة تحل لغزا موجودا في ذاك التجويف الذي ظهر بالغرفة السفلية.

رد (براندت):

_ كأني أشاهد فيلما عن أَلغاز البنائين الأحرار.

رد (يوجيه) في ثقة:

_ والفراعة كانوا السلف الأول للبنائين الأحرار.

ابتسمت (أودريه) وقالت:

_ ولذلك أنت تفترض وجود لغزٍ مشطور بين الخزانة والتجويف وأن علينا حله.

رد عليها (شتيفان) وقد نسيا تماما ما كان بينهما:

_ أو أن نستمر في التفكير العلمي فنحص الأرضية التي كانت تبيت عليها الخزانة وذلك التجويف الذي ظهر.

وبالفعل قام كلٌ منهما إلى أجهزته، وتعاون (صلاح) و(براندت) على إحضار سلم ألومنيوم خفيف أنزلاه إلى الغرفة السفلية ووضعاه تحت التجويف ليصعد عليه من يريد الصعود للاستكشاف.

اختارت (أودريه) فحص قاعدة الخزانة وبقي (لشتيفان) كرجل العمل الأكثر مشقة ونزل ليفحص التجويف. وتوزع الباقيون بين صامتٍ ومفكرٍ في حل الأحجية، ثم أفاق الجميع على صوت (شتيفان) وصيحة مدوية تند منه، وكاد أن يسقط من عند التجويف لولا أن تمسك بالسلم الذي هرع (براندت) و(صلاح) ليحفظا توازنه.

نزل (شتيفان) مسرعا من فوق السلم وجلس على أرضية الحجرة، وتجمع الجميع حوله يسألونه عما حدث له، وانتظر هو حتى التقط أنفاسه ثم قال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ شرعت في فحص التجويف وأنا واقف على السلم، ولما احتجت لفحص أجزائه العلوية خطوت برجلي فوق أرضية التجويف، فلما وقفت بقدمي الاثنتين فوقها وأصبحت في جوف الحائط ظهرت أمامي فجأة نقوش حمراء في داخله، فأصابني الهلع وكدت أسقط.

_ وماذا كانت تلك النقوش؟

_ طبعا لم أقرأها وأنا بهذا الهلع.

وسكتوا جميعا يفكرون فقال (يوجيه):

_ ألم أقل لكم منذ قليل؟ الرسالة التي على الخزانة موصولة بالنقوش التي تظهر في التجويف..

ثم التفت إلى (أودريه) وقال في لهجة المنتصر:

_ الشطر الآخر من الأحجية.

ردت عليه (ليندسي):

_ وهل هذا شيء غامض؟ الغموض الفعلي فيما شاهده (شتيفان)؛ كيف ظهر له؟

رد (سكوت):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لعله لم ينتبه لوجود النقوش أول الأمر أو لعل طبقة من الرمل كانت تغطيها ثم تساقطت عنها بسبب حركته داخل التجويف.
رد (يوجيه):

_ أنا سأصعد لأتفحص الأمر.

وصعد السلم، وأمسك به (صلاح) بقوة، وما إن دخل (يوجيه) التجويف حتى ارتد منه للوراء، ثم عاد ودخله ثانية، ثم نزل ليؤمن على كلام (شتيفان):

_ لا شيء حتى تقف بقدميك فوق أرضية التجويف، بعدها تظهر النقوش.

صاحت (أودريه) غير مصدقة:

_ ما هذا؟ أنا لا أصدق هذا الهراء، أنتما تريدان بث الرعب فينا.

قال لها (يواكيم) في هدوء:

_ كنتِ لتصدقي ذلك لو كنت أنا من يزعم أمر تلك النقوش!

ثم قال لها (يوجيه) في سخرية:

_ اصعدي بنفسك كي تتأكدي.

قال (سكوت):

_ لنهدأ ولنجلس لنفكر قليلا.

قالت (ليندسي):

_ أنا يمكن أن أربط بين أحجية الخزنة وبين التجويف ونقوشه، أما مسألة ظهوره واختفائه فيصعب عليّ استيعابها.

رد عليها (يواكيم):

_ بالتأكيد تعلمين ما يحتله السحر من مكانة في ثقافة وحضارة الفراعنة.

_ وهل هذا تفسير مقنع الآن في القرن الحادي والعشرين؟

_ هل لديك تفسير آخر؟

تدخل (براندت):

_ ليس أمامنا إلا استكمال ذلك الطريق، نحاول حل الأحجية ثم نفكر فيما يربط بينها وبين تلك النقوش الغامضة.

ثم قرأ الأحجية من جديد بصوتٍ مرتفع:

المفتاح مخبوء في عقل من يقرأ والمخطئ إلى محكمة أوزوريس

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وتلقائياً نُصبت حلقة العصف الذهني من جديد..

_ محكمة أوزوريس هي المحكمة التي يمر بها الموتى حال وفاتهم كما هي مشروحة في كتاب الموتى الفرعوني.

_ إذن فالكلام واضح؛ من يخطئ سيموت.

_ يخطئ في ماذا؟ في إيجاد المفتاح؟

_ أو في استعماله.

_ ولكن أين المفتاح؟ وكيف يكون مخبوءاً في عقل من يقرأ؟ وماذا يقرأ؟

_ بالتأكيد لها علاقة بالنقوش التي تظهر في التجويف.

_ إذن فأقرب تفسير أن المفتاح موجود في النص الذي في النقوش التي تظهر في التجويف، والعثور على المفتاح فيه متوقف على ذكاء من يقرأ النص.

_ فكيف سيموت المخطئ إذن؟

_ إذا أخطأ في استعماله.

_ أو أخطأ في العثور عليه، لاحظوا أن النقوش لا تظهر حتى تقف بكلتا قدميك داخل التجويف.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هذا صحيح، وتكون المصيدة تحت قدميك وتبتلعك كما هي عادة الفخاخ الفرعونية.

_ فلماذا لم تبتلع لا (شتيفان) ولا (يوجيه).

_ لأنهما لم يقرأ نص النقوش.

_ لا بد إذن من قراءة هذه النقوش.

_ ويذهب المخطئ إلى المحكمة؟ أقصد إلى الموت؟

_ هذا إذا فسرها أو حاول حل إيجاد المفتاح، لكنه فقط سيقوم بقراءة النقوش.

_ الأفضل أن نحتاط ونفحص التجويف وأرضه جيداً كي نضمن عدم وجود أي فخاخ.

وبالفعل قاموا لفحص جوانب التجويف، فلم يظهر جهاز جس التربة وجود أية فراغات وراءه، ولم يتبين وجود أي شَرَك في أرضية التجويف حيث يقف عليها من يقرأ النقوش.

لكن من قال إن أجهزة العلم كفيلاً بتبديد غريزة الخوف وبث الطمأنينة مكانها؟ العلم ذاته ينفي عن نفسه إحاطته الكاملة بحقائق الأشياء، العلماء أنفسهم يعتقدون مبدأ اللايقين، ويبقى الباب موارباً لاحتمال الخطأ الضعيف، ومن ثقب ذاك الاحتمال يتسرب

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

الخوف إلى القلوب أو تنساب الخرافة إلى العقول، والكل شجاع وعقلاني حتى يدق ناقوس ما وراء الطبيعة موسيقى الرعب وألحان الغموض.

فمن سيأخذ زمام المبادرة؟

أنا... قال (يواكيم)، ثم قال ضاحكا:

_ أظنكم كنتم تنتظرون مني ذلك بعد جلستي الروحانية مع بيشوي وفانوس.

_ حسنا لتفعل ذلك، لكن اتل ما تقرأه بصوت عالٍ ولا تفعل شيئا حتى نفكر سويا فيه.

قال له (براندت)، وهز الجميع رؤوسهم تأمينا على كلامه.

صعد (يواكيم) على السلم الذي ظل (صلاح) متطوعا بتثبيته إذ لم يجد لنفسه مشاركة أخرى فيما يدور حوله. ودخل (يواكيم) الشق الذي لا يتسع إلا لدخول فرد واحد، وانتظر ظهور النقوش ثم شرع في تلاوتها على المتحلقين أسفل السلم تحته...

((صفيّ آتون الذي لم يدع أبدا أنه ابنه؛ كم صبوا على ذكراه من لعناتهم، فسموه مجرم أخيت آتون، وأزالوا بعده كل أثر يدل على عهده الممقوت عندهم، حتى أناشيد توحيده جعلوها صلاةً للشمس

وهو ما قالها إلا تمجيدا لرب الشمس، فلا عجب وهو مؤمن بيت فرعون بنبيّ العبيرو، لكنه كتم إيمانه وكظم أحزانه على آلام إخوته المؤمنين الذين سامهم فرعون ألوان العذاب. حتى غرق فرعون وجيشه، وعبر ابن الماء بقومه البحر ونجوا إلى الأرض المقدسة، ثم اعتلى أختاتون عرش مصر، فبنى قصره بعيدا عن وكر ثعابين آمون، وأذاع التوحيد هناك في آخيت أتون، وأرسل إليه ابن الماء نسخة من أسفاره وحكمته، فما زالت طيبة تكيد له غصبةً لآلهتها ولدينها الذي فارقه إلى دين نبيّ العبيرو الذي كان سببا في دمار جيش فرعونهم الغارق. وجاءت الملكة الأم إلى أخيت أتون تحذر ولدها من كيد طيبة، فخاف أختاتون ضياع كنوز الحكمة من بعده، فحملتها نفرتيتي زوجته المؤمنة وشريكته في تلقي نور السماء، وسارت تحمل أسفار موسى إلى حيث مأوى أسرار الصديق يوسف؛ معلم المصريين الطب والحكمة، وملاذهم يوم مجاعتهم، ومشيد الصرح الأعظم لحفظ متون حكمته. ورقدت الجميلة ورقدت أسرارها حيث يرقد السر الأعظم... فيا حظ من تفتح له يوما بوابة خزائنهم))

سكت (يواكيم) ثم قال:

_ انتهى النص!

لحظات من الوجوم على وجوه الجميع قبل أن يصيح (حامد):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ما هذا الكلام بل ما هذا الهراء؟ نبي الله يوسف هو من علم المصريين العلوم؟ بل هو من بنى الهرم الأكبر؟ إن يوسف لما جاء مصر كانت الأهرامات قد أتمت ألف عام على بنائها!

قالت (أودريه):

_ وهل هذا فقط موضع اعتراضك؟ بل النص كله تحاريف، من أول الكلام عن ديانة أخناتون.

قال (يواكيم) وهو ينزل درج السلم:

_ لماذا كل هذا الغضب؟ أنا لم أقرأ سوى ما وجدته منقوشاً أمامي.

رد (حامد):

_ نقوش هراء المقصود بها تضليلنا بل تزوير التاريخ وسرقته.

رد (يواكيم):

_ ولماذا تعتبر تلك النقوش مزورة ولا تعتبر غيرها هو المزور.

_ لأنها ببساطة تصادم كل النصوص التاريخية.

_ أو قل تصادم قراءتك أنت أو قراءة غيرك لها، فالنقوش تُقرأ أكثر منها تكتب.

_ ولم لا نقول ذلك عنك؟ تلك قراءتك أنت لما وجدته.

أشار له في هدوء:

_ هذا هو السلم وذاك هو النقش، ألسنت دارس آثار وتجيد قراءة
الهيروغليفية والهيراطيقية؟

وبالفعل قام (حامد) في تحدٍّ وصعد السلم حتى دخل التجويف
بقدميه ودهش لثوانٍ والنقوش تتراءى له من خفاء، وما إن شرع في
قراءتها حتى صاح:

_ ما هذا؟

رد عليه أكثر من واحد... ماذا عندك؟

بعد دقيقة أخذ يقرأ النقوش وهو يتهدج من الانفعال:

((أكمل أحمس مشوار أبيه سقنن رع وأخيه كامس، وطارد
الهكسوس من آخر وجود لهم في أرض إيجبتيانا، وتقدم صوب مدينة
هواريس عاصمة فرعون آخر ملوك الرعاة المندسين للأرض، إلا أن
فرعون غرق وهو يطارد قبائل من قومه يسمون بني إسرائيل
والذين فروا من استعباد فرعون لهم، وخرجوا يقودهم زعيمهم
موسى وأخوه هارون. وأمر أحمس جيشه ألا يطارد بني إسرائيل في
أرض سين فقد آثروا الخروج في سلام. ثم أمر أحمس والملوك من بعده

بحو كل أثر للهكسوس في إيجبتيانا، فما عاد لهم من وجود إلا ذكراهم الممقوتة في النفوس. ثم تعاقبت الدهور على إيجبت حتى جاءت أيام البطالمة، وفي عهد الملك بطليموس فلادفيوس قويت شوكة أبناء إسرائيل الذين عادوا وعاشوا في الإسكندرية، وبدأ علماءهم يسطون على تاريخنا، فخرجوا علينا من جزيرة فاروس الإسكندرية بما سموه الترجمة السبعينية لكتابهم المقدس عندهم، فخلعوا اسم فرعون على ملوك إيجبت الذين ما تسموا بهذا الاسم يوما، وراحوا يترصدون كتب الكاهن مانيتون السبنتيسي ويتصيدون كتبه (إيجبتيانا) التي هي أسفار التكوين المصرية التي دون فيها تاريخ إيجبت ووضع سجلات ملوكهم عبر العصور، وراحت كتب مانيتون تختفي بسطوة أحبار بني إسرائيل وبطش بطليموس، فجمعنا نحن الكهنة أبناء مانيتون نسخ أسفاره، ولم نأمن سطو بني إسرائيل على أسرار العلوم المتوارثة في معابدنا فحملناها هي الأخرى، ودفنا هذه الثروة حيث لا تصل إليها منهم يد... حيث ناووس حكيمنا الأول)).

وسكت (حامد) فانفجر (يواكيم) ضاحكا وقال:

_ يبدو أننا سننسى ما جئنا نبحث عنه ونتفرغ للمكاييدات التاريخية..

ما هذا الذي قلت بحق الرب؟

رد (حامد) بعد أن نزل:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ما قلت إلا ما قرأته، ولكنه على الأقل أكثر منطقية من لغوك الذي أتحدثنا به منذ قليل.

_ أي منطقية وأي لغو؟ فرعون اسم ملك من الهكسوس وليس لقب ملوك المصريين!؟

ثم ضحك بهلء شذقه، فقال (حامد):

_ لو نظرت فعلا إلى كتابي وكتابك المقدسين فستجد أن موسى يخاطبه يا فرعون وهذا خطاب اسم عَلَم أي اسم شخص، ولم يقل يا أيها الفرعون الذي هو المناسب لخطاب صاحب اللقب.

ابتسم (يواكيم) في سخرية وقال:

_ هل سمعت عن ملك من الهكسوس اسمه فرعون؟ بل هل سمعت عن ملك منهم طال حكمه لقرابة الثمانين عاما أو ستين أو حتى أربعين حتى يكون هو المقصود في قصة موسى منذ مولده حتى خروجه؟

_ تاريخ الهكسوس مطموس أغلبه، لكن ما أعلمه أن ملوك مصر لم يتسموا باسم فرعون، وأن من ينسب ذلك اللقب لهم يقول إن اسم فرعون مشتق من لفظ (برعا) أي القصر العظيم؛ حتى وإن صح ذلك فإن لقب برعا إنما كان أخناتون أول من استعمله.

رد عليه بثقة:

_ خطأ يا صديقي الباحث الكبير، أول مصدر لاشتقاق كلمة فرعون كان كلمة (برأون) أي ملك أون أو كبير أون التي هي أول عاصمة لمصر حتى قبل مدينة منف. ثم لو كان فرعون الخروج من الهكسوس فلماذا سيتك اليهود ثأرهم معهم ويصرفونه للمصريين؟

_ من أين جئت..

وقبل أن يكمل (حامد) كلامه صاح فيهما (سكوت):

_ سنترك مهمتنا ونتفرغ لسماع سجالكما العرقي والديني إذن!

فأكمل (براندت):

_ والأهم من ذلك؛ كيف قرأ كل واحدٍ منهما نصا لا يمت لنص الآخر
بِصلة؟

قامت (أودريه) وهي تقول:

_ سأصعد أنا هذه المرة، وليكملا هما عراكهما التاريخي، منذ متى كانت الكتب الدينية حكما على التاريخ؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وصعدت (أودريه) حتى دخلت شق التجويف، وكتمت صيحة خفيفة نددت منها وهي ترى النقوش تظهر أمامها فجأة، ثم تحولت صيحتها إلى ضحكٍ جاهدت نفسها في تمالكه كي لا تسقط من علٍ.

_ ماذا بك؟

نادوها من أسفل منها، فردت عليهم بعد غالبت ضحكاتهما:

_ لا شيء... اسمعوا:

((في البدء كان لا شيء إذ لا بدء! فالرتق بعد الفتق وهو له سبق، ومن أمشاج الطين تطورت السمكة الأولى المقدسة، ومنها جاءت كل حياة بعدها، وعلى شاطئ ماء النون زحف الجد الأول، حتى إذا ما انتصب واقفا مشى على طول ضفاف أتروعا فطابت له الحياة هنا في كيمي، فنقش الحجر وزرع الأرض، ثم نظم الأسرة الكبيرة التي ما كانت لتنتظم إلا تحت سطوة الخوف من الإله، ثم بنى الإله قصره ومعابده، ثم تناول بنيانه وتراكت أسراره وعلومه، وأغلقت دونها الخزائن... فانظر مفتاح الحجر الأول))

ثم أخذت (أودريه) تنزل درج السلم وقد عادت لتدخل في موجة أخرى من الضحك، جاهدتها حتى وصلت أرضا ثم استسلمت لها.

فمال (صلاح) على أذن (حامد) وسأله:

_ أي نون وأي أتروعا؟ وما هي تلك الكييمي؟

أجابه (حامد):

_ النون هو إله الماء والبحار عند المصريين القدماء والتي سبقت خلق الكون، وأتروعا اسم النيل عند هؤلاء القدماء وكييمي اسم مصر عندهم.

هز (صلاح) رأسه ثم سأله:

_ وما هما الرتق والفتق وأمشاج الطين؟

_ الكلام كله أغاز.

صاح (شتيفان):

_ قلت لكم بأنني أصبحت أوّمن بالسكر وبلعنة الفراعنة، ستصيبنا الهلاوس مع الوقت، وسندخل التاريخ كأول حالة جنون جماعي بلعنات الفراعين.

صاح فيه (براندت):

_ ليس هذا وقت الاستسلام للإحباط يا (شتيفان)، علينا أن نفكر بهدوء فلا يوجد شيء بغير تفسير علمي.

ردت عليه (أودريه) وقد تعافت من نوبة ضحكها:

_ وما هو تفسيرك لأن كل واحد يصعد يقرأ نصاً مختلفاً؟

سألت (ليندسي):

_ لعلكم لاحظتم ما لاحظته؟

نظروا لها في فضول فأكملت:

_ من خلال نقاشاتي مع كل واحد منكم من قبل لاحظت أن كل من صعد من الثلاثة قد ظهر له نص يماثل ما يؤمن به من أفكار وما يعتقد من أحداث التاريخ، وأستطيع تخمين أن كل صاعدٍ جديد سيظهر له نصٌ غير الآخر.

صمتوا جميعاً يفكرون ويسترجعون النصوص التي سمعوها ويقارنونها بصاحب كل نصٍ منهم وفكره، ثم قال (يوجيه):

_ كلام منطقي، ولكن كيف؟ كيف يحدث ما يحدث أصلاً؟ هل التجويف شاشة قراءة أفكارٍ مثلاً!

رد (صلاح) في ثقة:

_ القرين! قرين كل واحدٍ منا يهمس لحارس المقبرة بأفكار قرينه.

نظروا له للحظات ثم انفجر بعضهم ضاحين، ثم قالت (أودريه):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ تفكير شرقي صميم يلجأ للخرافة كلما عجز عقله عن تقديم تفسير منطقي.

رد عليها في غضب:

_ أنتِ بالذات أغشي عليكِ عندما مازحنا يواكيم وقال بأن شبعا يخرج من فوهة النفق.

احمرّ وجه (أودريه) إحراجا وغضبا من ردّ (صلاح) وهي التي لم تعتده إلا متزلفا لرضاه، ثم قال (شتيفان) بسخرية:

_ هذا تفسيرك لمحتوى النقوش، فما هو تفسيرك للنقوش ذاتها؟ كيف تظهر أصلا؟

رد (حامد) هذه المرة:

_ هل نسيت أن الفراعنة كانت لديهم علوم متطورة؟ لكن أغلبها كانت أسرارا يتوارثها كهنتهم، وقد دوّن بعضهم بعض أسرارها، ومنها جاءت كثير من علوم ومخترعات العصر، شاشات البلازما وتطبيقات الكريستال السائل مثلا مقتبسة من بردية فرعونية.

رد (شتيفان) في نبرة سخرية:

_ والفراعنة هم أول من عرفوا النسبية وفتتوا الذرة، ومراكب الشمس كانت سفنا لغزو الفضاء..

ثم غير لهجته الساخرة وقال:

_ وهذه هي مشكلتكم؛ تهربون من واقعكم بأوهامٍ إعجازية
تنسبونها لأسلافكم.

وقبل أن يرد (حامد) تدخل (براندت) وقال:

_ ولو استمررنا في نقاشنا بهذا الشكل فسنكون مثل كهنة بيزنطة
حين تفرغوا للنقاش في جنس الملائكة وكم واحدٍ منهم يستطيع المرور
من ثقب الإبرة بينما مدينتهم يحاصرها أعداؤهم.

ساد الصمت لثوانٍ حتى قال (يوجيه):

_ أقترح أن يصعد (يواكيم) و(حامد) معا، وبأي طريقة يحاولان
الوقوف معا داخل الفجوة لنرى ماذا سيظهر لهما معا، يمكن مثلا
إحضار سلمٍ آخر ويصعد كلٌ منهما على سلم.

وبالفعل تم إحضار سلمٍ آخر ووضع بجانب الأول، وصعد (يواكيم)
و(حامد)، وعندما وصلا للفجوة الضيقة تأزرا سويا للوقوف بداخلها،
فوضع كل واحدٍ منهما قدما داخل الفجوة واستند بالأخرى على
السلم، والتصقا جانبا بجانب حتى يكون وجهاهما داخل الفجوة...
وانتظرا.

وطال الانتظار فلم تظهر أية نقوش.. فانصلا نزولا.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ الأمر صار واضحاً، التجويف لن يقرأ إلا عقل شخص واحد

قال (براندت) فرد (يوجيه):

_ أو يقرأ عقليْن لهما فكر واحد.

_ وكيف سنصل للمفتاح إذن؟

_ كل واحدٍ منا سيصعد سيظهر له نقش مغاير، فكل واحدٍ منا له تصور مختلف عن الفراعنة وعن تاريخهم وحضارتهم.

_ والمفتاح الحقيقي لن يكون إلا في النقش الذي يوافق الحقيقة.

_ أو يوافق ما يراه صانع التجويف أنه الحقيقة!

_ وحتى لو وصلنا للنص المطلوب الذي يحمل المفتاح؛ ما هو المفتاح أصلاً؟ هل هو كلمة مثلاً في قلب النقش؟

قالت (ليندسي):

_ والأهم أننا لم نعرف كيف سنستعمل المفتاح، فلو كان المفتاح كلمة من أحد النصوص وعرفنا أنها المفتاح... فماذا بعد؟

رد (شتيفان) ضاحكاً ومعرضاً بكلام (حامد) عن علوم الفراعنة:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ يمكننا أن نضغط على الكلمة كأنها زر، أو لعل التجوييف شاشة تعمل باللمس.

نظر له (براندت) معاتبا ثم قال:

_ والآن، ماذا تقترحون؟

قالت (ليندسي):

_ أقترح أن يصعد كل واحد منا ويقرأ النقش الخاص به، بعدها يمكن أن نجد فيهم فكرة مشتركة قد نصت عليها النقوش، فمن غير المعقول أننا جميعا مختلفون، أو حتى نعثر على كلمة مشتركة تكون هي المفتاح.

بدا كلامها معقولا خاصة أن كلا منهم كان متشوقا ليعاين ما يخبئه له التجوييف.

فعقبت (أودريه):

_ ويجب أن ندون نص كل واحد منا لدراسة النصوص بدقة.

ثم سأل (سكوت):

_ فإذا وصلنا للكلمة المفتاح، فكيف سنستعمله إذن؟

رد (يوجيه):

_ دعونا نصل للمفتاح أولاً، فحكمتكم الإنجليزية تقول لا تعبر جسراً قبل أن تصل إليه.

ابتسم (سكوت) في رضا وقال:

_ اسمحوا لي أن أصعد أنا إذن.

وقام وتسلق السلم في رشاقتة المعتادة منه وغير المعهودة بمثل سنه الستيني، ولما ظهر له النقش قال بصوت عالٍ:

_ هيا اكتبوا

((مثلث العظمة الذي تدعي نسبه جميع الأمم، وهو المرفوع مكانا عليا لكثرة ما درّس وعلم، أول صاحبٍ للقلم وأول دارسٍ لبروج السماء، باني هياكل مجد الرب في أقطاب الأرض، جامع أصول الحكمة في هيكله الأكبر، تجليات حكمته في عرفانيات أبداله تحمل مشاعل النور لتبدد ظلمات الإنسانية، من عرف أبداله اهتدى، فاشع فأنت في حضرة تلميذه الأول، على تابوته كلماتٌ حكيمةٌ كتبتها اليد الفانية، تجلت باقية على مر البشرية، مضمخة بيلسم الأبدية الذي أبدعه المُعلّم الأكبر، لم تكشفها عيون الرائحين الغادين في خضم الحياة المظلمة، فسرها في أمان تحت أقدام هيكلها الأول))

ابتسم (يوجيه) وقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ نصُّ هرمسي بامتياز، لقد أصبحت أثق في قدرات خادم التجويف
وبدأت أصدق كلام (صلاح) عن القرين.

علقت (أودريه) مبتسمة هي الأخرى:

_ لكن النقش لم يبين لك من هو تلميذ هرمس أو بديله الذي على
تابوته كتبت كلمات الحكمة.

رد (سكوت):

_ لكنها كلمات من الإتقان والفصاحة بحيث لا يشك أحدٌ في أنها من
صنع خيالي العقلي.

رد (يوجيه):

_ من قال ذلك؛ إن النصف الأخير من النص بدءاً من (الكلمات التي
كتبتها اليد الفانية) هو نصُّ من أشهر متون هرمس، وما عدا ذلك
فهي أفكارك عن عظمة هرمس وتعليمه للبشر وتشبيده للهرم الأكبر
وعرفانيات الصوفية الإشرافية عند ورثته وأبداله الخ الخ.

همس (صلاح) في أذن (حامد):

_ هل فهمت شيئاً؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أنا أسمع عن هرمس هذا مثلث العظمة وكلام البعض عن أنه الإله (تحوت) أو هو النبي إدريس، أما عرفانيات الأبدال وهياكل الرب وبلسم الأبدية فهذه طلاسم بالنسبة لي.

وقبل أن يسترسل (سكوت) كما اعتاد في تمجيد جماعته قال له (يوجيه):

_ اتفقنا ألا ندع شهوة الكلام تلهينا عن هدفنا.

رد (سكوت) مبتسما في سخريّة:

_ إذن تسلق وأرنا ماذا يصور لك عقلك الماسوني الباطن.

وبينما يتسلق (يوجيه) السلم همس (صلاح) ثانية:

_ هرمسية وماسونية؟ عمّ يتحدث هؤلاء؟

سكت (حامد) ولم يعقب حتى جاءهم صوت (يوجيه):

_ هيا سجلوا:

((لم نكن نحن البناة الأحرار ليستعملنا رعمسيس الثاني سارق صروح أسلافه، بل نحن من استعملناه. سخر لنا أمواله كي نبني له صرحا يفوق معابد أسلافه الذين محا أسماءهم ونقش اسمه مكانهم. وفي البيراميس الأكبر وضعنا في حجراته خلاصة كل علومنا ودفنا تحته كل

أسرارنا، ولم نكمل بناء العين العلوية التي هي أهم أجزائه، فلما اكتشف خدعتنا كنا قد اختفينا من كل إيجبيت، فصب سوط عذابه على قومنا الذين سخرهم عبيدا في بناء البيراميس، حتى نجا بهم النبي موشيه وغرق الرعمسيس، ثم خلفه ابنه مرنبتاح فمحا كل ذكر لنا ولقومنا، وادعى غزوه وتأديبه للعبيرو كما ادعى والده من قبل النصر في حروبه. وبرغم غضب مرنبتاح نجحنا في التسلل إلى إيجبيت وحملنا مفاتيح أسرار البيراميس وأسرار العين العلوية فدفناها عند قدمي معلمنا الأول، ثم شيدنا الصروح وبنينا الهيكل السليماني، لكن السر الأعظم ما زال عند الصرح الأكبر، فتحت القدمين ثم المفتاح الأول)).

ضحك (حامد) في هستيريا من الغيظ وقال:

_ وأنا من كنت أتهم نص (يواكيم) بالتحريف؟ فما هنا التزوير بكل صلافة وفجور!؛ الماسون هم من بنوا الهرم أيام رعمسيس وباستخدام أيدي اليهود العاملة؟! والجزء الناقص في قمة الهرم ليس جزءا تهدم بفعل الزمن بل هم من تركوه عنوة حتى يأتي اليوم الذي يضعون فيه العين الماسونية في قمته؟! لا توجد كلمة واحدة تصلح لوصف هذا الهراء والتزوير وسرقة التاريخ.

رد عليه (يوجيه) بهدوء:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ اغضب كما تشاء وتلفظ بما تريد فاللفظ الغاضب دليل انعدام
الحجة، وإلا هاتِ دليلا واحدا ينقض نص النقش الذي هو بالمناسبة
ليس كلامي أنا.

_ ألف دليل وليس دليلا واحدا.

_ يكفيني دليل واحد.

رد (حامد) في استهزاء وسخرية:

_ النقش الذي ظهر لي؛ أليس هو نصٌ ينقض نصك؟! نقشٌ بنقش
ونصٌ أمام نص.

تدخل (براندت) في الحوار:

_ هذا يكفي، بعد أن نجمع كل النصوص سيكون لدينا متسع من
الوقت لنضرب النقوش والنصوص ببعضها البعض.

وقبل أن يرد أحدٌ منهما قام ليصعد هو، وفي دقيقة كان يأتيهم صوته
ممليا عليهم:

((يتوارث كهنتنا أسرارهم ويتناقلون أخبارهم، يقولون إنه كانت لهم
حضارة فوق خيال أي إنسان، وكانوا يسكنون أرضا يسمونها أطلنتس
في بحر أطلس الغربي العظيم؛ كانت جزيرة عظيمة البنيان والمرافق،
لكن وفرة الثراء والرفاهية كانت سببا في طغيانهم، فعاقبتهم السماء

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وأخذ بحر أطلس العظيم من حولهم في الطغيان عليهم حتى أيقنوا قرب الغرق، فحمل حكماؤهم مفاتيح حكمتهم ومتون علومهم ورحلوا بها، فمنهم من ذهب غربا إلى الأرض المجهولة، ومنهم من يم وجهه شرقا حتى جاؤوا إلى هنا أيام الملك العقرب، ووجدوها أرضا صالحة، فبنوا مراصد السماء الثلاثة، واختصوا المرصد الأكبر بعنايتهم فجعلوه سجل علومهم وحكمتهم المدفونة والمخبوءة عن قصور العقول عن الإحاطة بها، وإنما نأخذ من فيض حكمتهم بقدر ما تطيق أفهامنا وتتطور، حتى يأتي يومٌ نكون فيه أهلا لحمل المفتاح الأول)).

وكالعادة يضحك (حامد) في مرارٍ وسخرية ويقول:

_ كالمعتاد؛ لا تقبلون نسبة أي حضارة أو علوم إلا لعرق من أعراق بلاد الشمال؛ حضارة العرب مرجعها فلاسفة الإغريق، والحضارات الأقدم من الإغريق كحضارتنا المصرية فإنما مرجعها إلى قارتكم الغارقة المزعومة أطلنتس.

رد (براندت) بهدوئه المعتاد:

_ إذا كان لك أن تصدق مزاعمك عن بردية البلازما وعلوم الفراعنة التي هي أصل كل حضارة فلا عجب أن يؤمن غيرك بحضارة أطلنتس، كما أن هذا الكلام ليس بجديد فقد قاله هيروودوت وأفلاطون.

_ واستعلاؤكم قديم قدم هيروودوت وأفلاطون.

وقبل أن يسترسلا في سجالهما قال (يوجيه) (لشتيفان)

_ دورك.

رد عليه في حزم:

_ أنا لن أشارك في هذا السخف! لن أترك كيمياء الأقدمين تتلاعب بعقلي وتلبس عليه أوهام مخدراتهم.. كل هذا الذي نراه وهم، نحن لا ندرى أي غاز هلوسة قد استنشقناه بسبب تهاوننا في تهوية هذه المقبرة اللعينة. ما تتصورون أنه رسائل حراس التاريخ لكم إنما هي تصورات عقولكم وأفكارها وقد استفرغتها منكم أسلحتهم الكيميائية، غازات لا تقتل كما عودونا بل تصيب بهذا الجنون الذي نمارسه الآن.

رد عليه (يواكيم):

_ أنا بنفسي قست نسبة غازات الهواء قبل أن نزل هاهنا.

_ أنت بالذات لا أستبعد ضلوعك الخفي في كل ما نحن فيه؛ تنبؤاتك الخارقة والتي تصدق بشكل مدهش، وطقوس السحر التي مارستها أمام فانوس وبيشوي، وتكهنك العجيب بالملفات المخبئة في هذه المقبرة، كل هذا يؤكد...

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قاطعہ (یواکیم):

_ كل هذا يؤكد أنك فعلا قد استنشقت جرعة محترمة من غازات
الهلوسة.

أشاح (شتيفان) وجهه بعيدا وسكت، فقامت (ليندي) وهي تقول
ضاحكة لتلطف الجو:

_ أما أنا فأحب أن أعرف كيف ستتلاعب بي كيمياء الأقدمين
وأسحارهم.

وبخفة تسلقت السلم إلى حيث الفجوة، وقبل أن تخطو داخلها
أحست بأنهم جميعا لا زالوا شرودا في المشاحنة التي دارت بين
الألمانيين فنادت:

_ أَلن تسجلوا ما سأتلوه عليكم؟... (حامد)؛ هل تسمعني؟

وجاءها صوت (حامد):

_ أنا معك، هيا بنا.

وقفزت داخل الفجوة وكأنها طفلة تقفز داخل لعبة لآلة الزمن ثم
قالت:

((الكل على صوابه والكل خطأ عند الآخرين، أخناتون هو إبراهيم وموسيه ويوسف كما أنه ابن الإله آتون، وفرعون العبيرو هو تحتس وأمنحوتب ورعمسيس ومرنبتاح وملك الهكسوس في ذات الوقت، والبيراميس هو مقبرة خوفو ومرصد السماء ومخازن غلال يوسف ومفتاح أسرار أطلنتس، وأيمحوتب هو وزير وحكيم ورسول من السماء، وأبو الهول نحته خوفو وجيديف رع وخفرع، وخوفو اسم للملك باني الصرح الأعظم وصفة الجلالة للإله الواحد، وأوزوريس رسول وإله، والآلهة ثالوث وثامون وتاسوع ومئات كثيرة وواحدٌ أحد، والنقش والبرديات حجة على أسفار السماء ولا قيمة لها في ذات الوقت.. لكن الحقيقة واحدة والتاريخ واحد، والكل سيبقى في التيه حتى يقيم أحدهم حجته على الجميع أو يجتمعوا على كلمة أخيرة)).

_ أعتقد أن الرسالة واضحة.

هكذا حطم (سكوت) حاجز الصمت الذي خيم على الحجرة بعد نزول (ليندسي)، ثم سكت قبل أن يردف:

_ إما أن نتفق على المستحيل الذي اختلف فيه علماء المصريين ونتجمع على الذي قلما أجمعوا فيه على رأي واحد، وإما سنبقى تائهين عما نبحت عنه.

رد (براندت):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ والأهم من ذلك أن يكون ذلك الرأي منا هو الصواب الذي يوافق الحقيقة التي يعرفها كاتب تلك الرسائل...

ثم أكمل وهو يشير بأصابع يده في دوائر:

_ أيا كان ذلك الكاتب؛ عفريت أو حارس أو ما شابه.

ابتسم (يوجيه) في سخرية وقال:

_ هل سنحسم هنا ما اختلف عليه علماء المصريين طوال عقود بل قرون؟

ردت (ليندسي):

_ على الأقل لدينا عامل إجباري يدفع كل واحدٍ منا لتنحية معتقداته وتصوراتهِ المسبقة جانباً، ثم يتجرد للبحث عن الحقيقة وصحيح التاريخ.

قالت (أودريه):

_ وبفرض حدوث ذلك الأمر الصعب إن لم نقل المستحيل، وتجردنا جميعاً من سابق تحيزاتنا الفكرية، فأين سنقرأ تلك الحقيقة؟ هل سنجدها في النقش والبردية التي يطعن نصفنا في مصداقيتها وصحة قراءتها؟ أم في الأسفار المقدسة التي إن آمن بها أحدنا كفر الباقون بحجيتها؟

(ليندسي):

_ لا بد أن جزءاً من الحقيقة في واحدٍ منها، وربما جزء آخر عند واحدٍ آخر، والصورة تكتمل بضم الأجزاء الصحيحة... فقط إن تجردنا للحقيقة.

قال (براندت):

_ فمن أين نبدأ إذن؟

وكانت كلمته تلك بمثابة إشارة البدء لكلٍ منهم أن يدي دلوه في بئر ما يعتقد أنها الحقيقة، وعبثاً خرجت الدلاء بشيء من الماء، فلقد تقاطعت حبالهم مع بعضها وتشابكت حتى تفاقمت عقدتها وعلقت الدلاء جميعاً داخل جوف البئر.

وفي وسط الحوار المتشابك أطرافه سأل (يواكيم) فجأة:

_ ألم تلاحظوا شيئاً في نقش (ليندسي)؟

نظروا إليه مستفهمين فقال:

_ آخر جملة، والتي تقول: أو يجتمعوا على كلمة أخيرة... لقد خيرنا النقش بين الوصول إلى الحقيقة أو أن نجتمع على كلمة واحدة أخيرة.. فما هي تلك الكلمة في رأيكم؟

(ليندسي):

_ لعله يقصد الاتفاق على رأي واحد في قضية بعينها؟

(يوجيه):

_ لا أظن؛ فكل القضايا تتشابه مع بعضها البعض وتؤدي إحداها إلى الأخرى.

لمعت عينا (حامد) وقال:

_ أظن أنه يقصد لفت نظرنا إلى الكلمة الأخيرة في النقوش كلها وهي المقصودة بالاتفاق حولها.

صفق (يواكيم) تصفيقة عالية بيده وقال:

_ أحسنت! هذا بالضبط ما كدت أن أصل إليه وسبقته أنت بذكره.

ابتسم (حامد) ابتسامة رضا بينما سارع الآخرون إلى مقارنة النصوص التي دونوها فقال (يوجيه):

_ بوابة خزائهم، ناووس حكيمنا الأول، الحجر الأول، هيكلها الأول، المفتاح الأول، المفتاح الأول... هذه هي الكلمات الأخيرة في النصوص.

(أودريه):

_ تشعر وكأن الكلمات متقاربة في معناها وفيم ترمي إليه.

وبنفس طريقتهم التي اعتادوها في العصف الذهني أخذوا يستعصرون الكلمات في استخراج ما تخبئه وراء حروفها، وأخذوا يقيسون المفتاح الأول من الهيكل الأول والحجر الأول، حتى سكتوا جميعا وأحدهم يهتف:

_ المفتاح في البوابة الأولى!

وتجمدوا لثوانٍ قبل أن يهرعوا جميعا صعودا إلى بوابة المقبرة والتي لم يلتفت إليها أحد منذ أن ركلها (سكوت) و(يواكيم) فتوسدت أرض المقبرة. وكالعادة وجدوها حجرا أصمَّ يخلو من أية نقوش، لكنهم كانوا قد حفظوا الإجراءات، فتعاورتها أجهزة (أودريه) و(شتيفان) بالفحص، وبسرعة جاء جوابهما معا.

قطعة من المعدن تكمن في قلب كتلة الحجر.

وبسرعة بدأت أدوات نحتهم تعمل في قلب الحجر لاستخراجها منه، ولأنها قطعة من المعدن فقد كانوا أقل حذرا في النحت، وسرعان ما بدأت أولى معالم ذلك المعدن المنشود في الظهور وخلال دقائق بعدها كان المفتاح يستلقي أرضا عاريا من رداء الحجر الذي كان يلفه، ومن قلب البوابة الحجرية المستطيلة تم استولاد ذلك المفتاح؛ قطعة من

البرونز أكبر قليلا من كف اليد وعلى شكل مثلث كأنها أحد أوجه الهرم وفي قلبها ثقب دائري.

_ مثلث في قلبه دائرة؛ أي رمز فرعوني هذا؟

سأل (شتيفان) فلم يجبه أحد، ثم وقف (يواكيم) فجأة وهو يفرقع إصبعيه الإبهام والوسطى ببعضهما كأنه يقول؛ وجدتها. ثم حمل المثلث البرونزي الذي لا يزيد طول أي ضلع له عن الربع متر ثم توجه به إلى قاعدة الخزانة المنحوتة في قلب السلام، وبالضبط كانت الفتحة الدائرية في قلب المثلث على مقياس المقبض الصخري الناتئ حيث كانت تجلس الخزانة.

وتذكر (شتيفان) النقوش التي لاحظها داخل حافة تلك القاعدة، فوجه أنظارهم إليها ولما التفوا حولها قال:

_ إذن المطلوب أن ندير المقبض الحجري برأس المثلث نحو النقش الصحيح، ولكن أي نقش هو؟

أخذت (ليندي) تقرا النقوش تلك فقالت بصوت عال:

_ إنها رسومات؛ مسلة وأوزوريس ورع وثعبان يلتف حول ضفدعة وشمس أخناتون، وعلينا أن نختار بناء على كل ما قرأناه في التجويف.

ردت عليها (أودريه):

_ وبما أن النص الذي ظهر لك كان هو النص الحاسم، لأنك بحسب النظرية أكثرنا حيادية فيما تؤمنين به حيال الفراعنة، وكما عثرنا على بداية المفتاح في النص الخاص بكِ فغالباً سنعثر على تكملة المفتاح فيه أيضاً.

وشرعوا للمرة العاشرة يتأملون في النص الخاص بها وفي النصوص الأخرى أيضاً، حتى قال (يواكيم) مرة أخرى:

_ لاحظوا أن أكثر النصوص تتكلم عن أفكار أيديولوجية ومعتقدات دينية، وفي نص (ليندسي) سنجده يقول؛ والآلهة ثالوث وثامون وتاسوع وآلهة كثيرة..

فقاطعه (شتيفان) وقال مكملًا لكلامه:

_ وإذن فالمطلوب منا اختيار ما يريده كاتب النص؛ فأوزوريس رمز للثالوث الإلهي المكون منه ومن إيزيس وحورس، ورع يرمز لتاسوع آلهة هليوبوليس..

وأكمل (يوجيه) وقال:

_ والثامون هم ثامون آلهة الأشمونين والذين هم أربعة ضفادع وأربع حيات، ولأننا في الأشمونين فأنا أرجح رمز الضفدع الذي يلتف حوله شعبان.

رد عليه (يواكيم):

_ أو نختار شمس أختاتون الذي نبحت عن زوجته ودارت حول قصته كثيرٌ من نصوص التجويف.

رد عليه (سكوت):

_ أو أوزوريس الذي هو إدريس وهرمس، وهو المذكور في الأحجية الأولى بأن المخطئ سيذهب إلى محكمة أوزوريس.

فقال (براندت):

_ وماذا إن كان صانع المفتاح يقصد الآلهة الكثيرة، لقد كان في مصر القديمة أكثر من ألفي مقدس.

وفي وسط ما يتداولون وجهات نظرهم، فوجئوا (بحامد) يقوم بتحريك المثلث وهو يقول:

_ المسلات أصابع التوحيد المشيرة للسماء مثلها مثل الأهرامات، وكلمة (نتر) الفرعونية التي يقرؤها بعضهم على أنها تعني إله إنما تعني في الحقيقة سماوي أو منتسب للسماء...

وعندما وصل (حامد) برأس المثلث لرسم المسلة أكمل قائلاً:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أي أنها تعني صفة للإله الواحد الذي تشير إليه رؤوس المسلات والأهرامات.

ثم ضغط المثلث لأسفل فانضغط هو والقرص معه، وقبل أن يصيحوا فيه بالتريث فيما يفعل صرخوا بعد أن أخذتهم هزة قوية!

(١٨)

كانت هزة واحدة قوية ثم هدأت، ثم تبعها صوت ارتطام عنيف يأتي من وراء الجدار المقابل للجدار الذي فيه الفجوة في الغرفة السفلية، التفتت الرؤوس كلها لأسفل نحو ذلك الجدار وتوالت أصوات الارتطامات تأتي مكتومة من ورائه، كأنها أحجار ثقيلة تتساقط من خلفه، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على النزول لتلك الحجرة فضلا عن تفحص الجدار بالأجهزة أو حتى باستراق السمع منه.

وتوقفت الارتطامات ثم تلاها صوتٌ غريب، كأنه صوت شلال ماء ساقط، بدأ قويا في البداية ثم أخذ في الضعف رويدا حتى تلاشى تماما بعد دقائق قليلة.

صوت سكون ساد المكان فجأة كأنهم توقفوا عن التنفس، حتى دقائق قلوبهم وساعاتهم امتثلت هي الأخرى لدواعي الصمت، فلم يدروا كم مرّ من وقت حتى نطق (شتيفان):

_ سأنزل وأتفقد ذاك الجدار.

ونزل بالفعل ثم خطا إليه خطوات ثم ارتد كأنه تذكر شيئا، ونظر يمينا ويسارا حتى وجد حقيبة أجهزته فحملها وتوجه إلى الجدار مرة أخرى.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وقف أمامه كأنه يفكر فيم يصنع ثم هز رأسه كأنه يستجمع شتاتها
ودس يده وسحب أحد أجهزته.

وضع مستشعر جهاز الموجات الصوتية على كل نقطة من الجدار
خطرت بباله، ثم هتف قائلاً:

_ فراالغ.. الصمت الذي كان وراء الجدار صار فراغا.

ثم التفت إلى (أودريه) وكأن شحناء لم تكن بينهما منذ ساعات وقال
في فرح:

_ هاتِ جهازك يا (أودريه) وتعالِ لتتأكدي بنفسك.. فأنا أصبحت لا
أثق في قواي العقلية بعد الذي رأيت في هذه المقبرة.

وبالفعل استجابت هي الأخرى وأعملت جهازها على أرجاء الجدار
ثم هزت رأسها مؤمنة على كلام (شتيفان).

قال (يوجيه):

_ إذن فتلك الارتطامات وأصوات الانهيارات التي كانت تأتينا قبل
قليل هي من صنع المفتاح الذي وجدناه وبسبب صواب اختيار
(حامد)، وكأن كتلا من الصخر وأكواما من الرمال انهارت من خلف
الجدار..

في حين تساءل (يواكيم):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ترى هل لو كان اختيار (حامد) خاطئا، ماذا كان سيحدث حين
يضغط على المفتاح؟

قاطعته (سكوت) وهو يقول:

_ هل سنقضي باقي أيامنا نتحدث؟ هيا لنحضر المعاول والمطارق

وفي دقائق كانت عدة معاول ومطارق تأخذ مكانها على أرض الحجرة
السفلية، وأخذوا يتشاورون في نقب الجدار؛ كيف يكون ومن أين
يبدأون، واتفق رأيهم على نقر فتحة صغيرة فيه يولجون منها المنظار
يستطلعون به ما وراء الجدار.

وأمسك (صلاح) بالمشقاب الكهربائي بعد أن وضع فيه إزميلا طويلا، وفي
دقيقة كان قد صنع ثقباً كافياً، وما إن أدخلت (أودريه) منظارها
داخله حتى صرخت في فرح:

_ المقبرة!! لقد وصلنا

وتزاحم الجميع ليلقي نظرة على ما تصوره الكاميرا قبل أن يهتف
فيهم (براندت) ضاحكاً:

_ هل سنكتفي بصور الكاميرا؟ هيا معي نزيل ذلك الجدار.

وقبل أن يندفعوا لحمل معاول الهدم قالت (ليندسي):

_ والتهووية؟

صمتوا جميعهم فجأة، ثم قال (سكوت):

_ لقد كانت هناك أكوام من الرمال والصخور خلف الجدار.

ردّ عليه (يواكيم):

_ لكن خلف تلك الأكوام تكمن حجرة المقبرة، ويجب تنقية هوائها جيدا لأنها أكثر مكان يمكن أن يحتوي جراثيم وميكروبات.

ثم اتفقوا على خطة لتهووية الغرفة الجديدة، فرسموا مستطيلا بالطبشور على الجدار كأنه باب، ثم قاموا باستعمال الأزاميل اليدوية والكهربية بإزالة طبقات من ذلك المستطيل حتى نحف سمكه وصار قابلا للنقب بسهولة، ثم أنزلوا فلتر الهواء أمامه، وصعد الجميع لأعلى في حين تطوع ثلاثة منهم فحموا أنوفهم بأقنعة هواء وقماش مبلل، وبالطبع قرروا ألا يستعملوا المتفجرات هذه المرة كي لا تؤثر على أي شيء في المقبرة، ثم أمسكوا مطارق ثقيلة وضربوا ذلك الجزء المستطيل ضربات قوية فانهار تحت وطأتها، فاستداروا صعودا بأقصى سرعتهم، في حين قام زملاؤهم بتشغيل الفلتر.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وصعدوا جميعا لصالة البيت، وما إن دخلوها حتى انفتحوا في الصراخ والفرح، وأخذ بعضهم يحتضن البعض الآخر، حتى صاح فيهم (يواكيم):

_ على رسلكم قليلا، نحن لم نمسك شيئا بأيدينا بعد، ومن يدري؟ لعل ما نراه في المنظار خدعة أخرى من خدع الفراغة!

صاحوا فيه بغضبٍ مازح وأسرع بعضهم لضربه في مرح، واستمر جو الفرح لدقائق قبل أن يصيح (يوجيه):

_ ما أخبار الجوع لديكم؟

وفي ثوانٍ كان يواكيم يزاحم أودريه وليندسي في المطبخ لإعداد طعام الغداء وهم يتغنون ببعض الأغاني التي حفظوها من كثرة ترداد مسجل (صلاح) لها أثناء عملية الحفر، وأثناء الغداء قال (سكوت):

_ نسينا إحضار الشامبانيا لكي نحتفل عند دخول المقبرة!

وتعالت صيحاتهم إعجابا بالفكرة حتى وقف (حامد) وقال وهو يشير بيده في حزم:

_ عفوا يا جماعة، لا دخول للكحوليات في بيتنا... أرجو أن تعذروا اختلافنا عنكم.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هزوا رؤوسهم في تفهم ولم يبد عليهم الامتعاض أو الضيق، فقال
(صلاح) ملطفا للحوار:

_ سنعد لكم أنا و(حامد) مشروبات مصرية نحتفل بها جميعا.

صاحت (ليندي) في طفولة:

_ أنا أعشق مشروب العرقسوس!

ثم قضاوا ساعات انتظار تهوية المقبرة في الحديث وألعاب الورق،
وكلهم بلا استثناء ينظر كل قليل في ساعة يده أو ساعة هاتفه
المحمول، وكأنهم يستعجلون مرور الساعات بل الدقائق.

وفجأة وجدوا (حامد) و(صلاح) يقفان مذعورين وكأن ثعبانا قد
لدغهما:

_ ماذا بكما؟

سألوهم جميعا في لهفة، فأشار لهم (حامد) بالسكوت وقال:

_ أنصتوا..

وبالفعل كانت سيارة تدور خارج البيت تطوف شوارع البلدة
بمكبرات الصوت وهي تعلن:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ المجد لله في الأعالي؛ انتقل للأمجاد السماوية (بيشوي) و(فانوس)
ابنا المتنيح دميان إثر حادث أليم صباح اليوم!

عاد (صلاح) من خارج البيت يجر أقدامه جرا وكل معاني الدهشة
والحزن مترجمة فوق ملامحه، وما إن دخل حتى هرع إليه (حامد)
يسأله الخبر الذي ذهب في استقصائه ولم يتمكن من الذهاب معه
حتى لا يتركان المنزل سويا.

ألقى (صلاح) بجسده فوق أقرب كرسي وقال:

_ كانا يستأجران سيارة أجرة صباح اليوم لتقلهما إلى مدينة المنيا،
وبسبب الشبورة المائية سحقتهم سيارة نقل وماتوا ثلاثتهم؛ بيشوي
وفانوس والسائق.

وظهرت إمارات الحزن على وجوه الجميع وطفرت دمعة من عين
(ليندي)، في حين جلس (حامد) ودفن وجهه في كفيه طويلا ثم قال:

_ يبدو أن لعنة المقبرة قد عملت مبكرا.

وقفت (ليندي) إلى جواره وربت على رأسه وهي تقول:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ (حامد): لا تدع الحزن يشوش أفكارك ويطيّش بعقلك، أنت تعرف مدى خطورة طرقكم السريعة وبالذات هنا في الصعيد، أنا في كل مرة كنت ارتاد فيها طريق المنيا أو ملوي أتلو صلواتي.

وتدخل (يوجيه) في الحوار وقال:

_ سنأخذ جميعا راحة بقية اليوم وسنؤجل نزول المقبرة إلى الغد.

ثم قال موجهها كلامه لصلاح وحامد:

_ هل تقترحان أن يذهب أحدٌ منا لحضور قداس الوفاة؟

وفهم (حامد) و(صلاح) أنه سؤال اعتذاري عن عدم الحضور، فما هو وجه الصلة التي تربطهم بالمتوفين؟ فردّ (حامد) وقال:

_ لا أظن أن هناك داعيا لذلك، فمن تعرفونهما قد تنيحا أقصد ماتا، ولا أحد من أهليهم يعرف بأمر عملهما معكم، فمن ستعززون؟

وبالفعل قام أعضاء البعثتين بعزاء (صلاح) و(حامد) عن وفاة صديقيهما، ثم اتفق (حامد) مع (صلاح) على تناوب الذهاب إلى القداس.

(١٩)

كان المطلوب قليلا لإعداد المقبرة للدخول؛ توسيع فتحة الجدار وهذه تكفلت بها بضع دقائق من أعمال المطارق فيه حتى انهار نصفه تقريبا، إذ كان جدارا مبنيا ليكون كالستار الحاجز لأكوام الرمل والحجر التي كانت وراءه ولم يكن منحوتا في الصخر كباقي المقبرة. ثم حملوا بعض مصابيح الإضاءة ودخلوا بها داخل الغرفة الجديدة. وتعتمد (حامد) كالعادة أن يكون هو أول شخص يدخل حجرة المقبرة، وهو يقول في نفسه:

_ المقبرة أسفل بيتي وهي تخص أسلافي؛ هل هناك سببٌ أقوى من هذا؟

تخطوا بأرجلهم أكواما صغيرة من الرمال والحجارة كانت وراء الجدار جراء الانهيارات التي سمعوها، وبدت وكأنها ملأت أخدودا في الأرض تم حفره لابتلاعها.

ثم كانت المفاجأة في انتظارهم!

جدران المقبرة وقد تزينت بنقوش ورسومات

خزانات كثيرة رصّت في صفوف وفوق بعضها البعض فاحتلت نصف مساحة الغرفة الجديدة، وفي النصف الآخر رقد صندوق خشبي

مستطيل كبير ذو نقوش بديعة ومطعم بالذهب، توجه إليه
(شتيفان) بمصباحٍ في يده وما إن أخذ يقرأ ما عليه حتى صرخ
كالمجنون:

_ الجميلة أتت!! الجميلة أنت!! نفرتيتي الجميلة ترقد هنا!

وتوافدوا بلهفة ليقروا خروطوشة الاسم التي توسطت النقوش على
الصندوق، وقبل أن ينجرفوا في الفرع قال (براندت):

_ علينا أن نرفع الصندوق لتتأكد أولا مما يخبئه تحته.

وتعاون (صلاح) مع (شتيفان) على رفع الصندوق الخشبي فوجداه
يغطي صندوقا خشبيا آخرًا يماثل الذي فوقه في نقوشه البديعة
وتطعيماته الذهبية، تعاونوا من جديد على رفعه فوجداه يغطي تابوتا
حجريا منحوتا غطاؤه على شكل تمثال للملكة نفرتيتي!

صورة وجهها الجميل الذي يعرفه الجميع تزين غطاء التابوت

وصرخوا جميعا من الفرع كالمهاويس، وأخذ بعضهم يتقاذف في الهواء
ويحتضن بعضهم بعضا كأنما مستهم الملكة الجميلة بلوثة جنون،
حتى (حامد) و(صلاح) شاركاهم الفرع والمرح ونسيا الحزن والصدمة
اللذين سيطرا عليهما منذ عرفا بمصرع (فانوس) و(بيشوي).

وبعد أن هدأت عاصفة النشوة والابتهاج التي اجتاحتهم تحلق الرجال حول التابوت الحجري، وتعاونوا على رفع غطائه بكل حرص، ثم وضعوه بجانبه وأذانهم تكاد تصعق من صرخات الذهول والمفاجأة التي لم تنقطع من (ليندسي) و(أودريه) منذ رفعاً غطاء التابوت!

فالتابوت الحجري كان غطاء لتابوت آخر لكن من الذهب الخالص صُبَّ على هيئة تمثال للملكة الجميلة، وزُخرف بنقوش التماثيل الملكية الفرعونية وطُعم بالأحجار الكريمة والزجاج الملون في جمالٍ وفنٍ وإبهار.

وسكتت صرخات الجميع بعد دقيقة، ثم تجمدوا متحلقين ومتأملين لجمال تلك التحفة الملكية ومخلدين لروعة تلك اللحظة التاريخية في حياتهم جميعاً، حتى نطق (يوجيه) بصعوبة وتهدج:

_ الآن فقط أدركت شعور (هوارد كارتر) لحظة رفع الغطاء الحجري عن تابوت الملك توت عنخ آمون.

وهزوا رؤوسهم مؤمنين على كلامه دون أن ينطق أحدهم أو حتى يرفع عينيه من على فريدة الدرّ التي ترقد أمامهم في كبرياء وملكية، ثم قال (شتيفان):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ كأن من صنع هذا التابوت هو نفس الفنان الذي أبدع تابوت الملك توت، بل تكاد تكون نفس الملامح لكلا الوجهين.

رد عليه (براندت) وهو لا يحول ناظره عنها:

_ أنسيت أنهما من أسرة واحدة؟ هي زوجة أبيه وهو زوج ابنتها؟

قالت (أودريه):

_ بل هناك من يعتقد أن قناع الملك توت الشهير كان مصنوعاً أصلاً لنفرتيتي لولا اختفاؤها ثم الثورة المضادة على دين زوجها أختاتون، ولذلك حمل قناع توت ملامح أنثوية وفتحتي أقراط في أذنيه.

رد (سكوت):

_ وما أكثر الاعتقادات المتضاربة في هؤلاء الفراعنة، لكن هذا السحر الذي أراه نائماً أمامي يبرر الجنون بالفراغنة، بل لقد صرت أعذر أولئك الذين شطحت عقولهم فقالوا إن مقبرة نفرتيتي حفظت على صدع إحدى القشرات الأرضية المتحركة حتى تبدل مكانها فلا يعثر عليها أحد.

ونظروا إليه بأعين تدور من السحر ثم عادوا ثانية لاغتراف المزيد من سحر التابوت.

وبعد أن أغشيت أعينهم من فرط التحديق في شمس الذهب التي تحت أعينهم أفاقوا للمهمة التي عليهم إتمامها، وحاولوا رفع غطاء التابوت الذهبي ليكشفوا إن كانت المومياء تحته مباشرة أم أنه يغطي تابوتا آخر كما هي عادة تلك الأسرة الفرعونية في تعدد التوابيت الذهبية حول المومياء، لكن لم يستجب لمحاولاتهم وبدا ملتصقا بالنصف السفلي من التابوت، فقال (براندت) في حزم:

_ لا داعي لهذا.. هذا أصعب جزء في العملية كلها ويحتاج إلى هدوء وفرن وإحضار الأدوات المساعدة، دعونا أولا نستكشف باقي المقبرة.

مقبرة ملكية لم تمس من قبل، وباستثناء ذلك التابوت الخلاب بدا واضحا أنها لم تكن غنية بالمقتنيات الذهبية المنتظر العثور عليها في مقابر ملوك الفراعنة وقبور زوجاتهم.

وبدا وكأن الملكة كانت في زهدٍ عن اصطحاب متعلقاتها معها في غرفة دفنها، أو أنها لم تكن تؤمن أصلا بحاجتها إليها. فعلى غير عقيدة ملوك المصريين في وجوب دفن كل ما يرونه واجب الاصطحاب معهم ليعينهم في حياتهم الآخرة، فقد خلت المقبرة من الأواني والأقمشة وأوعية الطعام والشراب والزينة والبخور، وخت كذلك من أي عربات ملكية أو كراسي أو قطع أثاث أو مصابيح إضاءة. واكتفت الملكة بعدة آنية فخارية حفظت أحشاءها داخلها كأحد إجراءات عملية تحنيطها، وصندوق ذهبي حفظت فيه حليها، وتناثرت تماثيل

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

قليلة صغيرة الحجم لها ولزوجها صنعت جميعها من الحجر الجيري ملونة بطبقة من الجص، وعلقت (ليندسي):

_ من يصدق أن تمثال رأس نفرتيتي الذي يسبب أزمة بين مصر وألمانيا في المطالبة بأحقيته، أمامنا الآن منه أكثر من نسخة؟

علق (يواكيم) ضاحكا:

_ الآن ستفقد جميع هذه الأقنعة ثلاثة أرباع قيمتها إذ لم يعد أيُّ منها نسخة فريدة!

أمّن (حامد) على كلامه وقال:

_ بل إنني لأتساءل هل اكتسبت قطعة الحجر تلك قيمتها الخرافية بسبب ندرتها أم لأنها تعود للملكة نفرتيتي أم لإبداع فنائها أم لأنها نحتت منذ أكثر من ثلاثة وثلثين قرنا؟

وتشبعوا من تأمل تابوت الملكة ومعاينة متاعها الخاص، وأشبعت كلّ من (أودريه) و(ليندسي) غريزة الزينة المتجذرة في قلب كل أنثى، فتبادلا ارتداء حلي الملكة والتقاط الصور لأنفسهن بها، وعشن لحظات ملكية حقيقية، فمن غيرهن من نساء الأرض ستحظى بفرصة كهذه بعدهن؟ ثم أفقن من أحلامهن الملكية وأعدن رص الحلي كما

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وجدوها ثم انضمتا لبقية الفريق الذكوري الذي سلّم لحواء بحقها في اقتناص تلك اللحظات.

واتفقوا أن يتأملوا نقوش جدران المقبرة وجدرانها قبل أن يتفرغوا لاستفراغ باطن الخزائن وفض مكنوناتها، ومضوا يتأملون رسوم جدران المقبرة ويقرأون نقوشها، ثم قطع الصمت تعليق (يواكيم):

_ لا وجود لرسومات محكمة الموتى، لا وجود لأوزوريس ولا حورس ولا ماعت ولا أنوبيس ولا غيرهم من قضاة المحكمة، فقط رسومات حقة العمارنة المعروفة لها ولزوجها ولشمس آتون وأشعتها من فوقهما.

رد عليه (شتيفان) وقد فطن إلام يرمي بكلامه:

_ وهذه المقتطفات المنقوشة من كتاب الموتى ماذا تسميها؟

_ تأملها جيدا؛ إنها مقتطفات تسيحية للإله واعترافات بتجنب الذنوب، وتخلو تماما من ذكر اسم أي إله من قضاة المحكمة.

فأمنت (ليندسي) على كلامه قائلة:

_ بالفعل، لاحظت أيضا أنه لا توجد لفافة من نسخ كتاب الموتى مدفونة هنا مع الملكة على غير طقوس الفراعنة.

ولما لم تزد النقوش والرسومات عما تجادل فيه (يواكيم) و(شتيفان)، فقد قرروا أن الوقت قد حان للخزانات كي تقول كلماتها المخبوءة فيها، وتعاون كل اثنين منهم على فتح واحدة من الخزائن، وفي دقائق كانت أربع خزانات يرقد غطاؤها بجوارها لتفصح جميعا عن عشرات من لفائف البردي ترقد بداخلها.

وفي احترافٍ من يعرف كيف يتعامل مع هذه اللفائف جلسوا جميعا أرضا يفضون بعض لفائفها في حرص، بينما اكتفى (صلاح) بالمشاهدة بناء على طلب ابن عمه كي لا يفسد إحداها بغير قصد، خاصة أنه لا يجيد قراءة مضمونها على أي حال.

وانهمكوا في قراءة ما فتح أمامهم... وفغر الجميع فاه من الدهشة حتى عجزوا عن الكلام...

_ هذه الكتب المفقودة للكاهن المؤرخ مانيتون السمنودي أو السبنتيسي كما كان يسمى قديما؛ إنها نسخ كاملة لكتب الإيجيبتيانا!

هكذا هتف (شتيفان) غير مصدق، ثم تدارك متسائلا:

_ لكن كيف وصلت هذه النسخة إلى هنا في حين أن مانيتون قد ولد بعد نفرتيتي بمئات السنين؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

لكن أحدا لم يجبه على سؤاله وإنما تابعت بعده نداءاتهم كلٌ يصيح
بما وجده عنده، فصرخت (أودريه):

_ وهذه رسومات لمساقط الهرم الأكبر وخرائط حجراته التي داخله.

فهرع إليها (سكوت) و(يوجيه) وفركا أعينهما غير مصدقين، ثم قال
(يوجيه) وهو يطالع لفافة أخرى من نفس الخزانة:

_ وهذه متاهات الأنفاق الممتدة تحت الأهرام.

وجاءهم صوت (يواكيم):

_ وهذه أجزاء من التوراة مترجمة إلى اللغة الهيراطيقية.

فناداه (براندت):

_ بل تعال انظر هنا.. أليست هذه نسخة بالأبجدية العبرانية؟ وتلك
بالخط المسماري؟ لكن مع بعض الاختلافات.

واتسع الذهول على وجه (يواكيم) وهو يطالع اللفائف بين يديه ثم
قال لزميليه:

_ ألم أقل لكما؟ وجود هذه النسخ هنا يؤكد نظريتي عن ديانة
أخناتون ونفرتيتي؟

فرد عليه (شتيفان) على الفور:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لا تؤكد أي شيء، فما جاء بنسخ التوراة إلى هنا هو ما جاء بكتب المؤرخ مانيتون.

سكت (يواكيم) مفكرا وقد أفحمته حجة (شتيفان) ثم قال:

_ لكن ما نجده هنا يؤكد على الأقل كلامي عن وجود صراع فكري وعقدي قديم، وأن هناك من أراد دفن هذه الكتب حماية لها.

ثم غرق في قراءة ما بين يديه من نسخ التوراة في لهفة حتى صاح:

_ فعلا صدق من قال إن سقراط وأفلاطون كأنهما صدىً لصوت موسى وإنما يتردد باليونانية!

وفزعوا جميعا من (سكوت) وصوته يأتيهم كأنه صيحات نصر وأنشودة فرح:

_ بل تعالوا اقرأوا هنا أساس كل دين.. اللاهوت الأول والحكمة الأم لكل البشرية.. هذا بالتأكيد كتاب (تحوت) منبع الفكر وفجر كل فلسفة، بل أصل السحر ومنبع الأساطير.

ثم جثا على يديه وركبته من شدة الانفعال وهو يقول:

_ أن أجد مفتاح الهرم وأصول الهرمسية في وقتٍ واحد.. فهذا يوم ميلادي الحقيقي، بل يومي الأول والأخير.

وقطع عليهم (يوجيه) حبال دهشتهم مما يفعله (سكوت) لما قال:

_ أما هذه الخزانة فتخص بالكامل الحكيم (إيمحوتب)؛ برديات طبية فيها وصف أمراض وطرق علاجها وأخرى تشرح استخراج العقاقير من الأعشاب، وهذه برديات هندسية ورسومات لتصميم المصاطب التي تتكون منها الأهرامات المدرجة، وتلك برديات مضمونها غامض لكن أظن أنها خاصة بالسحر.

والتمعت عينا (صلاح) ببريق الجشع وتلونت بكل ألوان الطمع، وتحول عقله إلى عداد صرافة يضيف مليوناً جديداً من الدولارات سيطالهم به مع كل صيحةٍ تفلت من أحدهم، حتى بدأ لعبه يسهل شراهةً ونهماً.

وهمست (ليندي) في أذن (حامد):

_ أليس غريباً أن يصادف كل واحدٍ منهم الخزانة التي تتوافق مطوياتها مع أفكاره؟

لكن (حامد) كان عنها في وادٍ بعيد، لقد كان يتلقى هذه الهتافات كأنها قنابل تنفجر في عقله، لا يدري هل هذه صناديق كنوزٍ تنفتح بين يديه أم تسقط بوزنها الهائل فوق هامته، هل يموت فرحاً أنه ممن كانوا وراء ذلك الكشف العظيم أم يقضي كمداً على أنه سيصبح أحد أسباب ضياعه من بلاده... وغاب عن الوجود، وأحس وكأنهم

يفتحون هذه الخزانات ويلقون ما فيها فوقه، وتتراكم فوقه اللفائف، وتتكوم حتى ينسحق تحت ثقل متونها ووزر ضياعها، وعاد لوعيه من تحت أكوام اللفائف وأفاق على ضميره يحمله مسئولية استخلاصها من بين أنياب من ألقمهم إياها بيده... فياليتها ظلت مدفونة ليحمل أمانة حفظها زمانٌ آخر غير زماني هذا، لكنه قدرني المكتوب الذي لا مفر منه بل أنا من عبثت بسطوره باختياري... ولا بد من فعل أي شيء.

وقاوم حتى خرج من دوامات التفكير والقلق الذي يأكل عقله وقرر أن يتصرف، وجاهد نفسه تماما حتى تبدو ملامحه خالية من أن تعكس ما يمور في جوفه من أحاسيس وانفعالات، ثم تصنع أنه تذكر شيئا فنظر في ساعته ثم قال:

_ لقد طلع علينا الصباح ونحن في شغلٍ بما بين أيدينا، سأذهب سريعا لعملي لأحصل على إجازة بأي طريقة فأنا متغيب عن العمل منذ ثلاثة أيام.

وهمّ ذاهبا فناده (سكوت) في ثقة:

_ أي عمل يا سيد (حامد)؟ لن يخرج أحدٌ من هذا البيت دون أن نسوي كل الأمور.

تصنع (حامد) الغضب وقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هل ستحبسني في بيتي؟ ثم إنني لا بد أن أذهب لعملي فأنا لا زلت في فترة التدريب الأولى وقد يفصلونني من عملي بسبب التغب بغير إذن.

ضحك (سكوت) وقال في سخرية:

_ للمرة الثانية أي عمل؟ ما ستحصده من هذه العملية يساوي إجمالي رواتب كل موظفي هيئة الآثار في طول بلادكم وعرضها لعدة سنوات، أم أنك تظن أننا حفنة من الحمقى؟.

صاح فيه (حامد):

_ ماذا تظن نفسك هنا؟ سيد الموقف؟

_ لا سيد الموقف ولا خادمه، الكلام هذا يسري على جميع من في البيت وأولهم أنا، لن يخرج أحدٌ من الدار ولن تنتقل لفافة واحدة من مكانها مترا واحدا حتى نسوي كل شيء.

ثم التفت إلى الباقي وقال:

_ هل توافقونني؟

هز جميعهم رؤوسهم بالموافقة وقال (براندت):

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ هذا اكتشاف القرن الحادي والعشرين بل أحد أعظم اكتشافات التاريخ على الإطلاق، أنا لن آمن لأحدٍ هنا حتى لنفسي.
(يوجيه):

_ إننا حتى الآن لم نفتح إلا أربع خزائن فقط ووجدنا ما وجدنا، فكيف عندما تفصح باقي الخزائن عن أسرارها.
ردت عليه (أودريه):

_ بمناسبة باقي الخزائن، هل سنفتحها هي أولاً أم تابوت الملكة؟
وأخذوا يتناقشون لفترة؛ هل يجازفون ويحاولون فتح التابوت أولاً ورؤية المومياء الملكية وإشباع فضولهم لرؤية ما ترتديه من أنفس متعلقاتها وحليها، وهل ترتدي قناعاً ملكياً مثل ذلك المشهور للملك توت أم أن هذا خاص بالملوك فقط، أم هل يفضون باقي الخزائن أولاً خصوصاً أن التابوت قد يحتاج لأن يُشق كي يفتح، فصاح فيهم (حامد):

_ ماذا تظنون أنكم فاعلون؟ هذا التابوت لن يفتح إلا تحت إشراف خبراء من هيئة الآثار المصرية، لن أسمح لكم بالعبث به وتشويهه.
رد عليه (يوجيه):

_ إذن فقد كان (سكوت) محققاً حين شك في نية الغدر لديك.

_ عندما يتعلق الأمر بمقبرة نفرتيتي فأى اتفاق بيننا هو من قبيل اللغو، والغدر الحقيقي للإنسانية كلها هي أن أترككم تعبثون في هذا التابوت.

_ هل تظننا مجرد نابشي مقابر؟ جميع من تراهم هنا هم خبراء آثار وعلماء مصريات، بل إن هيئتكم للآثار تلجأ لمثلنا عند احتياجها لترميم أي أثر يحتاج إلى الدقة والمهارة في التعامل معه، ونحن أحرص منك ومن هيئتك على سلامة هذه التحفة... نحن أصلا من فتحنا أعين بلادكم على أهمية آثارها.

فكر (حامد) قليلا وأدرك أن العصبية لن تخدمه في هذا الموقف وأن عليه استفاد كل ما في جعبته من حيل وهدوء أعصاب، فأطرق قليلا ثم قال:

_ وماذا بعد فتح التابوت؟ وماذا لو اضطررتم لشقه؟ كيف ستعلنون بعدها اكتشاف القرن - كما تسمونه - للعالم؟ الجميع سيدرك بعدها أنكم عبثتم بالمقبرة قبل إعلان اكتشافها، وإذا لم يهتمكم أحد بالتسبب في ضررها فستلاحقكم الشكوك في السطو على بعض ما كان فيها خاصة أن المقبرة لم يكن فيها كثير من المتاع الملكي المعتاد ملوك الفراعنة وزوجاتهم، وبدلا من دخول التاريخ من أوسع أبواب الاكتشافات فيه، ستدخلونه من أحد أبوابه الخلفية المشبوهة.

ردت (أودريه) وهي توجه الكلام لأفراد البعثتين:

_ لا حاجة بنا أصلاً لإعلان اكتشافنا، ما تحويه المقبرة من كنوز ومخطوطات يتوارى بجانبها كل أحلام الشهرة ودخول التاريخ.

رد (شتيفان):

_ هذا ينطبق على بعثتكم، أما نحن فقد كانت نفرتيتي والمجد من وراء اكتشافها هما هدفنا الأساسي.

تدخل (يواكيم) قائلاً:

_ عن نفسي فلن أضحى بتلك الكنوز من البرديات في سبيل بعض الشهرة، هل سأدخل التاريخ مثلما دخله هوارد كارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون؟ عفوا فالبرديات أهم كثيراً بالنسبة لي.

وابتسم (حامد) في سره وهو يرى شرارة الخلاف تنقذ بينهم، فعلى الأقل قد نجح في زرع بذرة الشقاق بين غزاة مقبرته، ثم أفاق على (براندت) وهو يرفع يديه في الهواء يطلب بها إلتباه من حوله ثم قال:

_ واضح منذ البداية أن أهدافنا مختلفة عن بعضنا البعض حتى بين أفراد البعثة الواحدة، وعلينا جميعاً التمايز الآن بين من جاؤوا من أجل المجد والشهرة وبين من جاؤوا سعياً وراء الكنوز والمخطوطات.

قال له (يوجيه):

_ ألا نستطيع الفوز بالحسنين؟ ننقل ما نريده من الخزانات، ثم نعلن اكتشاف المقبرة والتابوت؟

عقب (شتيفان) بسرعة:

_ على أن نفتح التابوت قبلها لكي نحصل على الخرطوش الملكي.

وأكملت وراءه (أودريه):

_ وأحصل أنا ولو على نسيج خلوي واحد من المومياء لفحصه.

قال لهما (سكوت):

_ ما هذا الكلام؟ أولا هذه الخزائن تحتاج لترتيبات طويلة كي نضمن خروجها من هنا، وقبل خروجها نحتاج نحن إلى توزيعها فيما بيننا، ثانيا فتح التابوت ليس بالأمر الهين وقد نحتاج لشق الغطاء الذهبي عنه كما احتاج كارتر، بل إن كارتر قد وجد ثلاثة تابوت ذهبية فوق بعضها البعض واحتاج لشقها جميعا حتى يصل إلى المومياء، ونحن لا نعرف عدد التوابت الذهبية التي ستصادفنا مع هذه الملكة، ووقتها لن يمكننا الإعلان عن العثور على شيء وإلا سنعامل فعلا كاللصوص كما يقول (حامد).

(شتيفان):

_ أنا لن أضحي بمجهود سنوات البحث عن نفرتيتي من أجل أي شيء آخر، ولن أدخل التاريخ ككص مقابر.

قالت له (أودريه):

_ لم لا ننقل التابوت إلى الخارج هو أيضا؟ ستحمينا حكوماتنا مثلما حمت من نقل قناع نفرتيتي أو آثار متحف بغداد.

رد عليها (سكوت) في غضب:

_ هل تعرفين كم يبلغ وزن التابوت الحجري أو حتى الذهبي؟ وهل نسيت أننا هنا أصلا من أجل أسرار الهرم؟ وإذا فعلنا فعلتك التي توسوس بها نفسك فهل سنقدر على دخول مصر مرة أخرى؟ فضلا عن أن ننقب أسفل الهرم؟

وظلوا هكذا يتجادلون لفترة، ويضربون كل الاحتمالات والرغبات بعضها ببعض، و(حامد) يقترح زناد فكره في الخطوة التالية لتصرفه، ثم فوجئ بهم يتفقون رويدا رويدا، فأجمعت كلمتهم على استحالة نقل التابوت بل رفضت البعثة الألمانية مجرد النقاش في ذلك الأمر، ووافقهم (سكوت) الذي لا تهمه نفرتيتي ولا مقبرتها بعد أن وجد ضالته في خزانات البرديات، وبدلا من العثور فقط على مفاتيح الهرم وخرائطه حصل أيضا كما يقول على نسخة كاملة من كتاب تحوت، وبالتأكيد أصبح لا يريد أن يوضع على القائمة السوداء لدخول مصر،

ثم مال (يوجيه) لرأي (سكوت) بعد أن ترجحت لديه أهمية برديات الهرم وغرفه وأسراره.

بينما عدلت (أودريه) عن اهتمامات بعثتها وقررت أن المومياء هي ضالتها المنشودة، وبيتت في نفسها أنها وإن لم يكن مسرا لها الآن الحصول على عينتها المنشودة، فلا بأس من الانتظار حتى إعلان الاكتشاف وأخذ لقطة شهرته، ثم بعدها تترصد الفرص لاقتناص عينتها، فلسوف تشهد المومياء عشرات الفحوص والاختبارات الرسمية، وسيكون بالتأكيد مسموحا لمكتشفها المشاركة فيها.

في حين كان (يواكيم) على النقيض منها، فقد زهد المومياء وخرطوشها وشهرة ومجد اكتشافها، لم تعد تساوي في نظره إلا أنها كانت بوابة لمغارة مخطوطات علي بابا.

وهكذا حسمت البعثتان أمرهما؛ ستبادل (أودريه) مكانها مع (يواكيم) الذي سيأخذ نصيب بعثتهم المتفق عليه من الوثائق والبرديات ويطير بها، ثم ترتب البعثة الألمانية - بعضوتها الجديدة - أمر إعلان الكشف الأثري الكبير للمقبرة الملكية وتجهيز أكبر حملات إعلامية عنها.

_ وهل ستعلنون أنكم اكتشفتموه في قبو منزلنا؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هكذا خاطبهم (حامد) محاولاً في طريق آخر بعد أن خابت حيلة التفريق بين كلماتهم، فرد عليه (براندت) وذهنه يفكر في السؤال:

_ تقصد أن أول سؤال للسلطات سيكون ماذا كنا ن صنع هنا؟ ومن سمح لنا بالتنقيب في ذلك البيت؟

وانتبه (صلاح) فقال وهو ينظر (لحامد):

_ سندخل السجن لقضاء الحبس المشدد عقوبة التنقيب عن الآثار، وأنت بالذات ستنال عقوبة المؤبد لأنك من العاملين بالمجلس الأعلى للآثار.

وشعر (حامد) بالسعادة أنه بدأ في استمالة (صلاح)، فقرر المضي في لعبته الجديدة إلى آخرها وقال لابن عمه مستمراً في التظاهر بجدية كلامه:

_ لكن من يعثر على آثار ويبلغ عنها السلطات المعنية هل يعاقب بشيء؟

_ وبماذا سنفسر لهم نقبنا في بيتنا؟ هل كنا نحفر بئراً لنشرب؟ أم للبحث عن النفط؟ هل نسيت أنني محام وإن كان مع وقف التنفيذ؟

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ عندما يتعلق الأمر بمقبرة نفرتيتي فإن كل المخالفات سيتم التغاضي عنها، سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة لهم.. إنه اكتشاف العصر كما يقولون.

_ هؤلاء الأجانب سيلتمسون لهم ألف عذر إن لم يعتبروهم أبطالاً، أما نحن فلن ينظر إلينا إلا كصوص آثار وسارقي تاريخ.

لكن فرحة (حامد) لم تدم طويلاً، فهو عقل واحد يفكر أمام ستة عقول متمرسة وذوات خبرة، فجاء (يوجيه) بالحل الذي جعل (صلاح) ينقلب موقفه من جديد:

_ قبل أن نعلن عن أي شيء ستكون أنت وابن عمك خارج البلاد
تنعمان بنصيبكما من المال.

رد (صلاح):

_ وأنتم؟

قال (شتيفان):

_ كمية وكالات الأخبار والصحف بل والسفارات التي سنخاطبها والضجة الكبرى التي سيحدثها اكتشاف المقبرة لن تترك مجالاً لمساءلتنا، حتى حكومتكم ستفرح بهذا الكشف وسيتغاضون عن

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

مساءلتنا بل سيعتبرونا أبطالاً كما قلت أنت، وبالطبع لن يتخيل أحد أن المقبرة كانت مليئةً بخزانات للبرديات.

فكر (صلاح) قليلاً ثم قال:

_ ٣٠ مليون دولار.. لا لا.. بل ٥٠ مليوناً.. بل ٨٠ مليون دولار لكل واحدٍ منا أنا وابن عمي!

نظر (براندت) إلى (سكوت) وابتسما في ثقة ثم قال (سكوت):

_ المال وترتيبات السفر هما آخر ما عليكما حمل همه، المهم أن تسويا موقفكما أولاً..

ثم غير نبرة صوته وقال في هدوء وصوت كالفحيح:

_ لكن ثقاً بأننا لن نسمح لأحد بإفساد العملية بعد كل ما تكبدناه.

رد (صلاح):

_ بل يجب أن نضمن نحن تأمين سفرنا وأموالنا قبل خروج بردية واحدة من هنا.

رد عليه (يوجيه) هذه المرة:

_ أعطونا جوازي سفركما وخلال يومين يعودان لكما وعليهما تأشيرتا سفر للبلد التي تحبان، مع فتح عدة حسابات بنكية في عدة بنوك

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

باسميكما وتقسيم المبالغ المتفق عليها بما لا يعرضكما لأي مساءلة
عن كيفية حصولكما على هذه الأموال.

فأكمل (براندت):

_ تأخذان وثائق السفر وتخرجان من البيت إلى المطار.

(سكوت):

_ وسنختار لكما دولة لا توجد اتفاقية تسليم مطلوبين بينها وبين
مصر.. إنجلترا مثلا فتتغلبان أيضا على عائق اللغة.

(يوجيه):

_ وسنوقع معكما عقدا بشرائنا لبيتكم هذا وسنقوم بتسجيله بتاريخ
قديم كنوعٍ من الغسيل القانوني لموقفكما.

(أودريه):

_ وقبل سفركما ستتأكدان هاتفيا من تحويل المال إلى حساباتكما.

(يواكيم):

_ لكننا سنوصلكما إلى المطار طبعاً بما يضمن عدم تغيير أحدكما لرأيه
في الطريق.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

(سكوت):

_ وتتسلمان أوراق حسابات البنوك قبل صعودكما للطائرة مباشرة.

(يوجيه):

_ بل وستجدان بانتظاركما في الخارج من يسهل عليكم كل إجراءات البدايات الأولى لحياتكما الجديدة.

(شتيفان):

_ رأيتما؟ نحن نفكر لكما حتى في التفاصيل التي لم تخطر على بالكما.

نظر (صلاح) (لحامد) ثم قال:

_ ماذا تنتظر؟ هيا اصعد وأحضر جواز سفرك.

فلم يتمالك (حامد) غضبه لفشل خطته فصاح في (صلاح):

_ وسمعتنا؟ وسمعة أهلنا بعد فرارنا؟ سيكتبنا التاريخ أننا ابنا العم اللذان نقبا بيتهما ثم سلما تاريخ بلادهما للأجانب.

_ اغسل سمعتك في طستٍ واحدٍ من صيّب المال الذي سيهطل غزيرا فوق رؤوسنا فتستحيل بعدها من سمعات عليّة الناس، بل سيتباهى

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

أهلنا بنسبتنا إليهم كما يتباهى أهل (منصور) به... مفاهيم الدنيا
قد تغيرت يا (حامد).

تدخلت (أودريه) في الحوار وقد فهمت كلامه الذي كان بالعربية
وقالت:

_ مشكلتك يا (حامد) أنك لا تجيد التمثيل، وحوارك الأخير هذا يضع
علامات استفهام كثيرة.

تدخل (سكوت) في الحوار وقال:

_ ولكي نقطع الطريق على أية علامات استفهام أو أي شكوك فنحن
بحاجة إلى بعض الإجراءات هنا.

وكان آخر ما سمعه (حامد) منهم قبل أن يشرذ ذهنه هو اتفاقهم
على جمع الهواتف المحمولة من الجميع ووضعها في صندوق فلا
يستعمل أحد هاتفه إلا تحت بصر الآخرين، مع حظر خروج أي أحد
من الدار إلا بعد الاتفاق مع الجميع..

وأفاق (حامد) من شروده على صوت (صلاح):

_ هاتِ هاتفك يا (حامد).

فنظر له في ذهول ورأسه لا زالت تمور بالأفكار، ثم صاح وهو يندفع
إلى حيث خزانات البرديات:

_ لن أسمح بسرقة ثروتنا وتاريخنا وأسفار تكوين حضارتنا.

فانقض عليه (صلاح) وأمسكه من تلايبه وطرحه أرضاً ثم برك فوقه وثبت يديه في الأرض كأنه يستعيد ذكريات تمرينات الجودو أيام الجامعة، وظل متشبثاً فوقه حتى انهارت مقاومة (حامد) وهداً صراخه، وهمّ (شتيفان) أن يتدخل فيما بينهما فأشار (براندت) له بالتوقف، في حين لم تكف (ليندسي) عن الصياح:

_ توقفا.. دعه يا (صلاح) فسيصاب بالاختناق.

واستسلم (حامد) لسيطرة (صلاح) البدنية وتمالك عينيه من البكاء فصاح فيه (صلاح):

_ أي مجنون أنت؟ لن أسمح لك بإفساد الأمر ولو اضطرت لتقييدك أو حتى لقتلك!... ترفض ثروة طائلة تسعد أولاد أولادك من بعدك؟ فماذا صنعت تلك الآثار لك أو لي أو لأهلنا أجمعين؟

ثم وقف (صلاح) وهو يتهدج بالانفعال، في حين اعتدل (حامد) وظل جالساً على الأرض، فقطع (براندت) الصمت المتوتر وقال:

_ هونا عليكما يا جماعة فلکم تعاركت مع إخوتي، ودعونا لا نفسد فرحة الاكتشاف ونشوة الثراء.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وتقدم (يواكيم) ومدّ يده إلى (حامد) كي يساعده على النهوض
فطوحها (حامد) بعيدا ونهض من نفسه ثم انسحب إلى الغرفة
العلوية من المقبرة، في حين قال (سكوت) لصلاح:

_ نريد غلق بابي الدار بالمفتاح، وسنعمل على مراقبة (حامد) بل
مراقبة ألا يخرج أحدٌ منا جميعا خلسةً.

سكت لثوانٍ ثم أكمل وهو يتجه نحو الصندوق الذي جمعوا فيه
هواتفهم:

_ والآن أحضر لي جوازي سفرك أنت وابن عمك فأنا متأكد أنه حين
يرى أرقام التحويلات سيستسلم للأمر الواقع، وسأجري أنا بعض
المكالمات اللازمة لسفركما.

(٢٠)

لم يدِرِ حامد أين يجب أن يكون؟ أعند الخزانات التي تفتح والبرديات التي تفرز؟ أم بعيدا عنها حيث لا يرى كنوز وطنه وهي توزع أو يسمع مفاتيح خزائنها وهي تفض وتنتهك. فاختار لنفسه مكانا بين بين، وصعد إلى غرفة المقبرة العلوية وجلس في أقصى ركنها وتكور حول نفسه محتضنا ركبتيه ودفن وجهه بينهما يفكر.

صعدت (ليندسي) وراهه ومضت إلى حيث ينزوي واقتربت منه في هدوء وربتت على شعره في حنان، رفع إليها عينين متسائلتين قد أطفأ الهمُّ بريقهما ثم أرخى نظراته في حزن، افتрشت الأرض إلى جواره وقالت:

_ قلت لك من البداية أن اللعبة قد لا تسير كما تخطط.

جاهد لسانه الذي عقدته الغموم حتى خرجت حشرجاته قائلةً:

_ لم تكن أقصى أحلامي تطاول وجود معشار هذا الكنز تحت ركام بيتنا، ولم تكن أسوا كوابيسي أراني فيها وأنا أسلم تاريخ أجدادي بيدي لهم.

ربتت على يديه ثم قالت:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لم لا تتجاوز أحزانك وتستعمل ما في وسعك من برامجاتية؟ لم لا تنزل وتشارك معهم في فرز اللفائف والبرديات؟ سيفرض وجودك عليهم شراءهم لرضائك وسيتنازلون لك عن بعض اللفائف.

رد في أسى وتعجب:

_ يتنازلون؟!!!

وسكت لثانية ثم أكمل:

_ هل صار ما يتركونه لصاحب الحق الأصلي إنما هو نوع من التنازل.

_ أليس هذا اتفاقك أنت و(صلاح) معهم من البداية؟ لقد صار الآن من حقهم.

صاح فيها:

_ لا حقي ولا حقهم ولا حق أحد، هذا حق التاريخ والحقيقة التي ستسرق.

ثم أطلق أنينا مكتوما وهو يعض على سبابته حتى كاد أن يدميها، فانفضت (ليندسي) تهون عليه وتمسح على رأسه وتسحب إصبعه قبل أن تدميه جزّة أسنانه وهي تقول:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ لا.. لا.. توقف يا (حامد).. ستقتل نفسك كمدا هكذا وهذا لن يغير من الأمر شيئاً.

دفن (حامد) وجهه بين كفيه وغالب نفسه عن البكاء أمام (ليندسي)، فابتسمت وقالت وهي تنظر له في حنان:

_ أتدري يا (حامد)؟ لقد عظمتَ في نظري بشكلٍ لا تتصوره، كم شاب يرفض مثل هذه المبالغ التي تدير الرؤوس لمجرد سماع أرقامها؟ ويأبأها فقط من أجل مبادئه والحفاظ على تراث بلاده؟
رفع رأسه من أحضان كفيه ونظر لها وقال:

_ (ليندسي)؛ هل أنتِ على استعداد لمساعدتي إن احتجت لمعونتك؟

_ (صلاح)؛ هناك زائر مهم قادمٌ لمعونتنا، وهو من سيتسلم منك جوازي السفر.

رد (صلاح) على (سكوت):

_ من هو؟

_ اصعد لتفتح له، أنت تعرفه بالتأكيد وهو على وشك الوصول.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وصعد (صلاح) إلى غرفة المقبرة العلوية، وتجنب التقاء عينيه بعيني ابن عمه، وواصل طريقه حتى خرج من النفق ومنه إلى صالة البيت، ولم تمض دقائق حتى كان جرس الباب يعلن وصول الزائر المرتقب.

_ (منصور) باشا؟

هتف (صلاح) في دهشة عندما وجده يقف بعتبة الباب أمامه وخلفه اثنان من مساعديه، فرد عليه:

_ كيفك حالك يا (صلاح)؟

ثم التفت إلى مساعديه وقال:

_ أمنا مخارج البيت جيدا ولا تسمحوا لأحد بالخروج ولا الدخول حتى آذن لكما.

ثم التفت إلى (صلاح) وقال:

_ أين جوازي سفركما؟

فانتبه (صلاح) من شروده حيث كان يفكر في موقع (منصور) من إعراب العملية، ثم أسرع وجاء بجوازي السفر فتناولهما (منصور) منه وأعطاهما لأحد مساعديه الذي ظهر على وجهه أنه يعرف ماذا سيصنع بهما، ثم قال (منصور):

_ والآن أغلق الباب وخذني إلى (سكوت)!

ذهل (حامد) لما وجد (منصور) يدخل المقبرة مع ابن عمه ويتجهان إلى السلم الذي يقود إلى حيث الغرف السفلية فأدرك سبب وجوده، فقال لليندسي همسا:

_ هذا هو الشخص الذي سيتولى تهريب لفائف البرديات، إنه أحد أشهر مهربي الآثار في الصعيد.. لا بد أن أتصرف.

همست هي الأخرى بشكل تلقائي لما سمعته يتكلم همسا وقالت:

_ كيف ستصرف؟ ألم تر سلاحه المتدلي في جرابه؟ وبالتأكيد لم يأت بمفرده.

صمت قليلا يفكر ثم قال:

_ لابد أن أخرج من الدار بأي شكل، ابقي هنا كي لا نلفت الانتباه.

ثم تسلل إلى خارج المقبرة واتجه إلى باب البيت، نظر من عينه السحرية فوجد مساعدي (منصور) يسدان مجال الرؤية، توجه إلى إحدى النوافذ ونظر من خلال فتحاتها فوجد رجاله يتناثرون حول البيت، صعد إلى الطابق العلوي ومنه إلى سطح البيت فوجد بابه الحديدي مغلقا بعدة أقفال ثقيلة، فأخذ يسب ويلعن حتى أفرغ شحنة غضبه، ثم أخذ يفكر بهدوء في طريقة يخرج بها من البيت، لم

تعد أمامه إلا الحيلة، هل يمكن استدعاء الشرطة بأي طريقة؟ كيف ذلك ولا يوجد أي هاتف في متناول يده، هل يمكن إشعال حريقٍ ما يدفع الناس لاستدعاء المطافئ؟ وبالتأكيد ستأتي معها بعض عناصر الشرطة للمعاينة؟.. لكن بالتأكيد سيسارع أعوان منصور إلى إطفاء الحريق فور اندلاعه وستكون أقل عاقبة لتصرفه هو تقييده وحبسه في أي غرفة.

لابد أن يجبرهم هم على السماح له بالخروج.. لكن كيف؟

ثم تنبه لخاطرٍ طراً على تفكيره فجأة..

لا بد أنهم يفكرون في طريقة لإسكاته أو حتى للخلاص منه!

ستسعى المجموعة التي ستسرق لفائف البردي إلى إخراسه حتى تخرج بكنوزها من مصر.. أما المجموعة الأخرى فلا بد أن تضمن سكوته حتى تعلن للعالم عن اكتشاف المقبرة.. بعدها لن يكون في مقدوره فتح فمه إن كان خارج مصر، أما إن كان داخلها فسيواجه السجن بتهمة التنقيب عن الآثار، وفي الحالتين لن ينقذ كلامه شيئاً من كنوز المقبرة.

لكنهم لن يستطيعوا قتله هنا.. مهما كان حجم الخلاف بينه وبين ابن عمه فلن يصل إلى حد التواطئ على قتله.

هل ربما يخططون للخلاص منهما معا؟.. لا أظن.. الإعلان عن اكتشاف المومياة لا بد أن يكون في جوٍ نظيف تماما، وأول ما ستفعله السلطات المصرية فور هذا الإعلان هو البحث عن صاحبي البيت، ولا بد أن يكون لهما إثبات وجود في مصر أو تسجيل مغادرة في المطار، أما إذا اختفى أحدٌ منهما فإن عائلته الصعيدية هي أول من ستقيم الدنيا بينما لن تقعدا الحكومة إلا باتهام بعثة الآثار به.

إذن فسلامته هو وابن عمه أصبحت مهمة عند البعثة الألمانية.. حسنا فعلت (أودريه) أن تبادلت مكانها مع (يواكيم)، إنها بذلك تضمن نوعا ما عدم غدر البعثة الأخرى بالذات ذلك الذئب (سكوت).. لكن ماذا عن (ليندسي)؟ ألن تحب الفوز بأي نصيب من تلك الكعكة الضخمة؟ لا أظن.. فحتى لو أحببت فلن يسمح لها الباقون أن تزاحمهم لا في كنوز اللفائف ولا في بريق أضواء كاميرات الاكتشاف.

لكن هل يأمنون جانبها؟

وماذا في إمكانها أن تفعل؟

إن أقصى ما يمكنها عمله هو أن تؤلف كتابا عند عودتها إلى أمريكا تسرد فيه كل المغامرة التي عاشتها وتدعمه بكثير من الصور التي التقطتها هنا فيتصدر كتابها قائمة أفضل المبيعات لشهور طويلة

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ويحقق ضجة ومزيذا من الشهرة لأفراد البعثتين الذين سيسارعون لنفي كل كلامها وجني المزيد من المال من القنوات والصحف التي ستسارع في استضافتهم للرد على كلامها.

وكان (حامد) كان يضرب بظهر الغيب، فقد أفاق من شروده على أصابع (ليندسي) وهي تربت على ظهره، فالتفت إليها فوجد الدموع تملأ عينيها..

_ ماذا بك؟

_ ذلك الملعون (يواكيم)، لقد وسوس في صدري (براندت) و(يوجيه) فوجدتهم يطلبون مني كاميرتي وفتح هاتفي المحمول ومسحوا كل ما عليهما من صور تخص البيت.

سكتت لثوانٍ تبكي ثم مسحت بطرف أصابعها عينيها وقالت:

_ لا يهم، فأنا كنت قد نقلت بعض الصور إلى حاسوبي المحمول الذي في شقة ملوي، وإن كانت لا تقارن بتلك الصور التي مسحها الملاعين.

_ (ليندسي) سأعرض عليك صفقة العمر!

نظرت إليه في فضول بينما لم تجف عيناها بعد من بقايا دموعها، فأكمل:

_ تخيلي لو نجحتُ في إفساد مخططهم وجئت بالشرطة إلى هنا قبل أن يكملوا عمليتهم، ثم انفردتِ أنتِ بتأليفِ كتابِ تسردين فيه القصة كلها؛ من أول تفاصيل التنقيب حتى إنقاذ المقبرة من السطو عليها، وتدعيمها بالصور التي تشائين.. ستدخلين التاريخ مرتين، مرة بهذا الكتاب وأخرى كبطلة ساهمت في إنقاذ تراث الإنسانية.

لمعت عينا (ليندسي) وقالت:

_ أنا أصلا غير راضية عن هذا الذي يحدث وأود إيقافه بأي شكل، ولكن كيف؟

_ هل تجددين القدرة على تمثيل المرض!؟

ونظرت له في دهشة واستفهام وقد جفت دموعها تماما، فأخذ يشرح لها فكرته في أن تدعي أعراض مرضٍ يجبرهم على نقلها إلى المستشفى، هي أصلا بالنسبة لهم مجرد متفرج على عملية التنقيب وطرف محايد بدون مصلحة.. مجرد صديقة أجنبية لأحد أصحاب الدار، بل لعل جنسيتها الغربية هي التي ستدفعهم للمزيد من التعاطف مع مرضها.

_ لو ادعيت أنا أعراض المرض فسيكون الشك هو سيد التفكير عندهم بل عند ابن عمي قبلهم.

هكذا قال (حامد) ليبرر لها عدم قيامه هو بهذه التمثيلية، ففي أحسن الأحوال سيستدعون له طبيبا إلى البيت ولو أتقن تمثيل الأعراض على الطبيب فلن ينقلوه إلى المستشفى إلا تحت حراسة مشددة من رجال هذا (المنصور).

_ وأي مرض هذا الذي يمكن إتقان تمثيل أعراضه على طبيب؟

كذلك سألتته وهي شاكة فأجابها بثقة أنه يعرف أعراض التهاب الزائدة الدودية وتعلم كيفية تمثيلها من أحد زملائه أيام الجامعة حين ادعاها للهرب من لجنة امتحان لم يكن مستعدا له، زعم آلاما مبرحة ومغصا شديدا أسفل الجهة اليمنى من بطنه، وادعى الغثيان وذهب للحمام رغبة في التقيؤ، والأدهى أنه تناول قبلها قطعة من الحلوة الطحينية ممزوجة ببعض قطراتٍ من الشطة فرفعت درجة حرارته عدة درجات..

_ لكن أهم ما ادعاه كان عندما ذهبوا به إلى العيادة الصغيرة الملحقة بالكلية، فقام الطبيب الشاب هناك بالضغط بأصابع يده فوق مكان الألم ثم رفعها فجأة، وكان صديقي يعرف هذه العلامة فصرخ متوجعا، فما كان من الطبيب الشاب إلا أن طلب سرعة التوجه به فورا لمستشفى الطلبة معلنا أنها زائدة ملتبهة، وبالطبع لم يفت زميلي هذا تمثيل فجيئته والتوسل للطبيب لإعطائه أي مسكن كي لا يضيع عليه الاختبار وهو ما رفضه الطبيب بالطبع لأنها أعراض متأخرة.

حگت (ليندسي) رأسها تفكر مترددة ثم سألت:

_ وهل هذه الحلاوة بالشطة حين ترفع درجة الحرارة تسبب آلاما؟ وكيف يمكن تمثيل القيء؟

وابتسم (حامد) في داخله مرتاحا، فالسؤال هذا يعني الاستعداد للمساعدة فأجابها:

_ مجرد ارتفاع في درجة حرارتك لدرجة أو درجتين فنحن لا نحتاج لأكثر منهما، أما الغثيان فلن يراقبك أحد حين تدخلين الحمام طلبا لإفراغ جوفك، لكن لو أردتِ التجويد في التمثيل فيمكنك شرب كوب ماء ساخن مع عدة ملاعق من الزيت.

ولم يصدق (حامد) نفسه حين وجد (ليندسي) تتحمس للتمثيلية، هل تعتبرها مغامرة أخرى تتحمس لخوضها؟ أم هي تساعد فعلا على استعادة هذا الكنز من بين أنياب غاصبيه؟.. لا يهم.. فهذه هي حيلته الأخيرة.

وفعلا تناولت (ليندسي) بعض الحلاوة بالشطة لكنها أشفقت أن تأخذ جرعة كبيرة من الماء الحار والزيت واكتفت ببضع رشقات منه.

واتفقا معا أن يكون أول ما تصنعه حين هروبها من المستشفى أن تشتري هاتفها جديدا فتخطر سفارة بلادها بمكان وجودها والمهمة

التي تعتزم القيام بها كي توفر لنفسها غطاء وحماية، ثم تسارع بإبلاغ الشرطة المصرية.

وتعمداً أن يفترقا الآن فيجلس كلُّ منهما بعيداً عن الآخر درءاً أن يشتبه أي أحد فيهما إذا رآهما يتهامسان. وما هي إلا نصف ساعة وأخذت (ليندسي) تصرخ وسطهم في المقبرة مما تدعيه من آلام، وتحلقوا حولها وتعمّد (حامد) أن يكون آخرهم وصولاً، وتركهم يستكشفون أعراضها حتى قالت (أودريه):

_ هذه أعراض زائدة دودية، أختي ممرضة وحدثني عنها في وسط ما تثرثر به الفتيات مع بعضهن البعض.

وأخذوا يتشاورون في أمرها وكيف يتصرفون فاعترضتهم (أودريه) ثانيةً بأن هذه الأعراض لا تعني إلا وجوب نقلها لأقرب مستشفى وأمن (براندت) و(يوجيه) على كلامها، فتدخل (منصور) بأنه سوف يستدعي طبيباً أولاً قبل أي تصرف.

وكما علّمها (حامد) فقد تأوهت بقوة عند قيام الطبيب الشاب - الذي حضر بسرعة - بحركة الفحص التي يعرفها حيال تشخيص التهاب الزائدة؛ الضغط بقوة على مكان الزائدة بالأصابع ثم رفعها بسرعة.

_ لا بد من نقلها للمستشفى فوراً.

_ سوف أرافقها فهي لا تعرف في هذه البلدة أحدا سواي..

قال (حامد) ذلك وهو يعرف أنهم سيرفضون بالطبع، لكنه لو لم يفعل ذلك لشكوا في قلة اكرائته بمرضها، وبالطبع جاءه الرفض منهم جميعا وأولهم ابن عمه..

_ فلترافقها (أودريه) إذن أو أي واحدٍ منكم.

قالها ثم تنفس الصعداء أن تملصوا جميعا من الذهاب معها، فلقد كان على يقين أن أحدا منهم لن يترك مراقبة ذاك الكنز لساعة واحدة.. بل إنهم قد سهوا عن تناول طعام عدة وجبات.

_ لا تقلق، فلسوف يعتني بعض رجالي بأمرها.

هكذا أجابه (منصور) وهو يتفرس في وجهه علامات الحب لهذه الفتاة، أما (يواكيم) فقد همس في أذن (سكوت) أن يوصي (منصور) بمراقبة الفتاة تحسبا لأي احتمال!

وصلت (ليندسي) إلى المستشفى وتم حجزها في إحدى الغرف لحين ظهور نتيجة تحليل كريات دمائها البيضاء للتأكد من التهاب زائدتها

الدودية إن كان تعداد الكريات عاليا، ووقت الانتظار هذا كان هو فرصتها للتصرف.

اكتفى (منصور) بترك رجلٍ واحدٍ من رجاله في مرافقتها داخل المستشفى، وقدرت (ليندي) بأنه غالبا يجلس خارج غرفة حجز المرضى يغالب الملل والزحام بالتودد إلى بعض الممرضات. وقررت استغلال عرض القياء لخداعه، فكانت تخرج راكضة إلى الحمام المقابل لغرفة الحجز متصنعة الرغبة في القياء فيقف الرجل متحفزا ثم لا يلبث أن يعود للجلوس وهو يراها تعود إلى الغرفة تتصنع مسح فمها، وبعد عدة مرات صار الرجل أقل تحفزا فصار يكتفي بمتابعتها بعينه في قلة الأكرات.

وفي المرة التي قررت فيها مراوغته، جمعت أغراضها المهمة من حقيبة يدها ودستها في جيوبها وأخفت شالها تحت ملابسها، ولما اختفت عن أنظاره داخل الحمام لفت شالها هذا حول رأسها مثلما تتحجب الفتيات المصريات وانتظرت لحظة خروج فتاتين من الحمام فخرجت وسطهما دون أن تلفت انتباهه.

ولما أحس الرجل أنها قد غابت عن ناظريه دخل الغرفة فوجد حقيبتها فوق سريرها فقدر أنها خرجت من الحمام وعاودت دخوله وهو عنها غافل فجلس يترقب خروجها.

وقبل أن يساوره القلق من تغييبها كانت هي تشق طريقها خارج المستشفى وتلقي بنفسها في أول سيارة تاكسي وتطلب منه التوجه إلى مدينة ملوي.

قررت (ليندسي) أن تعرج بدايةً على شقتها هناك لتبدل ملابسها ولتجمع حاجياتها المهمة وأولها الحاسوب المحمول والنقود التي تحتفظ بها في الشقة، ثم تنزل لتشتري هاتفًا محمولًا كما اتفقت مع (حامد)، فقد كانت تريد الخروج من الأشمونين في أسرع وقت هروبًا من احتمال ملاحقة الحارس لها كما أنها قدرت أن شراء الهاتف والخط سيكون أيسر في المدينة.

أخذت (ليندسي) ما كانت تريده من شقتها ثم نزلت مسرعة منها ترتب خطواتها المقبلة؛ شراء الهاتف والاتصال بالسفارة الأمريكية ثم العروج على قسم الشرطة للإبلاغ عما حدث، ثم فكرت أن الذهاب لمديرية أمن المنيا مباشرة سيكون أكثر نجاعة من قسم شرطة صغير..

_ آنسة (ليندسي) من فضلك اركبي معنا.

أفاقت من أفكارها على من يخاطبها هكذا في صرامة وفي لغة إنجليزية متقنة، التفتت إلى مصدر الصوت فوجدت رجلاً طويلاً رياضي القوام ويرتدي بدلة كاملة ونظارة شمس سوداء ويقف خلفه رجلان لا يختلفان عن هيئته.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

ترددت قليلا في التفكير ثم قالت في لهجة حاولت قدر إمكانها أن تكون ثابتة:

_ أريد رؤية هويتك من فضلك.

_ بكل سرور.

ومد يده إلى جيب بدلته الداخلي كأنه يستخرج محفظته وفي حركة خاطفة كان يكمم فمها بيد ويحملها كالعصفور باليد الأخرى إلى داخل السيارة التي كانت تقف خلفهم.

(٢١)

وقف (منصور) في صالة البيت يصرخ في هاتفه المحمول ويسب مساعده الذي اتصل يبلغه بفقده أثر الفتاة الأمريكية من المستشفى، ثم أغلق الخط في وجهه وأخذ يفكر فيما ينبغي عليه القيام به، وهداه تفكيره إلى صلة (حامد) بكل هذا بعد أن أخبره (سكوت) بما كان منه، إذن فهو بالتأكيد يعرف أين ذهبت وكيف ستصرف ولا بد من استجوابه فوراً، وقبل أن يخطو إلى حيث يتجمع الباقون في المقبرة فوجئ بباب الدار يفتح..

_ (فاروق) باشا؟! _

هكذا هتف (منصور) في فزع وهو يرى الباشا يدخل عليه صالة البيت ووراءه اثنان من حرسه، وبعد أن أفاق من دهشته تناول برأسه ليتفقد وجود رجاله من فتحة الباب وراءهم فقال له (فاروق):

_ لقد ذهبوا إلى حال سبيلهم.

وأشار بأصبعه من وراء كتفه فأغلق أحد الرجلين الباب وراءهم ثم قال لمنصور:

_ أنا غاضب منك يا (منصور).

فابتلع (منصور) ريقه وقال:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ أقسم لك يا باشا أنني هنا فقط لنقل عدة خزائن من البرديات، أما التابوت وباقي محتويات المقبرة فلا علاقة لي بهم، واسأل سيد (سكوت).

_ ولماذا لم تخبرني بعثورهم على هذه المقبرة؟

رد عليه بدهشة:

_ أنا أخبر معاليك؟ لقد ظننت أن دوري يبدأ وينتهي عند نقل اللفائف ولم أتخيل أن يخفي (سكوت) أو الباقون عنك شيئاً كهذا.

هز (فاروق) رأسه ثم قال له:

_ هيا أرني الطريق.

ومشى (منصور) أمام (فاروق) إلى حيث النفق وهو يلتفت إليه كل عدة ثوانٍ ليشير؛ من ها هنا يا باشا، حتى نزل بهم النفق ووصلوا إلى سلام غرفة المقبرة الأولى، فأشار (فاروق) لأحد مساعديه أن يقف عند مدخل تلك الغرفة فسدده تقريباً بحجمه الضخم، في حين مشى الثاني مكان ظل سيده حيث اقتادهما (منصور) للغرف السفلية، حتى وقف (فاروق) على رأس من يفحصون ويفرزون البرديات ثم قال:

_ أنت تلعب لعبة كبيرة جداً يا (سكوت) أنت وأصدقاؤك.

والتفتوا إليه جميعا مندهشين، في حين لم يصدق (حامد) و(صلاح) أعينهما حين رأوه وظن (حامد) أن النجدة قد جاءت وأن (ليندي) قد أثمرت تمثيليتها، بينما رد (سكوت) في ثبات رجلٍ مخضرم وقال:

_ أنا وبعثتي لا نريد سوى تلك اللفائف والتي أعلم أنها لا تهمك كثيرا سيد (فاروق)، أما المقبرة والتابوت فاسأل (منصور) يخبرك أن البعثة الأخرى كانت تُحضّر لمؤتمّرٍ عالمي للإعلان عن اكتشاف القرن.

_ ودون أن تخطروني؟

_ هل لم يخطر (منصور)؟ لم أكن أعلم أنه يعمل من وراء ظهرك، ويمكنك تفقد التابوت وباقي أغراض الملكة الجميلة حتى تتأكد أنها لم تمس.

التفت (فاروق) إلى (منصور) بنظرة غضب سريعة ثم عاد بوجهه إلى (سكوت) وقال:

_ ومن أين لي أن أصدق أنكم لم تكونوا لتشحنوا التابوت معكم؟

رد عليه (براندت) معتبرا نفسه متحدثا باسم مجموعة التابوت:

_ ماذا كنا لنصنع بها؟ إن الشهرة والمجد والمال سنجنيهم من إعلاننا للعالم عن اكتشافها.. الملكة كنزٌ أكبر من أن يسرقه أحد أو أن يشتريه أحد.. أي أحد.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وضغط على كلمته الأخيرة بطريقة موحية، فهز (فاروق) رأسه ثم مشى إلى حيث أكوام البرديات وأخذ يفحص بعضها ثم قال:

_ وهذه البرديات؟ واضح أنها تهتم بعضكم جدا لدرجة أن يضحي بمجد اكتشاف مقبرة نفرتيتي بكل جلالتها من أجل الحصول عليها.

قال (سكوت) في حزم:

_ ماذا تريد منا يا (سيد) فاروق؟ نحن لم نتأخر عنكم أبدا، وإذا كان بعض رجالك يعملون من خلف ظهرك فهذا ليس ذنبنا نحن.

رد عليه في حزم أشد:

_ بل مسئوليتك أنت وزملاؤك، وأنا على يقين أنك كنت تريدها عملية بعيدة عن أنوف كبيرة مثل أنفي، لكنكم كدتم تضيعون كل شيء بثقتكم بهذا الأخرق..

وأشار إلى (منصور) ثم أكمل:

_ فالأمريكية (ليندسي) فرّت من تحت أعين المغفلين أتباعه وأدركنها نحن قبل أن تذهب لمديرية الأمن وقبل أن تتصل بسفارة بلادها.

بهت الجميع في حين قام (حامد) كاملسوع وجرى باتجاه (فاروق) وهو يقول:

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

_ ماذا؟ (ليندسي)؟ هل أصابها مكروه؟ أين هي الآن؟

وقبل أن يصل (حامد) إلى (فاروق) كان الحارس يدفعه دفعة واحدة بيده أرسلته كالكرة بعيدا عن سيده، والتفت (سكوت) إلى (يواكيم) وقال:

_ لقد كنت محقا في شكك في (ليندسي) وفي أن مرضها تمثيلية بينها وبين روميو هذا.

وأشار إلى (حامد) ثم وجه كلامه إلى (فاروق) وقال:

_ ولكن ماذا عن (ليندسي) فعلا؟ سوف تقلب سفارتها بل حكومة بلادها الدنيا إن أصابها مكروه.

رد عليه في ثقة:

_ هي في أمان حتى الآن، ولا تقلق كثيرا مما قد تسببه من إزعاج فهناك ألف طريقة لإسكاتها في هدوء..

ثم نظر تجاه (منصور) وأكمل قائلا:

_ حادث سيارة مثلا كالذي راح فيه (بيشوي) و(فانوس).. أليس كذلك يا (منصور)؟

واصفرّ وجه (منصور) في حين انتفض (صلاح) وقال:

_ ماذا؟ هل كان موتهما حادثا مدبرا وليس قضاء وقدرًا؟

وقبل أن يخطو أي خطوة كان الحارس يتحسس مسدسه فتجمد (صلاح) مكانه واكتفى بنظرات نارية تجاه (منصور)، في حين علا الغضب والذعر وجوه الباقيين فقال (يوجيه) في غضب:

_ ما هذا؟ لم تكن نريد كل هذه الدماء فكل شيء كان يمكن تسويته بالمال.

أجابه (فاروق):

_ ولذلك أخطأتم في اللجوء لمنصور دون الرجوع إلينا، ألم أقل لكم أنكم خرقاء وتلعبون لعبة أكبر منكم؟
رد عليه (سكوت) في غضب:

_ نحن نقدر غضبك يا سيد (فاروق) ولكن حاذر قليلا في كلامك فأنت تعرف من نحن ومن وراءنا.

صمت (فاروق) لثوانٍ قبل أن يجيب:

_ لذلك كنت ألوم عليكم سوء تقديركم لحجم الحدث وعدم لجوئكم لمن يقدر خطورته، بل كيف كنتم ستعلنون عن اكتشافكم مقبرة في قبو منزل من منازل الأهالي دون أن نهد لكم شكلا معقولا وقانونيا

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

للعثور عليها؟، عموماً دعونا نبدأ من جديد، هيا أطلعوني على ما عثرتم عليه.

ومضى مع (يوجيه) و(براندت) يتفحص مكونات المقبرة وملامح وجهه تتردد ما بين الدهشة والانبهار وإمارات الطمع، ولما انتهى من تفقد التابوت ومقتنيات الملكة قال (لبراندت):

_ كنت محقاً لما قلت بأن كنوز هذه الملكة أكبر من أن يشتريها أي أحد والمكسب الحقيقي هو في مجد الإعلان عن اكتشافها، سيكون حدثاً ثقافياً وتاريخياً بل وسياسياً لا يواهى..

ثم قال بطريقة موحية:

_ لكن أنا أرى هنا بعض القطع المكررة.. أليس كذلك؟

وصعق (حامد) ولم يصدق أذنيه أن يصدر هذا الكلام من (فاروق)، في حين رد (براندت) وقال بنفس الطريقة الموحية:

_ هناك خرطوش زجاجي سيكون مدفوناً في مومياء الملكة قد تهمننا بمقدار ما يهملك من القطع المكررة في المقبرة.

وأكملت (أودريه) بسرعة:

_ وعينة ولو جرام واحد من أنسجة المومياء.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

هز (فاروق) رأسه في فهم ثم توجه ناحية لفائف البردي وتفحصها قليلا ثم قال:

_ لا أفقه شيئا في الهيروغليفية لكن واضح أنها نفيسة جدا لدرجة تعادل نفاسة الملكة نفسها.

رد عليه (يواكيم) وقال في لهجة تعمد أن تكون غامضة:

_ بل أكثر بكثير يا سيد (فاروق)، وأتمن من أن يشتريها أحد وأخطر من أن يعلن للعالم عن اكتشافها.

وهزّ (سكوت) و(يوجيه) رأسيهما موافقين لكلام (يواكيم)، فسأله (فاروق):

_ أنت وجه جديد لم أرك من قبل لا مع (سكوت) ولا مع (يوجيه).

رد عليه وقال:

_ أنا يواكيم برنشتاين، أصلا من البعثة الألمانية لكن البرديات أثارت اهتمامي أكثر.

ضحك (فاروق) وقال:

_ مفهوم مفهوم، لكنك تفر أنها تساوي مالا طائلا، أليس كذلك يا ابن العم؟

ابتسم (يواكيم) ولم يرد في حين قال (سكوت):

_ تخيلوا أي رقم يا سيد (فاروق)..

فقاطعه (فاروق) وقال:

_ لكننا سنحتاج إلى تصوير نسخة من هذه البرديات!

ردوا عليه:

_ مستحيل!

ابتسم في ثقة وقال:

_ أليس هذا أفضل من أن نحتفظ نحن بالنسخ الأصلية ونجعلكم تكتفون أنتم بالنسخ المصورة؟ وأيضا ستدفعون فيها نفس الأرقام التي نتخيلها!

همّ أن يرد عليه (سكوت) فأشار له (يواكيم) بيده ثم أجاب هو:

_ صدقني يا سيد (فاروق)؛ موازين القوة هنا في المقبرة ليست كما تتخيل، ولا نستطيع تحديد من يملك الكلمة الأخيرة في تسيير الأمور فيها، لكن أنا واثق من أن الأمر أخطر من أن يتحكم فيه أشخاص أو منظمات أو حتى دول وحكومات، هناك نظام عالمي ولا أعتقد أن أحدا منا سيرحب بمعاداته.

جدحه (فاروق) بنظرة حادة طويلة ثم قال:

_ إذن فلنكتفِ بأن أحصل على صور للنسخ.

ردّ عليه (يواكيم):

_ ما رأيك أن نكتفي بصور لبعض البرديات؟ وسندفع بسخاء ثمننا

لعدم تصوير البرديات الأخرى؟

هز رأسه موافقا وسكت قليلا ثم أشار (لحامد) و(صلاح) وقال:

_ وماذا عنهما؟ لماذا كنتم تدبرون لهجرتهما للخارج؟

أجابه (براندت):

_ كي نشترى سكوتهما حتى ننتهي من مهمتنا ويضمنا هما سلامتتهما

من عواقب التنقيب غير القانوني.

_ وطبعا كنتم ستحسنون شراء سكوتهما... الوضع اختلف الآن فلقد

صارا يعرفان أكثر مما ينبغي.

ثم توجه بنظره نحوهما وأكمل قائلا:

_ لذا أنا بحاجة لوجودهما هنا كي أضمن ألا يثرثرا كثيرا وهم بالخارج.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وسقط قلب (صلاح) في قدميه، بل أحس أن قلبه يغور في طبقات الأرض العميقة فتزعج دقاته العنيفة ملوك الجن السفلي فيسارع أحدهم بنهشه، وأحس فعلا بنغزة قوية في قلبه فقال ووجهه يصفر وبييض:

_ لكن يا (فاروق) باشا...

قاطعته في حزم وقال:

_ هذا أضمن لسلامتكم، الملايين التي وعدوكما بها ستجذب حولكما عصابات أوروبا، أنا هنا سأتولى حمايتكما، واطمئنا فلسوف تنالان ما يرضيكما من المال طالما أبقى كل واحدٍ منكما لسانه داخل فمه.

وأحس (صلاح) بكل جسده هذه المرة يهبط إلى حيث ملوك الجن، وعلا ضجيج التفكير في عقله كأن حجيم باطن الأرض يستعر في دماغه.. لقد ضاع كل شيء.. طالما سيتولى هو مسألة رضانا فلن نحصل إلا على فتات، بل حياتنا التي يقول إنه سيتولى حمايتها لم تعد في أمان طالما يرانا مصدر تهديد وثرثرة.

أما (حامد) فكان يحس بالذنب تجاه (ليندسي) أن ورطها في هذه العملية، بل يندم على ما حصل كله، لكنه يعلم أن كلامه لن يكون مؤثرا مع (فاروق) فقال موجهها حديثه للأجانب:

_ و(ليندسي)؟ هل ستمون صفقتكم وتتركونها للمجهول؟

وقبل أن يعقب أحد منهم قال (فاروق):

_ طالما لن تسبب لنا أي مشاكل أو نشر إشاعات فنحن في غنى عن أي مشاكل مع بلادها.

لكن (حامد) يعلم أن سلامة (ليندسي) لا تساوي لديهم جميعا أكثر من سلامة بردية واحدة من تلك البرديات..

ويعلم أكثر أن وعود (فاروق) هذا كمواعيد عرقوب..

لكنه يعلم أكثر وأكثر أنه هو على استعداد لفعل أي شيء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وأخذت عيناه تدوران في أرجاء المقبرة يبحث عن أي مخرج أو حل.. وتذكر حقيبة متفجرات (يوجيه) الملقاة على أرضية حجرة المقبرة العلوية وكأن الجميع قد نسوا أمرها..

وخطرت في عقله فكرة مجنونة.. بل هي التصرف الوحيد المتاح أمامه الآن.. ولكن كيف؟ كيف سيستفيد بهذه الحقيقية؟ هل يفجر نفسه مثلا فيهم؟ هل يموت كافرا وفوق ذلك قد يدمر بيديه ما يريد الحفاظ عليه؟

وسوّ له شيطان الغيظ أن يفجر الحقيية في قلب الخزائن والتابوت فيحرق قلوبهم جميعا.. لكن ما ذنب الإنسانية أن يضيع منها كنز مثل هذا حتى وإن كان في غير أيدي مستحقيه؟ لا يمكن تطبيق نظرية شمشون هنا في هدم هذا المعبد فوق رؤوس الجميع.

شمشون؟؟

انتبه فجأة عندما ردد عقله هذا الاسم.. فارتسمت بداخله خطة مجنونة.. ليست فقط مجنونة بل صعبة التنفيذ ومشكوك في نسبة نجاحها.. لكنها حيلة اليأس وقشة الغريق.

وتصنع الهدوء والاستسلام للأمر الواقع في حين انشغل الباقون عنه بشئونهم.. وتسلسل للحجرة العلوية حيث تقبع حقيية المتفجرات، إنه يتذكر جيدا كيف كان (يوجيه) يجهزها للتفجير.. سيهدم المعبد ولكن ليس فوق رؤوس الجميع مثل شمشون.. إنما سيفجر المعبد ليحبس الجميع داخله كأنه مصيدة فئران!

الجميع هنا بالأسفل حتى حارسي (فاروق) الذي يقف أحدهما كالثور يسد بجسده بوابة المقبرة الرئيسية والآخر يلازمه بدلا من ظله. وجلس بجوار حقيية المتفجرات وتكور محتضنا ركبتيه متعمدا ألا ينظر تجاه حارس بوابة المقبرة العلوية الذي ظل يراقبه لدقيقة قبل أن يصيبه الملل ويبدأ في الاعتياد على وجوده. وبعد دقائق من

الاعتیاد أخذ (حامد) یعبث فی مكونات الحقیبة كأنه یسلی وقته بالتفرّج علی مكعباتها غیر المعتادة الشكل كمتفجرات، وحمد الله أن شكل المكعبات لم یثر ریبة الحارس ولا فضوله، وإنما اكتفی برمقه لدقیقة ثم تحول عنه فی ملل.

وحانت فرصة لا تعوض لحامد؛ إذ أشعل الحارس سیجارة وجلس أرضا یدخنها وهو مستند بظهره إلى جانب مدخل البوابة مولیا جانب وجهه (لحامد)، واستغل (حامد) غیابه عن مدى الرؤیة المباشرة للحارس وأخذ فی تلقیم المتفجرات واحدة بعد الأخری وقلبه یدق بعنفٍ لا یظن أن دوی الانفجار المرثقب سیفوقه ضجیجا.

وأخذ عقله یفكر بسرعة فی النقطة الأمثل من المقبرة لتفجیرها، إنه یرید حبس الجمیع فی هذه المقبرة مع المحافظة علی كنوزها.. سوف أحفظ الأمانة التي حفظتها باطن دارنا لألوف السنین.. سأظل حارسا لكتاب التاریخ ولو كلفني ذلك قضاء حیاتي مدفونا فی صفحته هذه.. سیدكرني التاریخ فی سجلات حراسه السریین.. لا یهمني أن یدونني المستقبل فی صفحات خلود الماضي، فكم من جنودٍ مجهولین كانوا أعظم أثرا من أعلام خلود التاریخ المشهورین.. یکفیني أن أكون سطرًا - أو حتی هامشًا - فی نفس صحفة المجهولین الذین بنوا هذه المقبرة وحفظوا كنوز الحقیقة داخها دون أن یدونوا أسماءهم فیها.. بل لا یضیرني أن یأتي من یفتح المقبرة من بعدنا فیظن هیاكلنا بقایا أجساد

لصوص عاقبهم حراس المقبرة بدفنهم فيها، فكم من مظلومٍ كان لبنة في جدار الحضارة، بل إن صروح الحضارات لم تبن إلا على هامات المظلومين.. بل لا يهمني إن فشلت خطتي، المهم أن أستنفذ ما في وسعي كما استنفذ حارسو المقبرة قدرتهم في صنعها وحفظ أسرارها، فالنجاح لا يكتب في النهاية إلا لمستنفدي قدرتهم وحيلتهم..

وانتهى من تلقيم ما طالته يده داخل الحقيبة، لا يهم أن يلقمها جميعا فسيستولى بعضها تفجير بعض، المهم الآن ضبط المؤقت؛ دقيقة واحدة تكفي لأن يستجمع أعصابه ويهم واقفا وقبل الانفجار بلحظات يغافل الحارس بطريقة ما ويلقي بالحقيبة داخل النفق لتنهار أركانه حابسة الجميع في داخله.

وأفاق من أفكاره على صوت الحارس يأتيه من عند بوابة المقبرة يصيح متسائلا عن صوت هذه الطقطقة، وانتبه (حامد) أن المؤقت يصدر الصوت الذي لفت أخيرا انتباه الحارس، وهم الحارس واقفا متجها صوب (حامد) الذي ارتبك كيف يراوغ الحارس حتى تمر ثواني تلك الدقيقة، وأحس كأن الحارس يسد أرجاء الغرفة عليه بجشته الضخمة، فوجد نفسه تلقائيا يفر نازلا إلى الحجرة السفلية، ومن خلفه ينزل الحارس ويسبقه نداؤه.

_ أوقفوه.. ماذا في حقيته تلك؟

وانتبه من في المقبرة السفلية على تلك الجلبة، وكانوا جميعا في حجرة الملكة والخزائن، ولمح (يوجيه) حقيبته في يد (حامد) الذي وصل أرض الغرفة، فصاح فزعا:

_ إنها حقيبة المتفجرات!

وهبوا جميعا ليخرجوا من تلك الحجرة، وتعثر بعضهم في بعض وفي محتويات الغرفة، ووصل الحارس الذي نزل في إثر (حامد) وأمسك به محتضنا إياه من خلف ظهره، وحاول (حامد) التملص من بين يدي ذلك المارد فلم يفلح بالطبع، ورفع رأسه فوجد (صلاح) يقف بالقرب منه يتأمل مشدوها ما يجري أمامه، والتقت عيناهما فاستغرب (حامد) أن نظراته النارية التي اعتادها من عينيه منذ تعاركا داخل المقبرة قد انقلبت نظرات بردٍ وتعاطف، إنها أقرب لنظرة عينيه يوم استقبله على محطة القطار..

هل هذا معقول يا ابن العم؟

هل ثبت إلى رشدك؟ أم هي صدمتك بعدما اكتشفت نوايا الباشا (فاروق)؟ فانسحقت كل أحلام الثراء لديك تحت قدمه الثقيلة ولم تترك لك إلا أمنية مجرد السلامة من أذاه؟ أم أن دمنا الواحد الذي يسيل في عروقنا قد أزال أخيرا غشاوة عينك؟

وجاوبته عينا (صلاح)؛ إنه الندم يا ابن عمي لكن الأوان قد فات..

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وقذف (حامد) الحقيبة إلى ابن عمه الذي تلقفها متسائلا، فردت عليه عينا (حامد) أن افعل أي شيء يكون لك عذرا..

وكأن الحل قد هبط على رأس (صلاح) من السماء.. أو كأن حارس المقبرة قد نفثه في روعه..

فلمعت عيناه وهو ينظر إلى التجويف الذي ألقى إليهم برسائله ولم يصعده هو قط.. إنه أضعف نقطة في جدر تلك الغرفة، ومن وراء جداره يقبع النفق الذي حفروه إلى المقبرة، ويموج قلب ذلك الجدار بفراغات الحيل التي صادفوها أثناء البحث عن مفتاح المقبرة..

وطالما أنه حمل لهم مفتاح لغزها؟ فلماذا لا يكون هو أيضا رتاجها وقفلها؟

وفي ثانية واحدة كان (صلاح) يطوح الحقيبة إلى داخل ذلك التجويف، وقبل أن تصيب قلبه رصاصة الحارس الآخر كان التجويف ينفجر مهيلا ما وراءه من طبقات التاريخ التي نبشوها؛ معيدا طبي سجلاته التي انتهكوا خواتمها.

وساد الصراخ من الجميع وهم يرون أكوام الحجارة والتراب تسد عليهم كل المخارج، وصاح من صاح في جزع:

_ سنقضي هنا جميعا قبل أن يفتن لوجودنا أحد.

ابن العم _____ محمد عزيز الشافعي

وانفلت (حامد) من يدي الحارس - الذي تجمد مذهولا - وجرى
يتلقف (صلاح) الذي سقط بين يديه مبتسما رغم ما يصارعه من
سكرات الموت، ثم قال:

_ لم أنخيل أن يصدر كل هذا منك يا (حامد).

أجابه بابتسامة حزن ودمعة تسقط منه فوق صدر (صلاح):

_ بل أنا الذي لم أتوقع أن يتغير موقفك كل هذا التغير.

_ هل ترانا دفنًا السر فعلا من جديد؟ أم أننا فقط طمرنا أنفسنا
وسط زمرةٍ من اللصوص؟

_ للحق ربُّ يحميه، أما نحن فلا ضير علينا هنا بين تراث الأجداد!

تمت

رسالة ..

إلى كل إنسان على هذا الكوكب الافتراضى .. كن فى
الحياة إنسان .. وصل رسالة طيبة للناس وانشر بينهما
الخير والحب والسلام .. كن أنت فقط ولا تحاول أن
تكون غيرك .. اصنع لنفسك عالم يليق بك .. إزرع
داخلك الثقة والطموح والتفاؤل والرضا وحب الله
والذات والوطن .

" الناشر "

للتواصل مع الدار :

www.facebook.com/dar.cleopatra

Gmail : dar.cleopatra@gmail.com

: للاتصال

01019983371 / 01125574129 / 0225244534